التربية الإسلامية
فى
سورة التوبة

تأليف
الدكتور على عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع: ١٦٩٤٠ / ١٩٩٩م

الترقيم الدولى: I. S. B. N.: 977 - 265 - 269 - 2

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى الراغبين فى أن يربوا أنفسهم وأبناءهم وغيرهم من الناس تربية إسلامية نابعة من مصدرى الإسلام الأساسيين:

القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وإلى العاملين فى مجال تربية الأجيال المسلمة.

وإلى رجال الدعوة الإسلامية فى كل مكان.

وإلى الذين يحملون عِبء العمل فى الحركة الإسلامية.

وإلى المهتمين بالتربية الإسلامية فى كل مجال من مجالاتها.

إليهم أقدم هذه الحلقة السابعة من سلسلة «التربية فى القرآن الكريم» وهى: التربية الإسلامية فى سورة التوبة - براءة - سائلا الله تبارك وتعالى أن ينفع المسلم بما جاء فى كتابه الكريم، وبما أوضحته وفسرته منه سنة الرسول ﷺ، «فلن يضل من تمسك بهما» كما أخبر بذلك المعصوم محمد ﷺ.

والله سبحانه وتعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

على عبد الحليم محمود

الإسكندرية فى: ٣٠ من شهر ربيع الآخر ١٤١٩ هـ

الموافق: ٢٣/٨/١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يَدَىْ هذه السلسلة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه والمتمسكين بسنته إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فإن هذه السلسلة «التربية فى القرآن الكريم» عمل تطلب منى جهدا ووقتا، أرجو أن أكون قد وفَّيتُ به بعض ما علىّ من واجب نحو ما علَّمنى ربى من كتابه وسنة رسوله ﷺ، وأن أكون قد حظيت من أجله بعون من الله تعالى وتسديد.

وقد قلتُ فى مقدمة كل حلقة من حلقاته الست التى صدرت إنه عمل كبير يحتاج إلى جهد أكثر من واحد من الناس، لأن استنباط المواقف التربوية العامة، أو الخاصة بالدعوة إلى الله من آيات القرآن الكريم عمل غير مسبوق - فى حدود ما أعلم - ولو كان مسبوقا لمهَد السابق للاحق ويسرَّ له معالم يهتدى بها فى طريقه.

ومن أجل هذا احتاجت كل حلقة من حلقات هذه السلسلة منى إلى وقت وجهد طويل من تدبر لما فى الآيات الكريمة من مواقف تربوية عامة أو خاصة.

ولقد كان فضل الله وتوفيقه عونا لى على إنجاز ست حلقات من هذه السلسلة ذات الحلقات السبع، وهى:

١ - التربية الإسلامية فى سورة المائدة.

٢ - والتربية الإسلامية فى سورة النور.

٣ - والتربية الإسلامية فى سورة آل عمران.

٤ - والتربية الإسلامية فى سورة الأحزاب.

٥ - والتربية الإسلامية فى سورة الأنفال.

٦ - والتربية الإسلامية فى سورة النساء.

وهذا الكتاب هو الحلقة السابعة وموضوعه:

٧ - التربية الإسلامية فى سورة التوبة.

أسأل الله تعالى أن يمنحنى من الأسباب ما أستطيع به أن أخرجها للناس، بحيث يكون فيها النفع فى الدنيا والآخرة.

* وقد سبق لى أن نبهت - فى الحلقات السابقة - إلى أن المواقف التربوية التى أستنبطها من الآيات الكريمة تتجه إلى نوعين من القرّاء:

- **الأول منهما هو:** المسلمون عموما.

- **والآخر هو:** الدعاة إلى الله والعاملون فى مجال الحركة الإسلامية على وجه الخصوص.

وكلا النوعين يستطيع أن ينتفع بهذه الاستنباطات التربوية فى دينه ودنياه، ما دام قد أخلص فيما يقرأ ويتدبر، وما دام مستعدا لأن يؤدى واجبه نحو ربه طائعا مختارا، ممارسا للدعوة إلى الله؛ لينقل بها الناس من الضلال إلى الهدى أو من الكفر إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

* وأرجو الله تبارك وتعالى أن يزداد المؤمنون إيمانا بقراءة هذا الكتاب، ويزدادوا به هدى وفقها وفهما للدين وللدعوة والحركة، وأن يصبحوا أكثر امتثالا لما أمر الله به، وأشد اجتنابا لما نهى الله عنه، وبذلك تسهل الدعوة إلى هذا الدين والحركة به فى الناس وفى الآفاق حتى يصبح الدين كله لله، فلا يعبد غيره فى الأرض.

* أما غير المؤمنين إذا قرأوا هذا الكتاب وأمثاله، فلعل الله تعالى أن يجعل ذلك سببا فى هدايتهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فيصبحوا فى زمرة المؤمنين، إنه سبحانه على ما يشاء قدير.

* وأحب أن أنبه إلى ما سبق أن قلته فى تقديم الحلقة الأولى من هذه السلسلة «**التربية الإسلامية فى سورة المائدة**» فى إجمال فيما يلى:

* اشتركت جمع الأديان والشرائع التى جاءت من عند الله تعالى فى إرساء دعامتين أساسيتين يقوم عليهما بناء التعليم والتربية، وصياغة الإنسان المؤمن الذى يرضى عنه

خالقه سبحانه وتعالى، هاتان الدعامتان هما:

- توحيد الله تبارك وتعالى إلهًا وربًا وخالقا ورازقا، وعبادته سبحانه وفق ما شرع وأوحى على لسان رسله عليهم السلام، بدليل أن كل نبى أو رسول قال لقومه كما أمره ربه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[1].

- وطاعة الله تعالى فى كل ما أمر به، أو نهى عنه، بدليل أن كل نبى أو رسول طالب قومه بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله فقالوا لأقوامهم ما أمرهم الله تعالى به، فبعضهم قال لقومه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢] وبعضهم قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] وبعضهم قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢] وبعضهم قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

* وما طالب الأنبياء والرسل عليهم السلام أقوامهم بتوحيد الله تعالى وطاعته إلا لما فى الالتزام بذلك من أهمية بالغة فى تربية الإنسان تربية إيمانية صحيحة تقربه من ربه وتمكنه من إعمار الأرض - التى استخلفه الله تعالى فيها - وتحقق له سعاده الدنيا والآخرة.

* وإذا كانت مفردات التربية الإسلامية للإنسان - كما أوضحت ذلك فى سلسلة «مفردات التربية الإسلامية» مما اهتم الإسلام بإبرازها فى آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، فإن ذلك يعنى وجوب أن يتكامل بناء الفرد المسلم لتتكون منه الأسرة المسلمة، فالمجتمع المسلم القادر على قيادة موكب الحضارة والإنسانية الراشدة الصالحة.

- وقد استطعنا فى تلك السلسلة أن نحصى من هذه المفردات عشرا هى: التربية الروحية، والتربية الخلقية ، والتربية العقلية، والتربية الجسمية أو الدنية، والتربية الدينية، والتربية الاجتماعية، والتربية السياسية، والتربية الاقتصادية، والتربية الجهادية،

---

(١) وردت هذه الآية الكريمة بنصها فى سورة الأعراف أربع مرات فى الآيات : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ، وفى سورة هود ثلاث مرات فى الآيات : ٥٠، ٦١، ٨٤ ، وفى سورة المؤمنون مرتين : ٢٣، ٣٢.

(٢) وردت هذه الآيات الكريمة فى السور التالية :

آل عمران : ٢٣، ١٣٢ ، والنساء : ٥٩ ، والمائدة : ٩٣، والأنفال : ١، ٢٠، ٤٦، والنور : ٥٤، ٥٦، ومحمد : ٣٢، والمجادلة : ١٣، والتغابن : ١٢، ونوح: ٣، ثم فى آل عمران: ٥٠، والشعراء: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩، وفى سورة الزخرف : ٦٣.

والتربية الجمالية[1].

* ومن أجل أن نعرف التربية الصحيحة المتكاملة للإنسان، كان اتجاهنا إلى القرآن الكريم، وإلى شرحه وتفصيله فى السنة النبوية المطهرة، إذ يصعب فهم القرآن الكريم فهما علميا عمليا إلا بالسنة النبوية التى أكد الرسول ﷺ مكانتها من القرآن الكريم فى عدد من أحاديثه الشريفة التى نذكر منها:

- ما رواه الإمام أحمد وأبو داود بسنديهما عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السبع، ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروهم، فإن لم يقروهم فلهم أن يعقبوهم بمثل قراهم».

- وما رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بأسانيدهم عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئا على أريكته يُحَدَّث بحديث من حديثى فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه، ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله».

- ورواه الطبرانى فى «الكبير»، والبيهقى فى «شعب الإيمان» بسنديهما عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال[2]، وأُعطيتُ مكان الزبور المئين[3]، وأعطيتُ مكان الإنجيل المثانى[4]، وفُضلتُ بالمفصَّل»[5].

ولعل هذه الأحاديث النبوية الشريفة تَرُدُّ على أولئك الأغرار الذين تحدَّث عنهم النبى

---

(١) صدر من هذه السلسلة ثلاث حلقات: التربية الروحية والتربية الخلقية، والتربية العقلية ونسأل الله العون فى إصدار باقيها.

(٢) السبع الطوال هى سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس.

(٣) المئون هن : كل سورة من سور القرآن تزيد على مائة آية.

(٤) المثانى هن : كل سورة تقل عن مائة آية - ما عدا المُفَصَّل ، وتطلق كلمة المثانى على سورة الفاتحة.

(٥) المفصّل هو : السور القرآنية الكريمة ابتداء من سورة الحشر إلى آخر سورة الناس.

ﷺ قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، فوصفهم بأنهم جلوس على الأرائك شبعانون يرفضون السنة النبوية مكتفين بالقرآن الكريم، وأعجب من ذلك أن بعضهم يسمون أنفسهم: القرآنيين!!

* ومن أجل انتقاء أفضل المناهج وأحسنها وأكملها فى تربية الإنسان.

* ومن أجل تربية المسلمين جميعا صغارهم وكبارهم، أفرادهم وجماعاتهم على منهج الإسلام فى التربية.

* ومن أجل التأكيد على تميز المسلمين عن غيرهم من الناس فى التربية الشاملة المتكاملة؛ من أجل ذلك كان توجهى إلى القرآن الكريم والسنة النبوية أستنبئهما عن التربية الإسلامية؛ أهدافها ووسائلها وأبعادها وأنواعها وخصائصها؛ ليكون المسلمون على علم ومعرفة بهذا الكنز الثمين.

* ومن أجل بناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة كان من الضرورى للمسلمين النافع لهم فى دينهم ودنياهم أن يتربوا ويتعلموا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ليستوعبوا الأهداف النبيلة الصحيحة والقيم الثابتة الرفيعة، لينطلقوا بعد ذلك فى مجالات العلم والمعرفة ليعمروا الأرض التى استخلفهم الله تعالى فيها بالإيمان والعلم، لتكون لهم بذلك أرقى حضارة إنسانية من خلال مجتمع إنسانى فاضل صالح لممارسة الحياة الإنسانية الكريمة له ولغيره من الناس.

* ولا يستطيع المسلمون أن يتعلموا من مصدر أو مرجع للعلم والثقافة والمعرفة، ولا أن يتربوا تربية صحيحة كما يجدون ذلك فى القرآن الكريم وفى سنة المعصوم ﷺ، فلقد أورد أبو بكر الأنبارى[1] رحمه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم».

قال العلماء فى تفسير هذا الحديث: إنه مَثَل: شبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه، فالقرآن الكريم مأدبة صنعها الله ثم دعا إليها عباده.

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنبارى (٢٧١- ٣٢٨ هـ) من أعلم أهل زمانه باللغة والأدب، ومن أكثر الناس حفظاً، كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد فى القرآن، ولد فى الأنبار على الفرات وتوفى ببغداد، وله كتب كثيرة من أجلّها كتابه: غريب الحديث.

* وقد أجمع العلماء على أن أهم ما يحتـاج إليه الإنسان من التعلُّم والعلم والتعليم والتأدب من أجل أن يحيـا حيـاة إنسانية كـريمة، ومن أجل أن يلقى ربه وهو عنه راض ليحيـا حياة أبدية سعـيدة، هو ما يصحح به عـقيدته وعبادته وتعـامله مع الناس، وقد أجمل العلماء ذلك كله فى علمين:

ـ علم التوحـيد: أى توحـيد الله تعالى إلهـا وربا وخالقا ورازقـا وباعثـا ومحاسـبا ومجازيا . . .

* وعلم أفعال العـبيد: أى الأعمال الصالحة التـى تعود على الإنسان بالنفع فى دينه ودنياه فى تعامله مع ربه ومع نفسـه ومع الناس.

ويدخل فى هذين العلمين جميع العلوم والمعارف مما له صـلة بحياة الإنسان الدنيوية والأخروية.

* والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد تكفلا ببيان ذلك لمن تدبر ووعى، بيانا لم يسبق فـيه ببيـان ولم يلحقه فى ذلك مـنهج أو كتاب، وهذا من فـضل الله على الأمة الإسلامـية التى أورثهـا الله الكتاب وجـعله خاتم الكتب وأتمهـا وأكملهـا وأرضاها لله تعالى.

* وللقرآن الكريم وللسنة النبوية منهج فى التربيـة لا يضاهيه منهج سابق أو لاحق، فقد تفرد بخصائص ما اجتمعت فى منهج آخر ومن تلك الخصائص[1]:

ـ أنه من عند الله تبارك وتعـالى، وغيره من عند الناس، وما كـان من عند الله فهو الأتم الأكمل والأوفق للناس.

ـ وأنه شامل لا ينقصه شىء مما يعود على الإنسانية بالخير فى الدين والدنيا.

ـ وأنه متكامل لا يستغنى بجزء منه عن غـيره من أجزائه أو سائره، وإنما هو منظومة متناسقة الأجزاء يكمل بعضها بعضا.

ـ وأنه متوازن فى توجيه جوانب شخصية الإنسـان وتربيتها جميعا، بحيث لا يطغى اهتمـامه بجـانب منها عـلى حساب جـانب آخر، كـما عـرف ذلك فى مناهج التـربية معظمها، فهو متوازن فى تربية الروح والخلق والعقل والبدن والحسّ الاجتماعى والوعى

(١) فصلنا هذه الخصائص فى الحلقة الأولى من هذه السلسلة : التربية الإسلامية فى سورة المائدة.

السياسى والرشد الاقتصادى وحب الجهاد وحب الجمال.

- وأنه إيجابى لا يرضى من مسلم أن يتواكل أو يكون عالة على غيره ما دام قادرًا على العمل والكسب، ولا يقبل منه عدم المبالاة بمصالح الآخرين، ويفرض عليه من النظم والقوانين ما يمكنه من ممارسة حقوقه ويوجب عليه القيام بواجباته.

- وأنه يجمع بين المثالية فى إرساء القيم الرفيعة، والواقعية باعترافه بواقع الإنسان وواقع الحياة التى يحياها فيضع له النظام الذى لا يعجزه الالتزام به ولا يشق عليه ولا يكلفه ما لا يطيق.

- وأنه يعنى بتربية الإنسان فردًا وعضوا فى أسرة أو مسئولا عنها، وعضوا فى المجتمع أو مسئولا عن قطاع من قطاعاته، وعضوا فى دولة مسلمة أو مسئولا عن أى مرفق من مرافقها، ومتعلما، وعالما ومعلما، وداعية إلى الله ومتحركا بدعوة الله فى الناس والآفاق، لا يتوقف عن ذلك حتى يلقى الله.

بينْ يدىْ هذا الكتاب

هذا الكتاب هو السابع الأخير فى سلسلة: «التربية فى القرآن الكريم».

وموضوعه: «التربية الإسلامية فى سورة التوبة».

وسورة التـوبة أو سورة براءة هى التى أوضحت الـعلاقة بين المجـتمع المسلم - الذى كمل تكويـنه على يد النبى ﷺ، بتوجيـه الوحى الإلهى وهُداه؛ إذ كـانت هذه السورة الكريمة من أواخر مـا نزل من القرآن الكريم إن لم تكن آخـره - كما سـنوضح هذا بعد قليل،- فى تعامله مع المجتمعـات الأخرى التى لا تدين بدين الإسلام من أهل الكتاب أو من غيرهم.

وهذه السورة ترسـى الدعائم وتقيم الأسس والـركائز التى تحدد مـعالم هذه العـلاقة وأبعادها وأهدافـها، لتصبح من بعـد ثابتة راسخة مـستمرة بعد حـياة النبى ﷺ، وهى سورة كريمة نجد فيها: رسم أبعاد العلاقة بين الدولة المسلمة التى أسـسها الرسول ﷺ فى المدينة المنورة وأعطاها جوهر الدول وأهدافها، وأعطاها من شـكل الدولة ما كان ملائما للزمان الذى أنشئت فيـه، وترك استكمال الشكل وتفاصيله لاجتـهادات علماء المسلمين فى الأزمـان التاليـة، وبين تلك الدول التى كـانت تعـاصرها كـدولتى الفـرس والروم وغيرهما، بل بينها وبين أى دولة أخرى فيما يستقبل من الزمان.

هذه السورة الكريمة - فى إيجـاز وقبل أن ندخل فى التفـاصيل - اهتمت بالعـلاقات العامة الخارجية للمسلمين مع غيرهم من أهل السلطات الزمنية المتعددة، وقد جاءت هذه العلاقـات فى صورتها النهـائية لأن السورة الكـريمة كانت من أواخر مـا نزل من القرآن الكريم.

وبهذا الكتاب أكون قد قلت مـا أردت أن أقوله فى التربية الإسلامية قيمـها ومبادئها وغاياتها ووسائلها ومفاهيـمها من خلال هذا السور السبع الكريمة: المائدة، والنور، وآل عمران، والأنفال، والأحزاب، والنساء، والتوبة، وفى تصورى أن هذه السور السبع لم تند عنها قيمة تربوية إسلامية، مما يلزم المجتمع المسلم أن يتعلمها ويتربى عليها.

وليس معنى ذلك أن سائر سور القـرآن الكريم خلتْ من الحديث عن القيم والمبادىء

والمفاهيم التربوية، فكل سورة فى القرآن قد اشتملت على قيمة تربوية أو أكثر، لأن القرآن الكريم هُدًى للناس، بل هدى ورحمة وشفاء، وماذا تكون التربية غير هداية الناس إلى الحق وإلى ما يصلح لهم دينهم ودنياهم ويهديهم إلى الأسلوب الأمثل للتعامل مع الناس والحياة؟

بل ماذا تكون التربية إن لم تكن رحمة للناس من عيوبهم وما يغريهم به الشيطان من انحرافٍ عن الحق واتباعٍ للشهوات؟

وماذا تكون التربية إن لم تحتو قيمها ومبادئها على ما يخلص الناس من أمراضهم النفسية والاجتماعية، فتقدم لهم العلاج الذى يوصل إلى الشفاء؟

إن القرآن الكريم كما وصفه الله تعالى فيه من القيم والمبادئ التربوية ما إن أخذ الناس به لسعدوا فى معاشهم ومعادهم، فقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

ولنا الآن ـ ونحن فى الحديث عن ختام هذه السور السبع- أن نذكر ما قلناه فى كل منها ونحن نتحدث عن موضعها، لنستعرض هنا أبرز القيم التربوية فى كل سورة منها، فنقول:

ـ إن سورة المائدة احتوت منهجا متكاملا لتربية المسلمين وبخاصة الرجال منهم بوصفهم القوامين على النساء وعلى الحياة الأسرية والاجتماعية، دون التقليل من شأن المرأة وأثرها فى كل ذلك.

ـ وإن سورة النور اشتملت على منهج متكامل فى تربية النساء وإن كان فى كثير منها

ما ينفع النساء والرجال على السواء بل هى فى أدب الأسرة والبيت، والبيت مملكة المرأة ومجال رعايتها ومسئوليتها أمام الله.

- وإن سورة آل عمـران تربى المسلمين على القيم والمبادئ التى يجب أن يلتـزموا بها وهم يتعاملون مع أهل الكتب الأخـرى من يهود ونصارى، وتؤكد لهم أنه بعد مـحمد ﷺ فإن الله تعـالى لا يقبل من أحد ديـنا غير دين الإسـلام الذى جاء محـمد ﷺ به وبمنهجه ونظامه المتكامل.

وتربيهم على أن الولاء لا يجوز أن يكون بين مؤمن وكـافر إلا لسبب يقبله شرع الله ونظامـه، وتربيهم على الإيمان بالأنبـياء والرسل جـميـعا من آدم إلى عـيسى -عليـهم السلام- إجمالا، والإيمان بما جاء به خاتم الأنبياء -عليه الصلاة والسلام- تفصيلاً.

وتعلمهم كيف يحـاجون اليهود والنصارى، وتصف لهم المسيح عـيسى بن مريم بما يجب أن يوصف به، كما تعلمهم كيف يتعاملون مع الكفار والمنافقين.

وتربيهم على التحلى بـالفضائل والتخلى عن الرذائل، وعلى الفقـه الصحيح للدين والدنيا على السواء.

ثم تصف لهم أولى الألبـاب بصفـات حسنة هم أهل لهـا لتشـير إليـهم أن يكونوا كذلك، وتقارن لهم بين المؤمنين والكافرين والمنافقين ليكونوا على علم بما يدينون به من قيم تربوية.

ثم تطالب بالصبـر والمصابرة والمرابطة والتقـوى إن أرادوا لأنفـسهم الفـلاح فى الدنيا والآخرة.

- وإن سورة الأنفال لتعطى دروسا بالغة الأهمـية فى تربية المسلمين من خلال معارك الحق التى خاضوها وقدموا فيها الشهداء والتضحيات، ليأخذوا العبَر من النصر، الهزيمة والطاعـة والمعصـية، وتعلمهم أحكـام القتـال وآدابه وأحكام الأنفال، وأحكام الأسـرى ليلتزموا بكل ذلك فيما يُستَقبل من أيامهم.

وتربيهم على المعرفة الدقيقة بالكافرين والمنافقين، وعلى مدى ما لديهم من رغبة فى الكيد للإسلام والمسلمين وتطالبهم بأن الولاء بين المؤمنـين وحدهم، وأن الكفار بعضهم أولياء بعض، حتى لا ينخدع المؤمنون فى الكافرين.

- وإن سورة الأحزاب لتوضح للمؤمنين كيف يؤسسون المجتمع المسلم، وكيف تقام الدولة المسلمة، ومَنْ تُوالى ومن تُعادى؟ وتعلمهم كيف يتحزب غير المسلمين على المسلمين فيحاربونهم محاولين القضاء عليهم، وكيف يواجه المسلمون هذا التحزب.

وتربيهم على الأسلوب الأمثل فى التعامل مع رسول الله ﷺ، وفى علاقتهم به عندما يدخلون بيوته.

وتربيهم على توضيح جسامة التكاليف التى حملها الإنسان وكان ظلوما جهولا؛ ليزدادوا رعاية لهذه التكاليف.

- وإن سورة النساء قد علمت المسلمين القواعد الراسخة التى يجب أن تقوم عليها العلاقة بين الرجل والمرأة، وتوضح مكانة الأسرة فى المجتمع، وتحدد لكل فرد فى الأسرة حقه فى الميراث وواجبه نحو غيره من أقربائه وأرحامه.

وتربى المسلمين على احترام المال وحسن توظيفه وحسن إنفاقه.

وتربيهم على الابتعاد عن الفواحش، فتُنفِّر منها، وتخوف من ارتكابها بعقوبات رادعة.

وتربيهم على الحذر الدائم من اليهود، وتعلمهم كيف يتعاملون مع المنافقين.

* وقد أفضنا فى الحديث عن القيم التربوية فى كل سورة، ونحن نستخرج هذه القيم من آياتها الكريمة.

* ثم جاءت سورة التوبة خاتمة هذه السور السبع التى اخترنا، لتعلم المسلمين القيم والمبادئ التربوية التى يجب أن تحكم علاقاتهم بالمجتمعات والدول التى لا تدين بدين الإسلام، على نحو ما سنفصل من استنباط القيم التربوية من آياتها الكريمة سواء أكانت هذه القيم موجهة إلى المسلمين جميعا، أو كانت موجهة إلى الدعاة إلى الله ومن هم مشغولون بالتربية الإسلامية.

* وهكذا تتكامل القيم التربوية التى يحتاج إليها المسلم فى حياته وفى تعامله مع المسلمين وغير المسلمين فى هذه المجموعة من السور كما بدا لى فيما اجتهدت فيه.

* وما أَوَدّ أن أؤكده وأخلص إليه فى ختام هذه السلسلة هو أن أى شعبة من شعب

الحياة يتعامل بها المسلم مع نفسه أو مع غيره فى السلم والموادعة أو فى الحرب والمقاتلة، يجدها ويجد الأسلوب الأمثل فى التعامل معها فى هذه السور السبع، وإن كان القرآن الكريم كله حافلا بالقيم التربوية التى لا يستغنى عنها الإنسان، وإن كنت رأيت فيما اجتهدت فيه أن هذه القيم وتلك المبادئ التربوية فى هذه السور الكريمة أشدَّ وضوحًا وأقربَ تناولاً، لذلك خصصتها بهذه الدراسة والشرح والتحليل.

والله َتعالى أسأل أن ينفع بها المسلمين عموما والدعاة إلى الله على وجه الخصوص، إنه سميع الدعاء.

فى أسماء هذه السورة الكريمة

تعد هذه السورة الكريمة من بين سور القرآن الكريم أكثرها أسماءً وألقابًا.[1]

فقد سميت بالأسماء والألقاب التالية:

١ ـ سورة: «براءة».

وهذا الاسم أكثر أسمائها شيوعا فى مصاحف كثيرة وفى كلام السلف رحمهم الله، فقد روى البخارى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: «آخر سورة نزلت سورةُ براءة».

وبهذه التسمية سماها الإمام البخارى فى كتاب «التفسير» من صحيحه.

ـ وتعليل ذلك أنها سميت بأول كلمة فيها: «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين».

٢ ـ سورة: «التوبة»:

وقد وردت هذه التسمية أيضا فى مصاحف كثيرة وفى كلام السلف -رحمهم الله تعالى-، فقد روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «سورة التوبة هى الفاضحة».

وذكرها الإمام الترمذى فى سننه باسم: «التوبة».

ـ وتعليل هذه التسمية أنها قد وردت فيها توبة الله تعالى على الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك، فكان هذا الحدث، وكانت توبة الله تعالى على أصحاب هذا الحَدَث الجسيم.

٣ ـ المُقَشْقِشَة:

بضم الميم وفتح القاف الأولى وكسر القاف الثانية، وهى على صيغة اسم الفاعل من الفعل: قَشْقَش، أى أبرأ.

---

(١) ما عدا سورة الفاتحة: فقد أورد العلماء لها خمسة وعشرين اسماً أو لقباً.

ومعناه: أبرأه من المرض، فالمقشقشة هى: المبرئة من المرض.

روى ذلك عن ابن عمر وابن عباس - رضى الله عنهم-.

وهذا اللقب «المقشقشة» أطلق على سورة «الكافرون» أيضًا لأن كُلاً من السورتين: التوبة والكافرون تخلص من آمن بما فيها من النفاق والشرك، لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص، ولما فيهما من وصف أحوال المنافقين.

٤ - «الفاضحة»:

أى التى تفضح المنافقين وتكشف عنهم.

قال ذلك ابن عباس رضى الله عنهما، قال: «ما يزال ينزل فيها: ومنهم.... ومنهم.... حتى ظننا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها».

وذلك إشارة إلى أقوال المنافقين التى ذكرت عنهم، فعرف المؤمنون صفاتهم وأقوالهم، وذلك مثل: «ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى...» فقد قالها بعض المنافقين، وسُمِعَتْ منهم. ومثل: «ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن...» وتلك أيضا مقولة نقلت عنهم وعرفها المسلمون سمعوها منهم، ومثل: «وسيحلفون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم...».

٥ - سورة: «العذاب»:

وقد وردت هذه التسمية عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

- وتعليل ذلك: أنها نزلت بعذاب الكفار، أى عذابهم بالقتل والأسر.

٦ - «المُنَقِّرة»:

وقد وردت هذه التسمية عن عبيد بن عمير -رضى الله عنه-.

- وتعليل ذلك أنها نقَّرت عما فى قلوب المشركين من نوايا الغدر بالمسلمين ونقض عهودهم.

٧ - «البَحُوث»:

على وزن فَعول.

وقد وردت هذه التسمية عن المقداد بن الأسود، وأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنهما.

ـ وتعليل هذه التسمية أنها تبحث عن نوايا المشركين.

٨ ـ الحافرة»:

نُسِبتْ هذه التسميه إلى الحسن البصرى رحمه الله.

ـ وتعليل ذلك أنها حفرت عما فى قلوب المنافقين من النفاق فأظهرته وكشفته.

٩ ـ «المُثِيرة»:

لأنها أثارت عورات المنافقين أى أظهرتها.

١٠ ـ «المبعثرة»:

روى ذلك عن ابن عباس -رضى الله عنهما-.

ـ وتعليل ذلك أنها بعثرت أسرار المنافقين، أى أخرجتها من مكانها.

١١ ـ «المخزية»:

١٢ ـ «المنكلة»:

١٣ ـ «المشردة»:

١٤ ـ «المدمدمة»:

١٥ ـ «البَعوث»:

وقد جاء ذلك على لسان المقداد بن الأسود المسمى: فارس رسول الله ﷺ، حينما كان رضى الله عنه بحمص يستعد للقتال ويريد الغزو، فقال له أبو راشد الحرانى: قد أعذر الله إليك، فقال: أتتْ علينا سورة البَعوث: (انفروا خفافًا وثقالا).

* وهذه الأسماء التى سميت بها سور القرآن الكريم كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، فيها آراء عديده فقد قال قوم من أهل العلم: إنّ تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان توفيقا من النبى ﷺ.

وأما ما روى من اختلاف مصحف أُبىّ وعلىّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض

الأخير، وأن رسول الله ﷺ رَتَّبَ لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك.

- وذكر أبو بكر الأنباري[1]: «أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا، ثم فُرِّق على النبي ﷺ في عشرين سنة، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يَسْأل، ويوقفُ جبريلُ رسولَ الله ﷺ على موضع السورة والآيه، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف فكله عن محمد خاتم النبيين ﷺ، عن رب العالمين».

(1) ذكر ذلك في كتابه : الردّ.

ترتيب السورة فى النزول وسبب نزولها

يرى كثير من العلماء إن لم يكونوا جميعا أن هذه السورة هى آخر ما نزل من القرآن الكريم، فقد قال جابر بن زيد: هى السورة الرابعة عشرة بعد المائة فى عداد نزول سور القرآن.

وجمهور العلماء يجمعون على أنها نـزلت دفعة واحدة، فتكون بذلك مشابهة لسورة الأنعام بين السور الطول.

* والذى يرجح لدى المحققين أن ثلاث عشـرة آية من أولها إلى قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نزلت متتابعة، فهذا ما اتفـقت عليه الروايات، وهذه الآيات أذَّن بها على بن أبى طالب ـ رضى الله عـنه فى الموسم الذى كان أبو بكر رضى الله عنه أميرا عليه.

وقيل: إن ثلاثين آية منها من أولهـا إلى قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ هى التى أذَّن بها على رضى الله عنه يوم الموسم.

وقيل: بل أربـعين آية من أوَّلها إلى قولـه تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هى التى أذن بها على رضى الله عنه فى الموسم.

والقول الأول أرجح هذه الأقوال الثلاثة.

وروى عن ابن عبـاس رضى الله عنهمـا قال: كـان المشركـون والمسلمون يحـجون جميعـا، فلما نزلت «براءة»: «نُفِيَ المشركون عن البيت، وحج المسلمـون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة، وأتممت عليكم نعمتى».

* وعدد آيات هذه السورة الكريمة مائة وثلاثون آية، فى عَدّ أهل المدينة ومكة والشام والبصرة.

وعند أهل الكوفة عدد آياتها مائة وتسعة وعشرون آية.

* وهى سورة مدنية ـ أى نزلت فى المدينة ـ باتفاق العلماء.

ولكن خرج على هذا الاتفاق مَنْ قال: إن قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ..﴾ الآية نزلت فى مكة.

ـ واستند القائلون بذلك على ما جاء فى صحيح البخارى من أن أبا طالب عم النبى ﷺ عندما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ فقال: «يا عَمِّ قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أميَّة: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبى ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عن ذلك» وتوفى أبو طالب... فنزلت: «ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى...».

ومن شَذَّ عن إجماع العلماء فى أن السورة كلها مدنية من رووا عن مقاتل بن سليمان- المتوفى سنة ١٥٠ هـ وهو من أعلام المفسرين، ولكنه كان متروك الحديث ـ أن آيتين من آخر هذه السورة هما: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نزلتا فى مكة.

* ولقد اتفقت الروايات على أن النبى ﷺ لَمَّا قفل من غزوة تبوك فى شهر رمضان سنة تسع من هجرته ﷺ، عقد العزم على أن يحج فى شهر ذى الحجة من عامه، ولكنه كره مخالطة المشركين فى الحج معه، وسماع تلبيتهم التى تتضمن الشرك بالله فى قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، وكره طوافهم عراة.

وكان بينه ﷺ وبين المشركين عهد لم يزل قائما لم ينتقض، فأمسك عن الحج تلك السنة وأمَّرَ أبا بكر الصديق -رضى الله عنه- على أن يحج بالمسلمين، وأمره أن يخبر المشركين بأن لا يحج بعد عامه هذا مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وفى هذا التوقيت نزلت «براءة».

* وأكثر الأقوال وأرجحها على أن سورة «براءة» نزلت قبل خروج أبى بكر رضى الله عنه من المدينة، فكان ما صدر عن النبى ﷺ من منع المشركين من الحج ومنع من يطوف عريانا، صادرا عن وحى، لقوله تعالى فى هذه السورة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧ ـ ١٨].

ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا...﴾ [التوبة: ٢٨].

وقد كان رسول الله ﷺ قد صالح قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعند ذلك دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر فى عهد قريش.

- ثم اعتدت بنو بكر على خزاعة بسبب دم كان لبنى بكر عند خزاعة، قبل بعثة الرسول ﷺ بمدة، فاقتتلوا فكان ذلك نقضا للصلح.

- واستصرخت خزاعة النبى ﷺ، فوعدهم بالنصر، وتجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة ثم حنين ثم الطائف، وكان قد حجّ بالناس آنئذ سنة ثمان عتّاب بن أُسَيْد، وفتح الله على نبيه مكة وحنينا والطائف.

* ثم كانت غزوة تبوك فى رجب من سنة تسع، فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك قافلا إلى المدينة، وكان ذلك فى شهر رمضان من نفس السنة أمَّر أبا بكر الصديق رضى الله عنه على الحج، وبعث معه بأربعين آية من صَدْر سورة التوبة ليقرأها على الناس.

ولما رحل أبو بكر رضى الله عنه أردفه بعلىّ بن أبى طالب ليقرأ هذه الآيات على الناس بدلا من أبى بكر رضى الله عنه، ونيابة عن النبى ﷺ.

* فهذه السورة الكريمة آخر السور نزولا عند جميع العلماء كما قلنا آنفا نقلا عن جابر بن زيد (٢١ - ٩٣ هـ)(١) الذى عدها السورة الرابعة عشرة بعد المائة أى: آخر سورة نزولا.

وقد قلنا آنفا إنها نزلت دفعة واحدة - كما يرى ذلك جمهور العلماء، لكن بعض العلماء يقولون: إنها نزلت أوزاعًا فى أوقات متفرقة، لكن قولهم هذا مرجوح إذ لم يتخلل نزولها ابتداءً نزول سورة أخرى.

(١) هو جابر بن زيد الأزدى البصرى أبو الشعثاء، تابعى فقيه من الأئمة من أهل البصرة، وأصله من عُمان، وقد صحب ابن عباس رضى الله عنهما، وكان جابر من بحور العلم، ولما مات قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق.

سبب نزول هذه السورة الكريمة

لكل مجموعة من الآيات الكريمة سبب فى نزولها ـ كما سنوضح ذلك عند شرحنا للآيات الكريمة ـ غير أن السورة فى مجموعها وبخاصة الأربعون آية الأولى منها، لها سبب نزول.

فقد اتفقت أقوال العلماء بالسنة والسيرة على مجمل أسباب نزول هذه الآيات فى صدر السورة إلى أربعين آية منها، فقالوا إن سبب نزولها ـ كما ذكرنا آنفا ـ أن رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك أراد أن يحج ولكنه كره أن يخالط المشركين فى الحج لسببين:

أحدهما: أنهم كانوا يرددون شركًا بالله فى تلبيتهم ـ كما أوضحنا ذلك آنفا ـ

والآخر: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة.

وكل ذلك من المنكر الذى يجب أن يغيره الرسول ﷺ بيده، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك التغيير لما بينه وبين المشريكن من عهد بوضع الحرب عشر سنين وأن هذا العهد كان قائما لم يُنقض، فلم يحج فى عام تسع للهجرة وأمَّر أبا بكر الصديق -رضى الله عنه- وكانت هذه الآيات قد نزلت عليه قبل أن يغادر أبو بكر -رضى الله عنه- المدينة أميرًا للحج، فأمره أن يبلغ المشركين بألا يحج البيت مشرك بعد عامهم هذا، وألا يطوف بالبيت عريان، وأن يقرأ عليهم تلك الآيات التى فى صدر هذه السورة الكريمة.

ثم أمَر عليًّ بن أبى طالب أن يلحق بأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وأن يقرأ هذه الآيات على الناس ـ على نحو ما ذكرنا آنفا فقرأ عليهم على رضى الله هذه الآيات الأربعين حتى قوله تعالى: ﴿... وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذا سبب نزول هذه الآيات أو سبب نزول السورة كلها كما اتفقت على ذلك كلمة العلماء.

السبب فى إسقاط التسمية من أولها

سورة التوبة هى السورة الوحيدة من بين سور القرآن الكريم التى لم يوضع فى بدايتها لفظ التسمية: «بسم الله الرحمن الرحيم» كما وضعت فى بداية جميع سور القرآن الكريم.

فما سبب ذلك؟

وردت فى ذلك تعليلات كثيرة سنورد معظمها على النحو التالى:

أولا: أصح الأقوال عند العلماء فى ذلك:

أن رسول الله ﷺ أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال، وَحْيًا من عند الله تعالى، وأنه ﷺ حذف: «بسم الله الرحمن الرحيم» من أول هذه السورة وَحْيًا من الله كذلك، وذلك أن القرآن الكريم مرتَّب مِنْ قِبل الله تعالى، ومن قبل رسوله ﷺ على الوجه الذى بين أيدينا فى المصاحف الشريفة الآن.

ـ ولو لم يكن القرآن الكريم كذلك لجازت الزيادة فيه أو الانتقاص منه، كما تقول بذلك فرقة الإمامية ـ وذلك خطأ يؤدى إلى الطعن فى حجية القرآن الكريم، فكان لابد أن يكون ترتيب سوره وترتيب آياته من عند الله تعالى.

ثانيًا: رأىُ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه:

قال ابن عباس رضى الله عنهما: سألت على بن أبى طالب رضى الله عنه: لِمَ لَمْ يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم بين الأنفال وبراءة؟

فقال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود، وليس فيها أمان.

ويروى أن سفيان بن عيينة (١٠٧ ـ ١٩٨ هـ) الثقة الحافظ ذكر هذا المعنى الذى قاله على رضى الله عنه، وقد أكده سفيان بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] فقيل له: أليس أن النبى ﷺ كتب إلى أهل الحرب: بسم الله الرحمن الرحيم؟ فأجاب سفيان عن ذلك: بأن ذلك إنما كان ابتداء منه ﷺ بدعوتهم

إلى الله، ولم ينبذ إليهم عهـدهم، ألا تراه قال في آخر الكتاب: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه:٤٧] وأما باقي هذه السورة فقد اشتـملت على المقاتلة ونبذ العهود، فظهر الفرق.

ثالثاً:

رأى بعض العلمـاء أن ترك البـسملة بين سـورتي الأنفـال وبراءة من عمل عـثمـان -رضي الله عنه- واجتهاده، فقد روى الترمذي والنسائي بسنديهما عن ابن عباس رضي الله عنهمـا قال: قلت لعثمـان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمـدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى بـراءة وهي من المئين فقرنتم بينهـما ولم تكتبـوا سطر: بسم الله الرحمن الرحيم؟

فقـال عثمان رضـي الله عنه: إن رسول الله كان إذا نزل عليـه الشيء - من القرآن - يدعو بعض من يـكتب عنده، فيقـول: ضعوا هذه - الآية أو الآيـات - في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنـفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وبراءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيها بقصتـها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها، فظننت أنها منها، فمن ثمَّ قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم.

رابعًا:

قال بعـض العلماء: إن كـتبة القـرآن الكريم من الصـحابة -رضوان الله علـيهم-، اختلفوا في الأنفال وبراءة: هل هما سورة واحدة أو هما سورتان.

فتركـوا فرجةً فصلاً بينهـما مراعاة لقول من عـدهما سورتين. ولم يكتبـوا البسملة بينهما مراعاة لقول من عدهما سورة واحدة.

خامسًا:

قـال بعض العلماء: إن الله تـعالى خـتم سورة الأنفـال بإيجـاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضا، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى في قـوله: «براءة من الله ورسـوله. . .» فلما كـان هذا عين ذلك الكـلام وتأكيـدًا له، وتقريرا له، لزم وقـوع الفصل بينهمـا، فكان إيقاع الفصل بينـهما تنبيـها على كونهـما سورتين مـتغايرتين، وترك كَتْب: بسم الله الرحـمن الرحيم بينهـما تنبيـها على أن هذا

المعنى هو عين ذلك المعنى.

سادسًا :

قال ابن العـربى محمـد بن عبد الله الإشبـيلى المالكى (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ) -وهو من حفاظ الحديث الـشريف له مؤلفات عديدة من أشهـرها: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم - وهو غير ابن عربى محيى الدين الفيلـسوف[1]- قال فى كتابه أحكام القرآن: قال الإمـام مالك فيمـا روى عنه ابن وهب وابن القاسم وابن عبـد الحكم: **إنه لما سقط أولها - أى سورة براءة - سقط لفظ: بسم الله الرحمن الرحيم معه، فقد روى عن مالك أنه قال: بلغنا أن سـورة براءة كانت نحو سـورة البقر، ثم نسخ ورفع كـثير منها وفـيه البسملة، فلم يروا أن يضعوه فى غير موضعه.**

سابعًا :

قـال بعض العلمـاء: **إنما تركت البـسملة فى أول سـورة براءة اتبـاعًا من الكُتّاب لما** وجدوه فى الصحف التـى جمعت على عهد أبى بكر الصـديق رضى الله عنه، وكانت هذه الصحف عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب -رضى الله عنهما-.

ثامنًا :

قال بعض العلمـاء فى تعليل ترك «بسم الله الرحمن الرحـيم» فى أول السـورة: لعلَّ الله تعالى لما علم من بعض الناس أنهم يتنازعون فى كون: بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن، أقر بأن لا تكتب ههنـا تنبيهاً على كونهـا آية من أول كل سورة، وأنها لم تكن من هذه السـورة لا جرم لم تكتب.

وذلك يدل على أن كلمـة: «بسم الله الرحمن الرحـيم» فى أول سائر السـور وجب كونها آية من كل سورة كتبت فى بدايتها، ما عدا سورة التوبة.

* ويعزز هذا الرأى قول عثمـان بن عفان رضى الله عنه: قبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها من سورة التوبة.

وهذا دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله ﷺ وتبيينه، وأن سورة براءة أو التوبة

---

(١) ومحيى الدين بن عربى على رأس القائلين بوحدة الوجود. (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ).

وحدها ضُمَّتْ إلى سورة الأنفال، من غير عهد من النبى ﷺ، لما عاجله الحمام قبل أن يبيِّن ذلك.

وكانت سورتا الأنفال والتوبة، تُدْعيان القرينتين، فوجب أن تجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى، للوصف الذى لزمها من هذا الاقتران ورسول الله ﷺ حَىٌّ.

الموضوعات التى اشتملت عليها السورة الكريمة

تناولت هذه السورة الكريمة عددًا من الموضوعات يمكن أن نعبر عنها فى إجمال بقولنا:

هذه السورة الكريمة توضح طبيعة العلاقة بين المجتمع المسلم والدولة المسلمة والمجتمعات أو الدول غير المسلمة، والإقرار لكثير من القيم التى تحكم المجتمع المسلم والدولة المسلمة.

وهذا الإجمال يمكن تفصيله إلى موضوعات جزئية تتضمنها عدد من الآيات الكريمة على النحو التالى:

١ - إعلان براءة الله ورسوله والمؤمنين من المشركين إلا من كان له عهد فإن البراءة منه تكون بانتهاء عهده، وتحديد الأوقات التى تنتهى فيها هذه العهود، وما يترتب على انتهائها من حرب أو سلم، مع إعطاء المشركين الحق فى الأمن والأمان أثناء الحرب حتى يسمعوا كلام الله ودعوته.

وذلك فى الآيات: من الأولى إلى السادسة

٢- تبرير هذه المقاطعة بين المسلمين والمشركين ببيان صفات المشركين الراذلة التى لا تفارقهم من: نكث العهد وخلف الوعد، والرغبة فى الكفر، والنفاق والصد عن سبيل الله. إذ هم بهذه الصفات يعدون من أئمة الكفر، فهم أجدر أن يقاطعوا ويقاتلوا، لأنهم فى اختصار شديد لا أيْمان لهم ولا عهود، ولا اطمئنان إلى العلاقة بهم.

وذلك فى الآيات من السابعة إلى الثانية عشرة.

٣ - وتحريض المسلمين على قتال المشركين حسما لشرهم، وقمعا لصفاتهم الردئية أن تسرى فى حياة الناس، مع طمأنة المسلمين على أن الله تعالى سوف ينصرهم على المشركين ما داموا يستهدفون من قتالهم إياهم إعلاء الحق وقمع الباطل. وإعلان لكافة المشركين أن ليس لهم الحق بعد هذا العام فى الحج ولا فى دخول المسجد الحرام. مهما تذرعوا بالأسباب كسقايتهم الحجيج وعمارتهم المسجد الحرام، إذ قد أصبح ذلك واجب المسلمين وحدهم.

ووعد المؤمنين المهاجرين والمجاهدين فى سبيل الله بأعظم أجر وهو الجنة والخلود فيها.

وذلك فى الآيات من الثالثة عشرة إلى الثانية والعشرين.

٤ ـ وتقرير وجوب مقاطعة المشركين مهما كانت درجة قرابتهم بالمسلمين والدًا وولدًا وأخًا وزوجًا وغيرها، إذ يجب أن يكون حب الله ورسوله ودينه وإخوانه المسلمين بديلا عن حب هؤلاء المشركين مهما تكن قرابتهم.

وتذكير المسلمين بنصر الله تعالى لهم فى معارك كثيرة كيوم بدر العظيم ويوم حنين الذى أعجب فيه المسلمون بكثرتهم فخسروا الجولة الأولى من المعركة فلما ثابوا وتابوا حقق الله على أيديهم النصر.

وإغراء المسلمين بأن يمنعوا المشركين من المسجد ولا يخافوا فقرا. لأن الله سوف يغنيهم.

وذلك فى الآيات من الثالثة والعشرين إلى الثامنة والعشرين.

٥ ـ وإعلان الحرب على أهل الكتاب من العرب يهودا ونصارى وقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، مع تحديد العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب عموما، وبيان لسبب هذا القتال وهو انحرافهم عن صحيح دينهم، بقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، واتخاذهم الأحبار والرهبان والمسيح بن مريم أربابا من دون الله، فهم بذلك ليسوا من أهل الكتاب وإنما هم والمشركون والكافرون سواء، بل يضيفون إلى ذلك أكلهم أموال الناس بالباطل وبخلهم بكنزهم الذهب والفضة ورفضهم إنفاقها فى سبيل الله، قد جاءهم محمد ﷺ بأن يعبدوا الله وحده ويتبعوا دين الحق فأبوا.

وذلك فى الآيات التاسعة والعشرين إلى الخامسة والثلاثين.

٦ ـ وتعليم المسلمين كيف يضبطون السَّنة فى اثنى عشر شهرا منها أربعة لا يحل فيها قتال، مع إبطال النسىء الذى كانوا يلجؤون إليه ليحتالوا على حِلّ القتال وتحريمه حسب أهوائهم.

وذلك فى الآيتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين.

٧ - ونعى من الله على المتثاقلين عن القتال إذا استنفروا، بل تهديد لهم بالعقاب على هذا التثاقل، مع بَثّ الثقة فى نصر الله لهم كما نصر رسوله ﷺ بإخراجه من مكة سالما، فالمسلم يجب أن يجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، الجهاد بكل أنواعه.

وذلك فى الآيات من الثامنة والثلاثين إلى الحادية والأربعين.

٨ - وذم المنافقين وفضحهم وبيان خسيس صفاتهم باستئذانهم الرسول ﷺ فى القعود عن الجهاد، وإذن النبى ﷺ، وتأكيد الله تعالى بأنهم يوم استأذنوا كانوا يستطيعون الخروج، مع أنهم لو خرجوا ما نفعوا المسلمين بخروجهم: بل يكون الضرر والفتنة التى سقط المنافقون فيها، وتحذير المسلمين من المنافقين لأنهم يحسدون المسلمين على أى نعمة هم فيها، ويتربصون بهم ويضمرون لهم شراً.

وذلك فى الآيات من الثانية والأربعين إلى الثانية والخمسين.

٩ - وإخبار الله بأن هؤلاء المنافقين لن تقبل منهم نفقة مهما أنفقوا لأنهم كفروا بالله ورسوله، وأنهم مهما أتوا من أموال وأولاد فإن ذلك سيكون سببا فى تعذيبهم لسوء توجيههم للأموال والأولاد، وبيان تطبيق المنافقين؛ فهم جبناء كذابون على الناس وعلى الله، ويتقولون الباطل على رسول الله المعصوم ﷺ فى توزيعه للصدقات على مستحقيها، وبيان دقيق لأصحاب الحق فى الصدقات.

وذلك فى الآيات من الثالثة والخمسين إلى الآية الستين.

١٠ - وبيان لبعض صفات المنافقين، فهم يؤذون النبى ﷺ فيصفونه بما ليس فيه، ويحلفون كاذبين، ويأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ولا يوفون بعهودهم، ويسخرون من صفات المسلمين، وأنهم سريعا ما يقدمون اعتذاراتهم عما فعلوا من باطل، وأن من كانت صفاته هذه فله عند الله عذاب عظيم مقيم.

وبيان لأن هؤلاء المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض فى الشر والفساد، والمنافقون الجدد فى ذلك كالمنافقين القدامى من أيام أنبياء الله تعالى نوح وعاد وثمود وإبراهيم وشعيب ولوط -عليهم الصلاة والسلام-، صفاتهم السيئة المعروفة عنهم هى هى

وجزاؤهم عند الله واحد..

أما المؤمنون والمؤمنات فبعضهم أولياء بعض، وصفاتهم فاضلة يرضى عنها الله تعالى، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، وهؤلاء جزاؤهم عند الله هو الرحمة والخلود فى الجنات ورضوان الله تعالى.

وذلك فى الآيات من الحادية والستين إلى الثانية والسبعين.

١١ ـ ونداء من الله تعالى على النبى والمؤمنين بجهاد الكفار والمنافقين والإغلاظ لهم.

وبيان لأهم صفات الكفار والمنافقين وهى: الكذب، والحسد، وعدم الوفاء بالعهد مع الله أو مع الناس، وذكرهم عيوب الناس، واتهام الناس بما ليس فيهم من صفات، والسخرية من الناس.

وأمْر من الله تعالى للرسول أن لا يستغفر لهؤلاء مهما طلبوا منه أن يستغفر لهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وحسبهم بذلك شرا يحول بينهم وبين رحمة الله تعالى.

وتوضيح لبعض صفاتهم الأخرى، فهم يفرحون بترك الجهاد مع رسول الله ﷺ بأموالهم وأنفسهم، متعللين فى هذا الترك والقعود بكل باطل من القول.

ونهى للرسول ﷺ أن يأذن لأحد منهم بالخروج معه فى أى معركة، ونهى له عن الصلاة على أى أحد منهم مات بسبب كفرهم ونفاقهم وفسقهم.

وإخبار من الله تعالى ـ كى يفقه المسلمون السبب فى إعطاء الكفار والمنافقين بعض الأموال والنعم- بأن ما فى أيدى الكفار والمنافقين من هذه النعم هو عذاب لهم فى الدنيا وعذاب لهم فى الآخرة.

وبيان لبعض طبائع الكفار والمنافقين، إذ من شأنهم عندما تنزل سورة على الرسول ﷺ تأمر بالجهاد فى سبيل الله، أن يبحثوا عن الأسباب والعلل التى يهربون بها من المشاركة فى الجهاد، راضين لأنفسهم بالمنزلة الدون وهى أن يظلوا مع الخوالف من النساء والصبيان لعدم فقههم لما فيه مصالحهم.

أما المؤمنون الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله تعالى فلهم الخيرات فى الدنيا بالنصر والغنيمة، ولهم الفلاح فى الآخرة حيث أعد الله لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك هو الفوز العظيم.

وذلك فى الآيات من الثالثة والسبعين إلى الآية التسعين.

١٢ - وبيان شاف للأعذار المقبولة التى تتيح لصاحبها أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله وهى:

- الضعف عن القيام بأعباء الجهاد من كرّ وفرّ وتحمل للجوع والعطش.

- والمرض المقعد عن القيام بأعباء الجهاد، ويعد فقد أحد الأعضاء المانعة من القيام بالجهاد مرضا كقطع اليد أو الرجل والعمى ونحو ذلك من الأمراض.

- والفقر بمعنى ألا يجد زادًا ولا راحلة ولا سلاحا.

فهؤلاء معفَوْن من الجهاد فى سبيل الله بمعنى القتال لكنهم مطالبون أن يجاهدوا بما يستطيعون.

أما أولئك القادرون على الجهاد الذين يؤثرون أو يرضون لأنفسهم أن يكونوا مع الخوالف، فحسابهم العسير أمام الله يوم القيامة فى انتظارهم لن يفوتهم، لأنهم امتنعوا عن أداء واجب بالاعتذار الكاذب الذى قد يشفعونه بجريمة أخرى هى الحلف كذبا، ليرضى عنهم المؤمنون.

ونهى للمؤمنين عن أن يرضوا عن قوم لا يرضى الله عنهم.

وذلك فى الآيات من الحادية والتسعين إلى الآية السادسة والتسعين.

١٣ - وحديث ضافٍ عن الأعراب صفاتهم وأخلاقهم، التى من أبرزها:

- أنهم أشد كفرا ونفاقًا.

- وأبعد ما يكونون عن العلم والمعرفة.

- وأنهم يعتبرون ما أنفقوا فى سبيل مغرمًا.

- وأنهم يتربصون بالمسلمين الدوائر.

هذه صفات صنف من الأعراب ولكنهم ليسوا جميعا كذلك، فإن منهم من له صفات وأخلاق فاضلة من أبرزها:

- أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر.

- ويعتبرون ما أنفقوا في سبيل الله قربة عنده وسببا في نيل صلوات الرسول أي دعائه لهم.

وجزاء هؤلاء عند الله هو أحسن جزاء، إذ يدخلهم في رحمته، كما أعدّ الله أحسن الجزاء للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فهؤلاء جميعا لهم الجنة والخلود فيها والفوز العظيم.

وبيان لأنواع الأعراب فمنهم:

- منافقون لهم صفات المنافقين، سواء أكانوا يعيشون في البادية أم في المدينة المنورة.

- ومن الأعراب من يخلطون عملا صالحًا وآخر سيئا، وهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم.

وأمْر للنبي ﷺ بأن يقوم من أجلهم بعملين:

- أن يأخذ منه أموالهم صدقة، فهو بهذا الأخذ يطهرهم ويزكيهم.

- وبأن يصلي عليهم أي يدعوا لهم أحياءً، وأمواتًا لأن صلاته ﷺ سكن لهم.

وهناك نوع من الأعراب مرجون لأمر الله إما أن يعذبهم أو يتوب عليهم.

وذلك في الآيات من السابعة والتسعين إلى الآية السادسة بعد المائة.

١٤ - وحديث عن مسجد الضرار، وبيان أنه كل مسجد بناه أصحابه ليضروا به المسلمين ويفرقوا كلمتهم، أو جعلوه مثابة لأن يجتمع فيه من يحاربون الله ورسوله.

والعجيب أن بناة مساجد الضرار يحلفون دائما أنهم ما أرادوا بهذا البناء إلا الحسنى.

وتأكيد من الله بأن هؤلاء، كاذبون في أيمانهم.

ونهي للرسول ﷺ عن الصلاة في هذا المسجد.

وبيان لمصير بناة مسجد الضرار والمجتمعين فيه.

وذلك فى الآيات من السابعة بعد المائة إلى العاشرة بعد المائة.

١٥ ـ وبيان لمكان المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ومكانتهم عند الله حيث وعدهم بالجنة فى التوراة والإنجيل والقرآن، فلهم بذلك بشارة عظيمة ممن لا يخلف وعدا سبحانه وتعالى.

وبيان لصفات المؤمنين الذين جاهدوا فى سبيل الله فاستحقوا هذه المكانة، وهى: التوبة إلى الله من كل ذنب، وعبادته سبحانه كما شرع، وحمده سبحانه على كل شىء، والركوع والسجود له سبحانه، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والحفظ لحدود الله.

ونهى للنبى ﷺ وللمؤمنين عن أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا ذوى قربى.

فإن قال قائل يستفهم: لم استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مع أن أباه من المشركين؟

جاءه الرد بأن استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه كان بسبب أن أباه كان قد وعده بأن يؤمن، فلما بقى على الشرك تبرأ منه إبراهيم -عليه السلام-.

وذلك فى الآيات من السابعة بعد المائة إلى السادسة عشرة بعد المائة.

١٦ ـ والتنويه بغزوة تبوك، وتجهيز جيش العُسْرَة، وإعلان توبة الله تعالى على نوعين من الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهما:

ـ من قصر فى الغزو وكانت نيته حسنة فتزوَّدَ ثم لحق بالجيش.

ـ والثلاثة الذين تخلفوا من غير عذر ثم ندموا وتابوا وعاقبهم النبى بعد عودته من الغزو وقاطعهم المسلمون خمسين يوما.

وتحديد واجب أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فى الغزو مع رسول الله ﷺ وعدم التخلف عنه.

وثناء على المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبيان لما ينتظرهم عند الله تعالى من حسن الجزاء.

وتنظيم للجهاد فى سبيل الله وبيان حكمه من حيث: متى يكون فرض عين، ومتى يكون فرض كفاية؟ مع التأكيد على طلب العلم والفقه فى الدين وتعليم من لا يعلم

بهذه الأحكام.

وتحريض المؤمنين على قتال من يلونهم من الكفار، وأن يجدوا فى أنفسهم على هؤلاء الكفار غلظة، فذلك من صميم تقوى الله عز وجل بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى.

وذلك فى الآيات من السابعة عشر بعد المائة إلى الثالثة والعشرين بعد المائة.

١٧ - ومقارنة بين المؤمنين والمنافقين عندما تتنزل على رسول الله ﷺ سورة من القرآن.

- فالمؤمنون يزيدهم ذلك إيمانا واستبشارا.

- والمنافقون الذين فى قلوبهم مرض يزيدهم ذلك رجسا إلى رجسهم، ويموتون على الكفر، وقد كانت لهم مندوحة ليتعظوا ويعتبروا بما يقع أمامهم من أحداث ولكنهم لم يتعظوا، بل جعلوا ينظر بعضهم إلى بعض فإن وجدوا أنهم لا يراهم أحد انصرفوا، وذلك أنهم لا يفقهون.

وبيان لبعض صفات الرسول ﷺ وهى:

- أنه من الناس من أوسطهم وليس ملكا أو نحوه.

- وأنه ﷺ يعز عليه ويصعب، بل لا يرضى أن يشق على المؤمنين بأي تكليف يرهقهم.

- وأنه حريص على المؤمنين يوجههم ويهديهم لما يصلح لهم دينهم ودنياهم.

- وأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين يحبهم ويحب الخير لهم ويرشدهم إلى صالح معاشهم ومعادهم.

- وأنه ﷺ يحتسب أجره عند الله عندما يدعوا أحدا فيعرض عن دعوته ويتولى.

وذلك فى الآيات من الرابعة والعشرين بعد المائة إلى التاسعة والعشرين بعد المائة وهى آخر السورة.

* ومن أجل أن سورة التوبة «براءة» قد تحدثت فى عديد من آياتها عن الجهاد فى سبيل الله أحكامه وآدابه، وحقوق المقاتلين وواجباتهم.

ورسمت أدبًا للجهاد فى سبيل الله مع المشركين والكفار وأهل الكتاب والمنافقين، وأعطت لهؤلاء الأعداء حقوقا لم تسمع بها البشرية من قبل: كحق المشرك فى أن يُؤمَّن حتى يسمع كلام الله وتوجه الدعوة إليه، بل حقه على المسلمين أن يبلغوه المكان الذى يشعر فيه بأنه آمن، ثم قتاله بعد ذلك إن أراد أن يكون فى صفوف أعداء الإسلام والمسلمين.

هذه الصورة فى التعامل الإنسانى الرفيع مع العدو وما جاء بها إلا الإسلام ولا يحترمها إلا المسلمون.

أما أولئك الذين يملأون الجو صراخا بأنهم أهل حضارة وأهل عناية بحقوق الإنسان، فإن منهم من تنكر لكل حق من حقوق الإنسان، فقتل وعذب وهتك عرضًا وقتل الأطفال والنساء - كما فعلت إسرائيل فى الفلسطينين وسائر العرب فى حروبها الظالمة المعتدية - وكما فعلت روسيا فى الشيشان وكما فعل الصرب والكروات فى البوسنة والهرسك، وكما فعل الصرب فى إقليم كوسوفا، وكما فعلت النازية فى الحرب العالمية الثانية.

إن الانطباع الذى يخرج به متابع هذه الأحداث أن اليهود والصرب والروس متوحشون، ومن الظلم أن يصنفوا مع الإنسان، ومن الباطل كل الباطل أن يكون لديهم ما يبرر هذه الوحشية التى ما عرفها الناس ولا عرفوا قريبا منها فى معظم تاريخ الإنسانية.

من أجل ذلك أردت أن أذكر بالجهاد فى سبيل الله أحكامه وآدابه، قبل أن أشرع فى شرح آيات هذه السورة الكريمة.

والجهاد فى سبيل الله تعالى

الجهاد بالنفس وقتال الأعداء فى الإسلام شُرع متدرجا، أى مر بمراحل فى تشريعه، نود أن نشير إليها باختصار فيما يلى:

المرحلة الأولى فى تشريع الجهاد:

كان جهاد الأعداء وقتالهم غير مسموح به للنبى ﷺ ولا لأصحابه -رضى الله عنهم- مدة وجودهم فى مكة المكرمة، وكان ذلك لحكمة بالغة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولكنها ملائمة لطبيعة المرحلة، وظروف الدعوة، بل ظروف المسلمين أنفسهم.

والمرحلة الثانية:

أذن الله فيها للمؤمنين أن يقاتلوا من اعتدى عليهم، ويكفوا القتال عن الذين لم يوجهوا إليهم عداءً أو عدونًا، وكانت هذه المرحلة بعد أن أُجبر المسلمون على ترك مكة، حيث هاجروا إلى المدينة المنورة، وقد نزل فى تلك المشروعية للقتال قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾** [الحج: ٣٨ ـ ٤١].

وهذه الآية الكريمة تشتمل على عدة حقائق من أهمها:

ـ أن الله تبارك وتعالى يدافع عن الذين آمنوا عندما يقاتلون أعداء الله ويؤيدهم ويساندهم؛ لأن من سنته تعالى أن ينصر المؤمنين.

ـ وأنه تعالى شرع للمؤمنين أن يواجهوا المعتدين ولا يرضوا بظلم أو عدوان يقع

---

(١) توسعنا فى الحديث عن الجهاد فى كتابنا: ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

عليهم، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، مع وجوب أن يأخذ المؤمنون بالأسباب فيعدوا ويستعدوا.

- وأن الذين يحاربون من أجل دينهم وإيمانهم، يعتبر كل من يعاديهم إنما يعادى الله ويعادى الحق، وهذا العدو يجب حربه وقتاله.

- وأن الجهاد أو القتال إنما شرعه الله لتأمين عبادة الله وحماية شرعه ونظامه، والدعاة إليه.

- وأن هؤلاء المؤمنين الذين شُرع لهم الجهاد ووُعدوا بالنصر والتأييد من الله عليهم واجبات كثيرة هى كما جاء فى آية الإذن بالقتال:

* إقامة الصلاة أى: إرساء عمود الدين وعماده فى المجتمع، وتطهير المجتمع من الفحشاء والمنكر والبغى.

* وإيتاء الزكاة: أى تخليص المجتمع من الحاجة والعوز، والعناية بالفقراء والمساكين، وتخليص المجتمع من البخلاء الذين يشحون بأموالهم عن وجوه الخير.

* والأمر بالمعروف لكل أحد، والنهى عن المنكر لكل أحد، وذلك أن الشرع أوجب الأمر بالمعروف أو ندب إليه، وحرم المنكر أو كرهه وكرَّه فيه، وذلك أن المجتمع لا يطمئن ولا يستقر حتى يسود فيه المعروف، ويمتنع فيه المنكر.

وقد يتطلب ذلك كله جهاداً مشروعا بل واجبا أحيانا.

والمرحلة الثالثة من مراحل الجهاد هى:

أمر الله تعالى كل مؤمن قادر على القتال، أن يقاتل كل من كفر بالله، مع استثناء مَنْ طلب منهم المهادنة والمسالمة، أو كان بينه وبين المسلمين عقد وموثق، أو اعتزل القتال فلم يقاتل مع أعداء المسلمين ولا مع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا**﴾ [النساء: ٨٩ ، ٩٠].

* وفى هذه المرحلة من الجهاد يحذر الله تعالى المسلمين من أن ينخدعوا بطائفة من الناس يريدون خداع المسلمين بأن يأمنوا المسلمين ويأمنوا قومهم فى نفس الوقت، هؤلاء لا يجوز إعطاؤهم الأمان، بل يجب قتالهم حيث وجدوا، قال الله تعالى: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولائكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ [النساء: ٩١].

والمرحلة الرابعة من مراحل الجهاد هى:

أمر الله تعالى للمسلمين بأن يقاتلوا المشركين والكفار كافة ـ بغير استثناء، لأن هؤلاء يقاتلون المسلمين كافة لا يستثنون منهم أحدا أى أنه قتال بين الكفر والإيمان، هذا القتال من شأنه أن يستمر أبدا، لأنه عداء بين باطل وحق، وليس قتالا على حدود إقليمية ولا على مصالح أو قوميات.

ولأجل ذلك كان جهاد هؤلاء الأعداء واجبا أبدا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال جل شأنه: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة: ٥].

* وقد أشاع أعداء الإسلام فرية خلاصتها: أن الإسلام قد انتشر بين الناس بالسيف وأن المسلمين قد أكرهوا الناس على الدخول فيه، وتلك فرية ومحض كذب، وباطل من القول وزور. ونستطيع أن نسوق فى مجال الرد عليهم[1] ما يدحض افتراءهم بما يلى:

١ ـ الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ [البقرة: ٢٥٦].

---

(١) ناقشنا ذلك بتوسع فى كتابنا: الجهاد فى سبيل الله أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به من ص ٥٢ إلى ص ٧٩، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾ [الكهف: ٢٩].

وهاتان الآيتان صريحتان فى ترك حرية الإيمان أو الكفر للناس بعد عرض الدين أو الحق عليهم، فأين هذا الإكراه الذى يزعمون؟ وأين مصداقية مقولتهم: إن المسلمين وضعوا السيف على رقاب الناس ثم قالوا لهم: إما أن تدخلوا فى ديننا أو نقتلكم؟ إن ذلك مجرد زعم لا سند له من الحق أو الواقع.

* وربما كان بعض الذين لا يؤمنون بالإسلام والقرآن يحتاجون إلى ردّ من نوع آخر.

وأدع هذا الرد لرجل من الغرب حَسُن فهمه للإسلام، وحسنت نيته وهو يتحدث عن زعم بعض كتاب الغرب أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وذلك هو: «توماس كارليل» الذى يسميه نقاد الغرب «نبى الكتاب» يقول «توماس كارليل»: إن الزاعمين بأن الإسلام قد انتشر بالسيف، إن ذلك غاية فى السخف والغثاثة.

ويرفض أن يعتبر زعمهم ذلك من أكاذيب التاريخ، لأن تلك الأكاذيب قد تناقش فتبطل، وزعمهم هذا أضعف من أن يناقش.

ويقول: إن القائلين بذلك هم سواء ومن يقول: إنَّ رجلا واحدًا حمل سيفه[1] وخرج إلى جميع مخالفيه ليبعث فيهم الخوف من سيفه - وحده - ويسوقهم كرهًا إلى اعتقاد ما ينكرون، فيعتقدونه ويثنون عليه ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين حتى يدخلوا هذا الدين!!!

وفى سبيل دحض هذه المزاعم، نرى من الضرورى - فعلنا ذلك ونحن نشرح سورة الأنفال التى تحدثت بإسهاب عن الجهاد - أن نوضح أهداف الجهاد فى الإسلام ووسائله، وميادينه التى يتحرك فيها المجاهدون بشىء من الإيجاز[2].

---

(١) يقصد محمدًا ﷺ.

(٢) توسعنا فى الحديث عن ذلك فى كتابنا: الجهاد الذى أحلنا عليه فى الصفحات السابقة كل من يريد التوسع فى المعرفة عن الجهاد.

* **هدف الجهاد فى سبيل الله:**

إن هدف الجهاد فى سبيل الله هو: تحرير النوع الإنسانى كله من الشرك، ومن عبادة غير الله تعالى، وتحرير الناس عموما من الهوى والظلم، وإهدار كرامة الإنسان بالكفر والضلال.

* ولا يختص بالجهاد طائفة من المسلمين دون طائفة ولا أهل زمن دون أهل أزمان أخرى، ويمكن تلخيص هدف الجهاد فى أن تكون كلمة الله هى العليا، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» وروى أحمد بسنده عن معاذ -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة. ومن سأل الله القتل فى سبيل الله من نفسه صادقًا ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد، ومن جرح جرحا فى سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك، ومن خرج به خراج فى سبيل الله كان عليه طابع الشهداء».

* إن هدف الجهاد فى الإسلام هو الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان، لأن النوع الإنسانى كله من صالحه أن يستقيم على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى عبادته وحده، والتحرر من كل معبود، ومن كل طاغوت ومن كل باطل، لأن الإنسان لا يحيا حياته الإنسانية الكريمة إلا إذا تحرر من كل هذا.

ولهذا كان الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة ليقاوم الانحراف عن الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها، فما دام الناس يعيشون على هذه الأرض، فإن طواغيتًا منهم يحبون أن يُعبدوا من دون الله، ويحبون أن ينتقصوا من حقوق الإنسان ما يدعمون به باطلهم ووزرهم وافتياتهم على الله وعلى الحق.

* وما دامت الحياة الإنسانية مستمرة والأرحام تدفع بأجنتها ليكون هذا الجنين إنسانا له حقوق وعليه واجبات، فإن الظالمين والطواغيت يحاولون دائما أن ينحرفوا بهذا الإنسان عن فطرته، ويهضموا حقوقه، والجهاد فى سبيل الله هو الذى يعيد إلى هؤلاء الطواغيت عقولهم، أو يخلص الإنسانية منهم.

والجهاد هو الذى يخلص الإنسان من كل ظلم يقع عليه ويكفل له حقوقه، ويتحدى بقوة السيف من يعتدى على هذه الحقوق أو ينتقص شيئا منها.

وهذا هو المعنى الدقيق العميق لكون الجهاد فى سبيل الله فريضة ماضية ـ أى مستمرة ـ إلى يوم القيامة.

*** وسائل الجهاد فى سبيل الله:**

إذا كانت أهداف الجهاد فى سبيل الله كما ذكرنا آنفا من: حماية العقيدة إلى حماية المجتمع إلى التمكين لدين الله فى الأرض، وتأمين هذا التمكين، مع تأمين الدعوة إلى الله، فإن وسائل هذا الجهاد عموما هى كل وسيلة مشروعة تحقق هذه الأهداف.

* وهذه الوسائل نذكر منها ما يلى:

الاستعداد والإعداد:

١ ـ أى التهيؤ الروحى والعقلى والبدنى والمادى، وليس الاستعداد سهلا كما قد يتصور بعض الناس، وإنما هى طريق طويلة، وزاد ضخم يتزود به الساعى فى هذه الطريق، بل متاعب كثيرة تعترض السير فى هذه الطريق، وتهيؤ لمواجهة من يعترضون السير فى هذه الطريق. والآية الكريمة الجامعة التى أوجبت هذا الإعداد والاستعداد هى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

بل إن هذه الآية الجامعة تضمنت الأهداف والوسائل معا، فالوسائل هى: كل ما استطعتم من قوة معنوية ومن رباط الخيل أى الآلة العسكرية.

والأهداف هى: إرهاب أعداء الله وأعدائكم، وأى أعداء آخرين لا تعلمونهم ولكن الله يعلمهم، وإرهاب هؤلاء يعنى: إيقاف شرهم وعدوانهم، لأن إرهاب العدو جزء من هزيمته، فضلا عن كف شره وقتاله.

٢ ـ خوض المعارك ضد هؤلاء الأعداء فعليا، والتضحية فى هذه المعارك بالجهد والوقت والمال والنفس، والآية الجامعة لهذه التضحية هى قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[التوبة: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد كان للمؤمنين على مر العصور فى الماضى نماذج فى التضحية أى: بذل المال والنفس وكل شىء فى سبيل الله، وسوف يظل تقديم هذه النماذج فى الحاضر والمستقبل، ما دام الإيمان بالله واليوم الآخر يعمر القلوب، وما دام المنهج ملتزمًا.

٣ ـ وتأمين حدود البلاد بالمرابطة فى الثغور؛ لإيقاف عدوان الأعداء وإفشال مخططاتهم فى تحدى الدعوة إلى الله، وفى الوقوف أمام العمل على التمكين لدين الله فى الأرض.

* وهذا التأمين للبلاد الإسلامية معركة حقيقية، وإن لم يكن فيها قتال مباشر فى كثير من الأحيان، وذلك أن القتال جزء من الحرب، وليس بالضرورة أن يكون القتال أهم ما فى الحرب من وسائل قهر العدو، وإنما أهم ما يقهر العدو هو الحرب المستمرة ضده لإجهاض محاولاته المعادية، وهذه الحرب ما ينبغى أن تشتمل على أى عمل يخالف شرع الله ومنهجه ونظامه، فالمسلم يلتزم بمنهج الله تعالى فى سلمه وفى حربه على السواء.

*** ميادين الجهاد فى سبيل الله:**

يخطىء من يتصور أن للجهاد فى سبيل الله ميدانًا واحدًا هو أرض المعركة وحدها، وإنما هى ميادين للجهاد عديدة، يجب أن يخوضها المسلمون وأن يتواجدوا فى كل منها.

* ومن هذه الميادين ما نذكره فيما يلى:

ـ ميدان المعارك الفعلية مع عدو ظاهر: يقاتل المسلمين ويحشد لهم، وذلك بالحشد للعدو ومواجهته بما يهزمه ويقضى عليه.

ـ وميدان المعركة المحتملة مع عدو مرتقب: وهذا الميدان وإن خلا من القتال إلا أنه يتطلب جهدا فى الحرب والكيد، والإعداد والاستعداد.

ـ وميدان الدعوة والحركة والتنظيم: وهو ميدان يتطلب جهودا فائقة وصبرا واحتمالا، ومعرفة عميقة وثقافة جيدة وذكاءً فائقا، ورغبة شديدة فى العمل وفى الاستمرار فيه.

ـ وميدان التربية: وهو أوسع الميادين وأولاها ببذل المزيد من الجهود العلمية والفنية والعملية، واستيعاب مفردات التربية الإسلامية من: تربية روحية، وخلقية، وعقلية، وبدنية، ودينية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وجهادية، وجمالية.

ـ وميدان العمل على التمكين لدين الله فى الأرض: وهو من أهم الميادين وأولاها ببذل الجهود الفكرية والثقافية والعملية والحركية والتنظيمة والتربوية، كما يتطلب تنسيقا جيدا بين مختلف القوى فى العالم الإسلامى كله.

ـ وميدان المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه: وهذا الميدان يتطلب أعظم الجهود وأكبر التضحيات، فإن الوصول إلى التمكين - وإن احتاج إلى جهود مضنية ومتعددة ومستمرة- فإن المحافظة على هذا التمكين تحتاج أكثر من هذا كله، وقد قال الأدباء: إن البقاء على القمة أصعب من الوصول إليها.

* والقمة للعمل من أجل الإسلام هى الوصول إلى التمكين، والاستمرار فى التمكين هو غاية ما يستهدفه العمل الإسلامى بكل مفرداته.

* وانهيار التمكين لا يستغرق وقتا ولا جهدا كذلك الوقت والجهد اللذين استغرقهما الوصول إلى التمكين.

* ومن مقولات العاملين فى الحركة الإسلامية: «إن الاستمرار فى أعمال الدعوة والحركة والتنظيم والتربية بعد الوصول إلى التمكين واجب يفرضه وجوب الاستمرار فى التمكين ووجوب المحافظة عليه» وهى مقولة جديرة بالتأمل والتدبر، وهى دليل على الوعى والاستفادة من حركة التاريخ ومن دراسة أسباب قيام الدول وأسباب انهيارها.

وبعد فذلك هو الجهاد فى سبيل الله كما تحدثت عنه سورة التوبة التى نحن بصدد إلقاء الضوء عليها واستنباط القيم التربوية العامة والخاصة بالدعوة والحركة منها، راجين من الله تعالى أن يتكامل الحديث عن الجهاد فى سبيل الله ـ تلك الفريضة الماضية إلى يوم القيامة ـ من خلال آيات هذه السورة الكريمة.

١ - الآيات الكريمة من الآية الأولى إلى الآية السادسة:

إعلان براءة الله ورسوله من المشركين إلا من كان له عهد فعهده إلى مدته، ثم قتالهم مع حقهم فى الأمان حتى يسمعوا كلام الله، ثم يصلون إلى مأمنهم.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦)﴾.

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها :

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الأمور التالية:

- إعلان براءة الله ورسوله والمؤمنين -تبعًا لذلك- من المشركين بوجوب نبذ عهدهم.

- وتأجيل المشركين أربعة أشهر فقط، وبعد ذلك يقاتلون.

- وإعلان للناس جميعًا مؤمنين ومشركين يوم الحج الأكبر بأن الله ورسوله بريئان من المشركين.

- واستثناء بعض المشركين الذين لم يحاربوا المسلمين ولا هيجوا عليهم أحدا من مدة الأربعة الأشهر، وجعلها إلى أن ينتهى أجلهم وعهدهم الذى كانوا قد عاهدوا المسلمين عليه.

- والإعلام بأنه بعد انتهاء الأشهر الحرم يجب قتال المشركين عموما إلا أن يتوبوا عن

الكفر ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

- وإعطاء المشركين الحق فى أن يُكف القتال عمن طلب ذلك منهم إلى أن يسمع كلام الله ودعوته، وأن يُؤَمَّن حتى يبلغ مأمنه.

وللشرح والتفسير نقول والله المستعان:

* ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

- البراءة: انقطاع العصمة والعلاقة.

وذلك إخبار من الله بأن الله سبحانه ورسوله ﷺ والمؤمنين تبعا لذلك، قد انقطعت عصمتهم وعلاقتهم بالمشركين إلا من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فإن البراءة منه تحدث بعد انقضاء مدة عهدة.

- والبراءة تعنى: الخروج والتفصى مما يتعب.

وتعنى رفع التبعة والتخلص من المسئولية والعهد والميثاق.

* ولما كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه، ويُعد الإخلاف بشىء منه غَدْرًا، كان الإعلان بفسخ العقد أو العهد براءة من التبعات الناشئة عن إخلاف العهد.

* ولما كان إبطال العهد وإنهاؤه والبراءة من تبعاته صادرًا من النبى ﷺ بإذن من الله تعالى، جُعلتْ البراءةُ صادرةً من الله تعالى لأنه الآذن بها، ومن الرسول ﷺ لأنه المباشر لها.

* وكان بين رسول الله ﷺ والمشركين عهود على صور مختلفة فمنها:

- ما كان بينه ﷺ وبين أهل مكة فى عهد الحديبية، وكان من شروط هذا العهد: ألا يُصَدَّ أحَدٌ عن البيت الحرام إذا جاءه، وألاَّ يُرَوَّع أحد فى الأشهر الحرم، وأنَّ من أحَبَّ أن يدخل فى عهد محمد ﷺ دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه، وأن توضع الحرب عن الناس عشر سنين.

- وما كان بين المسلمين وبعض قبائل المشركين مما أشارت إليه آية سورة النساء: ﴿إلا

الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ...﴾ وآيه هذه السورة: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا ...﴾ الآية.

- وبعض هذه العهود كان لأجلٍ بعينه، وبعضها كان لأجل قد انقضى، وبعضها لأجل لم ينقض.

* والأصل فى شريعة الإسلام أن لا ينقضى عهد معاهد إلا فى حالة من أحوال ثلاثة:

إحداها:

أن يظهر من المعاهد خيانة مستورة، ويخشى منه الضرر بالمسلمين، فيقطع عهده وينقض.

والثانية:

أن يكون له أجل فينقضى أجله.

والثالثة:

أن يكون الرسول ﷺ حين عاهدهم قال لهم: هذا العهد إلى حين أن يأمر الله بقطعه.

* وفى مناسبة هذه الآية الكريمة وما بعدها من آيات قال العلماء: كان فتح مكة سنة ثمان وكان الأمير عليها عتاب بن أُسَيْد، ونزول هذه السورة سنة تسع، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر -رضى الله عنه- أن يكون أميرا على موسم الحج، وأمر عليا -رضى الله عنه- أن يذهب إلى أهل الموسم ليقرأ عليهم الآيات، فقيل له: لو بعثتَ إلى أبى بكر؟

فقال ﷺ: لا يؤدى عنى إلا رجل منى، فلما دنا على -رضى الله عنها- وكان يركب العضباء ناقة رسول الله ﷺ - فلما لحقه على قال له أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال مأمور، ثم ساروا، فلما كان قبل التَّرْوية خطب أبو بكر الناس وحدثهم عن مناسكهم، وقام علىٌ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يأيها الناس، إنى رسولُ رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. . . ثم قال: أُمِرْتُ باربع:

- ألا يقرب هذا البيت بعد هذا العام مشرك.

- ولا يطوف بالبيت عريان،

- ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة.

- وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده.

فقالوا عند ذلك: يا علىّ بلّغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف.

* ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

- أى: قل للمشركين: سيحوا فى الأرض آمنين غير خائفين أحدًا من المسلمين.

- والمشركون أمام ذلك صنفان:

أحدهما: من كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر، فإن هؤلاء يمهلون إلى تمام أربعة أشهر.

والآخر: من كانت مدة عهده بغير أجل محدود، فإنهم يقتصر معهم على أربعة أشهر.

ثم يعتبر الصنفان أعداء محاربين للمسلمين، وللمسلمين قتالهم وأسرهم إلا أن يتوبوا.

- وأما من لم يكن له عهد فأجله انسلاخ الأشهر الحرم، إذ لا قتال فيها، وهى: باقى ذى الحجة من يوم بُلِّغُوا إلى نهاية المحرم.

- ومن كانت له مدة فى عهده أكثر من أربعة أشهر فأجله إلى نهاية مدته، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ ذكر علماء التفسير وعلماء السيرة النبوية أن هذه الآية نزلت فى أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ فى الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، فدخلت خزاعة فى حلف النبى ﷺ، ودخلت بنو بكر فى حلف قريش، فعدت بنو بكر على خزاعة فاستنجدت خزاعة بالنبى ﷺ - وقد نقض المشركون العهد - فتجهز رسول الله ﷺ سنة ثمان من الهجرة وتوجه إلى فتح مكة - على ما هو معروف فى سيرته ﷺ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ . . .﴾ أى قل للمشركين ذلك بمعنى أن إمهالهم على النحو السابق ليس بعجز ولكن لمصلحة ولطف؛ ليتوب من أراد أن يتوب، أى فسيحوا عالمين أنكم غير معجزى الله تعالى فى أى حال.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: فخزيهم بالقتل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، وفى ذلك دليل على وعد الله تعالى للمؤمنين بأن ينصرهم على الكافرين.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

- أى: إعلام من الله ورسوله للناس كافة مؤمنين ومشركين، ومحتوى هذه الرسالة الإعلامية هو: أن الله برىء من المشركين وأن رسوله برىء منهم كذلك، لكى يعلم المشركون بهذه البراءة ويدركوا ما سوف يترتب عليها، ولكى يعلم المؤمنون حكم التعامل مع المشركين، وفى أى وقت وفى أى ظروف يحل لهم قتالهم، حتى يلتزموا بما شرع الله.

- وتوقيت هذا الإعلام هو يوم الحج الأكبر - وهو يوم عرفة - كما قال بذلك عدد من الصحابة -رضوان الله عليهم- وعدد من الفقهاء استنادا إلى قول الرسول ﷺ حين خطب الناس عشية عرفة: أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الحج عرفة».

وبعض العلماء يقولون: إن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، استنادًا إلى قول الرسول ﷺ حين وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع: «هذا يوم الحج الأكبر».

* والفرق بين قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . .﴾ فى أول السورة، وبين قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . . .﴾ فى هذه الآية: أن الآية الأولى تخبر وتقرر البراء من المشركين، وهذه الآية لتعلم الناس بما تقرر وثبت.

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . .﴾ الخطاب للمشركين أى: إن تبتم عن الشرك فذلك خير لكم.

﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ . . .﴾ أى إن توليتم عن هذه التوبة فبقيتم على الشرك فاعلموا أنكم غير معجزى الله، بل لابد أن يوقع بكم عذابه فى الآخرة أو فى الدنيا بالهزيمة.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأصل فى البشارة أن تكون بمايسر، وبما أن العذاب لا يسر، فإن المعنى يكون الاستهزاء بهم، كما كانت العرب تقول عمن تستهزىء بهم: تحيتهم العذب وإكرامهم الشتم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

هذه الآية الكريمة تستثنى من كانت لهم عهود مع المسلمين ولم ينقضوها، ولم يحن أجلها، فهؤلاء يجب أن تتموا لهم عهودهم، وذلك ما تستوجبه تقواكم لله تعالى، فإنه سبحانه يحب المتقين.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

- انسلخ الأشهر الحرم أى انقضى زمنها ووقتها.

- والأشهر الحرم هى - بناء على هذا الإعلام - من يوم النحر إلى إلى اليوم العاشر من شهر ربيع الآخر.

وأما الأشهر الحرم عموما فهى: ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وهى شهور يحرم فيها القتال.

* فإذا انقضت هذه الأشهر الحرم - على كل من الرأيين - فقد أباح الله تعالى للمسلمين بنص هذه الآية الكريمة وأذن لهم فى أربعة أمور:

- قتل المشركين حيث وجدوا فى أى وقت وفى أى مكان، وأخذهم أسارى، وحصارهم إن تحصنوا، والتربص بهم.

- وقتل المشركين يستثنى منه - كما دلت على ذلك السُّنة النبوية - المرأة، والطفل، والراهب، بشرط ألا يشارك أحد منهم فى القتال.

﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ .

ـ والمعنى أن المشركين لو تابوا عن عداوة المؤمنين، وعن نقضهم عهودهم يجب أن تتغير معاملة المؤمنين لهم مما أبيح لهم من قتل وأسر وحصار وتربص، ومنع من دخول بلاد المسلمين، هذه المعاملة كلها تزول إذا تاب المشركون فآمنوا وقدموا ما يدل على إيمانهم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فهم عندئذ من المسلمين بل إخواننا فى الدين.

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾

ـ وهذه فرصة أخرى يعطيها الإسلام لمن وجب قتلهم من المشركين، وهى إرجاؤهم وإعفاؤهم من القتل والأسر والحصار والتربص. إن طلبوا أن يسمعوا كلام الله، أو طلبوا أن يعرفوا دليلا أو حجة من أجل أن يؤمنوا، وذلك واجب المسلمين حتى يبلغ المشرك مأمنه.

قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: إن رجلا من المشركين قال لعلى بن أبى طالب -رضى الله عنه-: إن أردنا أن نأتى الرسول ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟

فقال له على -رضى الله عنه-: لا، إن الله تعالى قال: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ .

هذا هو الإسلام فى سموه، ورفعته وتقديره لحقوق الإنسان حتى لو كان هذا الإنسان مشركا يجب قتاله، ولكنه يقول: أريد أن أسمع عن الإسلام!!!

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة:

يتعلـم المسـلمون من هذه الآيات الكريمة دروسًا تربوية عظيـمة فى التـعامل مع غـير المسلمين، يمكن أن نجملها فيما يلى:

أولا:

يتعلمون من الآيتين الأُولَيَيْن:

١ ـ أن المفاضلة بين المؤمنين والمشركين حاسمة وصارمة، وأنه لا يجوز لمؤمن أن يُوادّ مشركا أو يخـالطه، أو يعيش فى بلاد يتحكم فى نظامها المشركـون إلا لعذر يقبله شرع الله ونظامه، كما سنوضح ذلك فيما بعد بإذن الله تعالى.

٢ ـ وأن العهـود والمواثيق مرعيـة فى الإسلام وأن الوفاء بهـا واجب إلا فى حالات خاصة، فإنه يجوز فصم هذه العهود ـ على نحو ما بينا آنفا ـ.

٣ ـ وأن المشركين مهزومـون مغلوبون خزايا ما داموا على شركهم ـ مهـما كانوا قوة من حيث العَدَد والعُدَد، ومهما علوا فى الأرض وجعلوا أهلها رعايا لهم.

ثانيا:

ويتعلمون من الآيتين الثالثة والرابعة:

١ ـ أن الإسلام لا يسمح للمسلمين أن يأخذوا أحـدًا على غرة، حتى لو كان عدوا مشركا أو غير مشرك مـا دام الأمر فى السلم، أما فى الحرب فلا يجوز لهم أن يغدروا، وإن كانت الحرب خدعة، لأن الخدعة غير الغدر.

٢ ـ وأن من تاب من المشركين عن الشرك فآمن، أو تاب عن معصية فأطاع، فقد نال الخير كله فى الدنيا وفى الآخرة.

ومن تولى عن تلك التـوبة فقد خـاب، لأنه لا يستطيع أن يُعْجِز اللهَ عن أن يهـزمه بأيدى المسلمين فى الدنيا، ولن يفوت عذاب الله فى الآخرة، وما بعد ذلك خيبة!!!

٣ ـ وأن المسلمين مطالبون بأن يفـوا بعهود المشركين الذين لم تنقض مـدة عهودهم، بشرط أن لا ينقضوا هم العهد، وألا يناصروا على المسلمين عدوا، ووفاء المسلمين بهذه

العهود من التقوي التى يحب الله تعالى أهلها.

ثالثا:

ويتعلمون من الآيتين الخامسة والسادسة:

١ ـ أن المسلمين عند انتهاء آجال العهود والمواثيق، وانقضاء الأشهر الحرم مطالبون بقتال المشركين حيث وجدوا، وبأخذهم أسرى إن قدروا عليهم، وبمحاصرتهم إن تحصنوا، وبالترصد لهم والتربص بهم فى كل طريق، عملا بوجوب المفارقة بين المؤمنين والمشركين.

٢ ـ وأن من تاب من المشركين فآمن وأقام الصلاة وآتى الزكاة فقد أحرز نفسه من القتل والأسر والحصار والترصد، ودخل بذلك فى مغفرة الله تعالى ورحمته، وذلك هو الفلاح.

٣ ـ وأن المشرك: إذا استجار بأحد المؤمنين من أجل أن يسمع كلام الله وتبلغه دعوته، أو ليزيل شبهة فى نفسه نحو هذا الدين أو ليستمع إلى حجة أو دليل، فإن له الحق كل الحق أن يجار، وأن تزال عن ذهنه الشبهة، وأن تبلغه الدعوة، وتقدم إليه الحجة، بل من حقه أن يظل فى أمان حتى يبلغ مأمنه أى المكان الذى يشعر فيه بالأمن.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والمتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق من هذه الآيات الكريمة دروسا تنفعهم فى الدعوة والحركة والتربية والتنظيم دروسا لا يستفيدونها إلا من القرآن الكريم ومن تلك الدروس:

أولاً: ما يتعلمه الدعاة والحركيون من الآيتين الأولى والثانية، وهو:

١ ـ أن الله تبارك وتعالى أراد من النبى ﷺ ومن الذين آمنوا أن يخوضوا ضد المشركين حربا مستأصلة للشرك مطهرة للمجتمع منه، وذلك إحقاقًا للحق وإصرارا على إقامة دين الله ومنهجه فى الأرض، لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وقد كان المنافقون قد أرجفوا وأطلقوا الشائعات عندما توجه رسول الله ﷺ لقتال

الروم فى غزوة تبوك.

وكانت هذه الشائعات تضخم من قـوة الروم وتهون من شأن قوة المسلمين وتَفُتُّ فى عضدهم، فقد أحاطوا المسلمين بالأخبار الكاذبة.

بعـد ذلك كان لابـد من براءة الله ورسوله من هـؤلاء المشركين والمنافـقين المعـادين للإسلام والمسلمين صراحة، أو من وراء غلالة النفاق.

* وهذه البراءة من المشـركين والمنافقين كـانت مرحلة ختـامية للصـراع بين المسلمين والمشركين، سبقتها مراحل أخرى على نحو ما هو معروف فى مشروعية الجهاد فى سبيل الله. وقد أشرنا إلى ذلك منذ قليل تحت عنوان الجهاد فى سبيل الله وسورة التوبة.

٢ - وإن الإسلام وهو يضـع النظام الأخير للعـلاقة بين المؤمنين والمشـركين، أعطى للمشركين مهلة زمنية؛ لعلهم يتوبون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.

* وهذا من شأنه أن يعلم الدعاة إلى الله والمتـحركين بالإسلام فى الناس والآفاق ألاَّ يوصدوا الأبواب فى وجه أحد حتى يستنفدوا معه كل وسيلة من وسائل الدعوة والحركة وكل أسلوب من أساليـبهمـا فإن أصر على شركـه أو كفره وعـدائه للإسلام والمسلمين كانت المقاطعة والمحادَّة والحرب وما تجره من قتل وأسر وحصار وترصد.

ثانيا: يتعلم الدعاة والحركيون من الآيتين الثالثة والرابعة.

١ - أن الإسلام يعلـم دعاته والمتحـركين به أن يعلموا الـناس ويؤذِّنوا فيهـم بمجمل أحكام الله تعالى فيهم، وفى التعامل معهم قبل أن يطبقوا ذلك عمليا عليهم.

وتلك هى الأناة والرغبة الحقيقـية فى نفع الناس، لا الحرص على إزعاجهم بالحرب وما يترتب عليها، حتى تكون هناك فرصة للتراجع والتوبة عن الشرك والنفاق والدخول فى الإيمان وفى زمرة المؤمنين لتنقطع أسباب الخصام والحرب.

٢ - وأن الله تعالى مـع المؤمنين يؤيدهم وينصرهم، وأنه سـبحـانه مخزى الـكافرين وقادر على هزيمتهم مهما تكن عدتهم وعتادهم.

* وفى هذا بعث للأمل فى نفـوس المؤمنين، بشرط أن يكـون هذا الأمل مصـحوبا بالعمل، وملازما للأخذ بكل الأسباب التى من شأنها أن تؤدى إلى النصر.

٣ ـ وأن الوفاء وإتمام العهد إلى مدته مع من لم ينقضوا عهودهم مع المسلمين أو يغدروا بهم أو يعينوا عليهم ـ هو خلق المؤمنين الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير أو تبديل، بل هو التقوى التى يحب الله تعالى أهلها.

* وهذا يؤكد أن هذا الدين الخاتم دينُ قِيم إنسانية رفيعة يلزم أهله بها، ومن أبرزها فى هذا المجال:

الوفاء، والأمانة، والتقوى.

وهذا ـ فى تصورى ـ هو زاد الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام، الذى يعينهم على المضى فى طريق الحق وموكب الدعوة إلى الله، أُؤَكِّد: الوفاء، والأمانة، والتقوى.

ثالثا: يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من الآيتين الخامسة والسادسة:

١ ـ أن توبة المشركين عن الشرك ودخولهم فى الإيمان مع التزامهم بأعمال الإيمان الظاهرة من صلاة وزكاة تعفيهم من الحرب وما يستتبعها من القتل والأسر والحصار والتربص، لأنهم عندئذ يصبحون إخوة للمؤمنين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، ويعطيهم حق الأخوة وما لها من حقوق وما عليها من واجبات.

٢ ـ وأن المشرك إذا استجار أُجير، وأن هذه الإجارة أمان وهى رهن بوقت معين هو أن يسمع كلام الله، وأن يُعرَض عليه الإسلام إذا طلب ذلك، ليعلم عن الدين ما لم يكن يعلم، ولتزال من نفسه كل شبهة حول الإسلام.

وقد شرع الله ذلك الأمان لتنتشر الدعوة إلى الله بين هؤلاء لعلهم يؤمنون.

٣ ـ وأن على المؤمنين أن يكفوا عن قتال هذا المشرك الذى استجار حتى يسمع كلام الله، بل عليهم أن يبلغوه مأمنه، والمأمن هنا هو: مكان الأمان أو زمانه، مكانه الذى يطمئن إليه، وزمانه حتى يسمع كلام ممن يحسن إسماعه كلام الله.

* ويدخل فى هذا الأمان تأمين نفسه وماله.

ويرى بعض العلماء بل كثير منهم أن المشرك إذا دخل دار الإسلام طالبا الأمان ليسمع كلام الله، أو لتجارة أو لسفارة أُمِّن حتى لو كان من أمَّنه صبيا أو مجنونا، إذ فى تأمينهما إياه شبهة أمان فكان لابد من اعتباره تأمينا.

* وهذا الحكم من روائع القيم الإنسانية التى جاء بها الإسلام، حيث يوجب إجارة هذا العدو ما دام قد طلب الإجارة، ولو كان الذى أجاره صبيا أو مجنونا، بل يوجب على المسلمين تأمينه على نفسه وماله حتى يسمع كلام، ثم حراسته وحمايته حتى يصل إلى بلده أو المكان الذى يأمن فيه على نفسه وماله!!!

* أين ذلك من قول من يقولون: إن الإسلام قد انتشر بالسيف والإكراه؟

* وأين هذا من موقف بعض المسلمين الذين غفلوا وهم يدفعون تهمة انتشار الإسلام بالسيف، فأكدوا أن الإسلام لم يشرع القتال إلا فى حالات الدفاع عن النفس؟

إن هؤلاء وأولئك عليهم أن يتدبروا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

* وفى الآية الكريمة دليل على أن التقليد فى الدين غير جائز وغير كاف، وأنه لابد من النظر والاستدلال، لأنه لو كان التقليد كافيا فى الدين لما وجب أن يمهل المشرك حتى يسمع كلام، ولما وجب على المسلمين إبلاغه مأمنه إلى أن يسمع كلام الله وتزال من نفسه أىّ شبهة ضد دين الإسلام.

٤ ـ وأنه لهذا الأمان مدة زمنية أدناها أربعة أشهر، لكنها قد تطول إلى أقل من سنة، لعل المشرك وهو مقيم بين المسلمين يرى من سلوكهم ما يرغبه فى دخول الإسلام، لأن دخوله فى الإسلام هو هدف الدعوة إلى الله، وهدف الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق.

* وما من قائل من علماء المسلمين أو عامتهم: إن الهدف هو قتل المشركين ابتداء قبل أن يعرض عليهم الإسلام فيرفضوه ويصروا على حرب المسلمين ومعاداتهم والإعانة عليهم، لم يقل بذلك أحد إلا أن يكون مغالطا من أعداء الدين، أو جاهلاً بأوليات هذا الدين ومسلماته مغلقا عقله عن الفهم وصارفا قلبه عن التدبر فى آيات القرآن الكريم.

٢ ـ الآيات الكريمة من الآية السابعة إلى الآية الثانية عشرة

صفات المشركين هي التي بررت قتالهم

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢)﴾.

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها.

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن صفات المشركين وهى صفات سيئة لا تليق بالإنسان الذى كرمه الله وأنعم عليه بنعمتى العقل وإرسال الرسل، لذلك وجب قتالهم والقضاء عليهم، ومن هذه الصفات المعروفة عنهم فى كل زمان:

- أنهم لا يفون بعهد ولا يرعون ميثاقا.
- وأنهم لا يراعون فى مؤمن قرابة ولا عهدا أو حرمة.
- وأنهم منافقون يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم.
- وأنهم يشترون بآيات الله ثمنا قليلا.
- وأنهم يصدون عن سبيل الله.
- وأنهم معتدون دائما.
- وأنهم أئمة الكفر.
- وأنهم لا أيمان لهم.

ومن كانت هذه صفاته فكيف يترك ليعيش بين الناس فيقلب حياتهم إلى حجيم؟

﴿كيف يكونُ للمُشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلاّ الذين عاهدتُم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكُم فاستقيموا لهُمْ إنّ اللهَ يُحبُّ المُتّقين﴾.

ـ هذ الاستفهام: «كيف...» للتعجب من هذا الموقف، وهو يحمل معنى الاستنكار أى: ينكر على المسلمين أن يتركوا هؤلاء المشركين بالله الكافرين به وبرسوله دون قتال، فهؤلاء المشركون ليس لهم عهد عند الله ولا عند رسوله، فهم بنكث عهدهم مع الله يستحقون عذاب الأخرة، وبنكث عهدهم مع رسول الله ﷺ يستحقون به الحرب وما تجره من ويلات وهزائم لهم.

* ثم استثنى طائفة من هؤلاء المشركين من وجوب حربهم ـ وهم الذين لم ينقضوا عهدهم.

قال ابن إسحق [1]: هم بنو بكر أى: هؤلاء لهم عهدهم، حيث كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ يوم الحديبية، والذين عاهدوا عند المسجد الحرام هم بنو ضمرة وبنو جذيمة بن الديل، وبنو بكر من كنانة.

﴿فما استقاموا لكُمْ فاستقيمُوا لهُمْ إنّ اللهَ يُحبُّ المُتّقين﴾

أى مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين، فاستقيموا لهم، إن الله يحب المستقيمين.

* وقد فعل رسول الله ﷺ، وفعله المسلمون، إذ استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى العقدة سنة ستٍّ إلى أن نقضت قريش العهد ومالأت حلفاءها بنى بكر على خزاعة حلفاء النبى ﷺ، فقتلوهم مع بنى بكر فى الحرم فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكّنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلب عليهم فسموا الطلقاء وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير فى الأرض أربعة أشهر يذهب حيث يشاء، ومنهم: صفوان بن أميه وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام.

---

(1) هو: محمد بن إسحق بن يسار المدنى ت وفى سنة ١٥٠ هـ من أهل المدينة، وهو أقدم مؤرخى العرب وهو مؤلف كتاب «السيرة النبوية» الذى رواها عنه ابن هشام. ومن حفاظ الحديث النبوى الشريف

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

ـ تكرار كلمة «كيف» فى بداية الآية السابعة والآية الثامنة معناه: استبعاد ثبات المشركين على العهد.

والمعنى: كيف يكون عهد للمشركين، وحالهم أنهم إن يظهروا عليكم بعدما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق، لم ينظروا إلى حلف ولا إلى عهد، ولم يبقوا عليكم.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾

الإلّ: الحلف والعهد، أو القرابة والنسب.

والذِّمَّة: العهد والحرمة والجوار والصحبة مما يجب أن يحفظ ويُحْمَى. وجمع الذمة: ذِمَم وذمام، وهى كل أمر لزم الإنسان بحيث لو ضيَّعه لحق الذم والتعبير.

وتذمَّم فلان: عمل عملا يستوجب ذمَّه عليه.

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾: أى يقولون بألسنتهم كلاما حلوا طيبا يرضى سامعه، مع أن الذى فى قلوبهم هو السوء والخبث والشر، وهذه من صفات المنافقين.

وتلك من صفات المشركين الأقوياء منهم: فَجَرَة معتدون، والضعفاء منهم فسقة منافقون، كانوا كذلك فى زمن النبى ﷺ ولا يزالون كذلك حتى يومنا هذا.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى أن هؤلاء المشركين الذين من صفاتهم نقض العهود، وأكثرهم فاسقون بالخروج عن المروءة، فجمعوا بذلك المذمَّة الدينية بشركهم، والمذمَّة الاجتماعية بخروجهم عما تعارف عليه الناس معظمهم من حفظ للعهود والمواثيق، وكل مشرك فاسق.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة وصف للمشركين بصفة خسيسة راذلة فيهم هى أنهم باعوا آيات الله تعالى وهى القرآن وما فيه من هدى ودلائل وبراهين على الحق والعدل ـ هم يعرفونها ويعرفون صدقها وأهميتها وإعجازها ـ بثمن قليل هو ما يتيحه لهم شركهم من فسق بشرب الخمر والزنى ولعب الميسر، والعدوان على الضعيف وشن الغارة على

الآمنين، وغير ذلك من المحرمات عقلا وشرعا وعرفا، التى آثروها على الحق والهدى والعدل، فكان عملهم هذا من أسوأ الأعمال وجعلهم موصوفين بتلك الصفات الدنيئة الرازلة.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أى صدوا الناس بسبب شركهم عن سبيل الله، وسبيل الله هو طريقه الذى فيه سهولة ويسر وهو طريق الحق والخير والهدى، صدوا الناس عن ذلك كله أى: عن اتباع ما جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

السُّوء هو: كل ما يغُم الإنسان من الأمور الدنيوية الأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مصلحة من مصالح الإنسان، والسوء: كل ما يقبح فعله.

وهؤلاء المشركون غموا أنفسهم بأفعالهم من الشرك والكفر بالله وبرسوله، ونقض العهود والمواثيق، واشتراء الخسيس من الأعمال والملذات العارضة بما هو نافع ومفيد فى الدنيا والآخرة.

وهذا شأن المشركين يتكرر منهم دائما كل سيء وكل قبيح وكل ما يفوِّت عليهم مصالح الدين والدنيا، ذلك دأبهم فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل، فالشرك يدعو صاحبه إلى ذميم الأفعال وسيء الأعمال، تلك هى السُّنَّة الجارية على المشركين فى كل زمان ومكان.

﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

معنى هذه الآية الكريمة أهم وأشمل من معنى الآية التى سبقتها لأن الآية السابقة جعلت عدم مراعاتهم للحلف والحرمة نتيجة لظهورهم على المؤمنين، ولكن هذه الآية هنا تعطى معنى أعم فهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذِمّة سواء أكانوا ظاهرين على المؤمنين أم منهزمين مغلوبين أمامهم، فذلك طبع أصيل فيهم على كل حال منصورين أو منهزمين، وسبب ذلك أنهم يضمرون للمسلمين الشر والكراهية والحقد. فهم لا يرقبون فى مؤمن حلفا ولا عهدا ولا قرابة، ولا يرقبون ذلك فى غير المؤمنين أى فى الناس كافة، وذلك دليل فسادهم ظاهرا وباطنا ورغبتهم الأكيدة فى تقويض دعائم المجتمع

بتلك الصفات.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾

ـ الاعتـداء: مجـاوزة الحق، والمشركـون هذا شأنهم، فـهم يحقـدون على المؤمنين ويضمرون لهم الشر ويوجهون إليهم الاعتداء ابتداءً لمجرد أنهم مؤمنون.

وذلك اعتـداء آثم لأنه يقع على قوم لم يلحقـوا بهم أذى ولا ضررا على الرغم من قـدرتهم على ذلك، فـالاعتـداء على الآخـرين من صـفاتهم التى لا تفـارقـهم لأنهم مشركون، وماذا يردع المشرك من داخله؟ أيردعه عقله؟ وأين ذلك العقل مع عبادة الوثن والصنم والشجر والشمس والقمر؟

أيردعه خلقه وضـميره؟ وأين هذا الخلق مع إنسان لم ينصف نفـسه بنقلها من وهدة الشرك؟ فكيف يكف عدوانه على غيره؟

أتردعه إنسـانيته؟ وأين هذه الإنسـانية وهو يحـاربها ويعاديهـا ويهمل بل يتعـمد أن يعتدى على حق كل إنسان؟

فالاعتداء إذن صفة ملازمة لهم، ما فى ذلك شك ولا ارتياب.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: حَرَّمَتْ هذه الآية دماء أهل القِبْلة ـ أى المسلمين جميعا.

والمعنى: فإن تـابوا عن الشرك فآمنوا، وأقـاموا الصـلاة وآتوا الزكاة فـأسلموا، لأن الصلاة والزكاة من مظاهر الإسلام وأركانه.

إن فـعلوا ذلك فقـد صاروا بعـقلهم هذا إخـوانا لكم فى الدين، وحـرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، بل وجـبت عليكم نحوهم حقوق الأخوة فى الدين على أخوتهم[1].

* وهذه الآية الكريمة وسابقتـها إذا ضمتا إحداهما إلى الأخـرى أوجبتا لمن تاب من

(١) هذه الحقوق تحدثنا عنها بالتفصيل فى الركن التـاسع من أركان البيعة: ركن الأخوة، وأفضنا فى الحديث فيها فى كتابنا: فقه الأخوة فى الإسلام- كلاهما نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

المشركين وأقام الصلاة وآتى الزكاة الأمن والأمان والأخوة فى الدين

﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

هذه الآية الكريمة تعقب على صفتين من صفات المشركين:

إحداهما: أنهم اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.

والأخرى: إيثارهم الفساد على الصلاح.

والمعنى أن الله تعالى فصل لهم هذا وذاك وأبان حكمه لو أنهم يعلمون الحق فيتبعوه، ولكنهم لا يعلمون، إذ لو كانوا يعلمون ما اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ولو كانوا يعلمون لآمنوا فآثروا الخير على الشر والصلاح على الفساد وتركوا عداوة المؤمنين، ولو كانوا يعلمون لأصبحوا إخوة للمؤمنين فى الدين فسعدوا بذلك وفازوا، ولكن هم لا يعلمون، والله تعالى يفصل الآيات لمن يعلمون.

﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾.

تتحدث هذه الآية الكريمة عن صنف من المشركين، ينقضون عهودهم جهارا نهارا فى كل وقت، وليس فى وقت ظهورهم وانتصارهم فحسب، ومع نقضهم للعهود فإنهم يطعنون فى دين الله يتهمونه بالنقائض والنقائص.

وهذا الصنف من المشركين باجتماع هاتين الصفتين فيهم يصبحون من أئمة الكفر أى: المقتدى بهم فيه.

وهكذا كل من نكث العهد وطعن فى الدين يكون من رؤوس الكفر وأئمته، وعندئذ يجب قتالهم لا محالة إذ لن ينتهوا عن تلك الرئاسة للكفر إلا بالقتال والأسر والحصار والتربص، وهذا واجب المسلمين نحو هؤلاء المشركين.

* وهذه الآية الكريمة كما يقول العلماء تجيز قتل الذمّىّ إذا طعن فى الإسلام وأظهر هذا الطعن وأعلنه، لأن عهد أىّ ذمى مشروط بالا يطعن فى الإسلام ولا فى رسوله ﷺ ولا يزرى بشعائره وقيمه، فإن طعن فى الإسلام فقد نقض عهده، ومن نقض عهده جاز قتله وأسره وحصاره والتربص به.

وقد وصفتهم الآية الثانية بأنهم: ﴿لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أى لا وفاء لهم بعهد ولا ميثاق.

* وفى هذه الآية الكريمة معنى آخر مرتبط بقراءة أخرى هى قراءة: ﴿وإن نكثوا إيمانهم﴾ أى كفروا بعد إيمان لهم، أى لا تؤمنوهم فالإيمان هنا مصدر ومعناه ضد الإخافة، أو بمعنى إنهم كفرة لا إيمان لهم أى لا تصديق لهم ولا دين.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾

والمعنى أن وجوب قتالهم لأوصافهم تلك، يستهدف أن ينتهوا مما هم عليه من الشرك، وذلك من كرم الله بهم وإحسانه إليهم وقد تحقق ذلك ـ كما ذكرنا ذلك من ابن إسحق رحمه الله ـ من أن هذه الآية الكريمة نزلت بعد فتح مكة وبعد يوم حنين، ولم يقع نكث منهم، وإنما دخل الناس فى دين الله أفواجا فى سَنَة وفود القبائل على رسول الله ﷺ.

* المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا وعبرا نافعة فى الدين والدنيا، يتعاملون بها مع غير المسلمين، نسُوق بعضها فيما يلى:

أولا: يتعلمون من الآيتين السابعة والثامنة:

١ - أن المشركين عموما لا عهد لهم ولا ميثاق ولا وفاء، إذ كيف يكون عهد وميثاق ووفاء لمن لا دين له؟

والمشركون فى عصرنا هذا أكثر عدداً من الذين يعبدون الكواكب والأشجار والأشياء!!!

إن منهم الملحدين الذين ينكرون الخالق سبحانه وتعالى، ومنهم الماديون الذين ينكرون ما وراء الحواس.

ومنهم الشيوعيون الذين ينكرون الاديان جميعا ويرمونها بالجمود والتخلف ويصفونها بأنها مخدر الشعوب.

ومنهم الذين ينكرون الإيمان بالغيب واليوم الآخر.

ومنهم الذين ينتقصون من قدر القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومنهم من لا أحصى من المارقين وأصحاب الشطحات.

وكل هؤلاء، تعتبر مواجهتهم عند القدرة عليها هى الحل الحاسم لاتقاء شرهم وفسادهم، كما أن هذه المواجهة قد تكون سببا فى أن يتوب بعضهم عن شركه ويدخل إلى الإيمان.

٢ - وأن للمشركين من الصفات ما يجعلهم أبعد الناس عن الوفاء والأمانة بل ما يعدهم عن الإنسانية ذاتها.

ومن ذلك أنهم عند الظهور والانتصار على المؤمنين يخيسون بكل عهد وينقضون كل ميثاق غرورا وبَطَرًا، متناسين كل حق وكل حرمة.

ومن هنا يتعلم المسلمون أن يفروا من كل صفة من صفاتهم وأن يباعدوا بين أنفسهم والاتصاف بها أو بما هو قريب منها.

ويتعلمون من الآية كيف يتعاملون مع هؤلاء المشركين.

٣ ـ وأن المسلمين ما ينبغى أن يخدعوا بمعسول كلام المشركين، ولا بوعدهم، ولا بما تنطق به ألسنتهم، لأن قلوب المشركين منطوية دائما على الحق والشر والفساد، وعلى مزيد من الكراهية للإسلام والمسلمين.

وعلى المسلمين أن يتذكروا دائما أن المشركين أكثرهم فاسقون، والفاسق من عادته أن يخرج على كل قيمة فاضلة، وعلى كل نظام لا يتفق مع رغباته وشهواته، فخروجه على العهد والميثاق متوقع منه بل غير مستغرب منه.

ثانيًا: ويتعلم المسلمون من الآيتين التاسعة والعاشرة، ما هم فى أمس الحاجة إليه لكى يمارسوا حياتهم بما يرضى عنهم ربهم سبحانه وتعالى ومن ذلك:

١ ـ أن المشركين يبيعون العهد والأمان والموثق وسائر ما أمر الله به بأدنى ثمن وأقله قدرا، وتاريخهم يشهد على ذلك:

ـ ففى عهد الرسول ﷺ نقضوا العهد بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب ـ يوم كان على الشرك حيث أطعم حلفاءه، وترك حلفاء النبى ﷺ.

فإذا كانوا يبيعون العهد والموثق والشرف بأكلة فما بال ما يبيعونه إذا عرض عليهم من أعراض الدنيا ما هو أكبر وأجدى؟

إنهم يبيعون آيات الله بثمن قليل، وكفى بذلك خزيًا لهم!!!

٢ ـ وأنهم لشركهم يمارسون صد الناس عن الحق وعن سبيل الله دائما، وسبيل الله كما ينبغى أن يعرف المسلمون هو: الإيمان والإسلام والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإعمار الأرض، وتكريم الإنسان بدعم حقوقه كلها.

فالمشركون دائما يصدون الناس عن هذه الفضائل ويحولون بينهم ـ بكل وسيلة ـ وبين الإيمان، أو بينهم وبين الاستمرار على الإيمان، فضلا عن صد أنفسهم عن الإيمان.

وفى ذلك درس للمسلمين أن يحذروا صد أحد عما أمر الله به أو نهى عنه، وإلا

وقعوا فى صفة من صفات المشركين.

٣ ـ وأن عمل المشركين كله عمل سيىء قبيح لا ينتظر منهم سواه، فليس لهم عمل يخلو من السوء، ومما يغم النفس والبدن ويفوت صالح الدين والدنيا، فهم كما وصفهم العليم الخبير سبحانه وتعالى: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فذلك طبع فيهم لا يفارقهم إلا أن يتوبوا عن الشرك ويدخلوا إلى الإيمان، ويظهروا أعمال الإسلام من صلاة وزكاة، وكيف يتوقع منهم رعاية عهد أو حق أو قرابة؟ إنهم معتدون على الحق دائما وعلى أهله والدعاة إليه.

ثالثا: يتعلم المسلمون من الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة مالابد من معرفته عن المشركين فيما يلى:

١ ـ أن بوسعهم أن يخرجوا من دائرة الشرك إن تابوا عنه، فآمنوا وأسلموا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، إنهم عندئذ لن يتمسكوا بصفاتهم الراذله إذ يحجبهم عنها إيمانهم وإسلامهم وصلاتهم لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تطهر صاحبها وتزكيه عند الله، و«الإيمان قَيْد الفتك فلا يفتكُ مؤمن» رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

٢ ـ وأن باب التوبة مفتوح دائما أمام الراغبين فى الرجوع إلى الحق، وأنه إذا كان هذا الباب مفتوحا أمام المشركين، فكيف به أمام عصاة المؤمنين.

إن المسلمين يتعلمون من ذلك ألا ييأسوا من رحمة الله أبدا، وأن الله تعالى يفرح بتوبة عبده ويتقبلها بقبول حسن.

بل إن توبة المشرك تدخله فى باب الأخوة فى الدين وتعطيه من الحقوق ما يعطيه المؤمن لأخيه المؤمن.

٣ ـ وأن هذا التسامح مع المشركين بإعطائهم هذه الفرص ليتوبوا رحمة من الله تعالى بهم. وإذا كان الله تعالى رحيما بالمشركين يفتح لهم باب التوبة، فإن ذلك مما لا يهتدى إليه وإلى حكمته إلا الذين يعلمون ما يفصل الله لهم من أحكام وآيات.

وأن من تولى من المشركين عن هذه الفرصة ولم يستفد من هذا التسامح ولم يتعظ بتفصيل تلك الأحكام، فبقوا على شركهم وطعنوا فى دين الإسلام فعلاجهم القتل

لأنهم بذلك يصبحون من أئمة الكفر فلا أيمان لهم ولا إيمان، وحقهم أن نواريهم الارض مقتولين أو تشدهم الحبال والقيود مأسورين أذلاء، أو يحاصرون حتى الموت أو الاستسلام، أو يتربص بهم حتى يمكن القضاء عليهم.

ومعنى ذلك أن الإسلام لا يأمر بقتل أحد إلا سبب، بل بسبب جوهرى.

* المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة دروسا لابد منها فى نشر الدعوة إلى الله، وفى الانطلاق بالحركة الإسلامية فى الناس والآفاق، كغيرها من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك:

أولا: من الآيتين الكريمتين السابعة والثامنة:

١ ـ أن المشركين وقد أعطوا مهلة الأربعة الأشهر، أو مهلة إتمام عهدهم إلى مدته يجب أن يعاملوا معاملة الأعداء إلا من استقام منهم على عهده أو مدته.

أى أن الاطمئنان إلى المشرك أو الوثوق فى أنه سوف يوفى لا محل له، ومعنى ذلك أن الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق يجب أن يضعوا هذا فى اعتبارهم، وهم يخططون للدعوة والحركة، وألا يغيب عن أذهانهم بحال قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ...﴾ وأن يتعاملوا معهم وفق ما دلتْ عليه هذه الآية الكريمة.

٢ ـ وأن المشركين هم أعداء الله ورسوله والمؤمنين فى كل زمان ومكان، لا تفارقهم هذه العداوة ولا يفارقونها بحال من الاحوال. وعلى الدعاة والحركيين أن يستعيدوا فى أذهانهم تاريخ المعارك الضارية التى شنها المشركون على المسلمين فى أحقاب عديدة من تاريخ الإسلام والمسلمين متحالفين فى ذلك مع أى عدو للمسلمين، ومن ذلك على سبيل المثال لنتذكر:

ـ تحالف المشركين من مختلف أنحاء الجزيرة العربية -يساندهم اليهود- ضد الإسلام والمسلمين فى معركة الأحزاب «الخندق».

- وتحالفهم وتكاتفهم ضد الإسلام والمسلمين - يساندهم اليهود والنصارى فى الباطن - فى الحرب التى شنها التتار على المسلمين فى بغداد حيث دمروا كل مظاهر الحضارة فيها وفيما جاورها من البلدان والممالك الإسلامية - والتتار وثنيون أهل شرك وفجور - والأهوال التى ارتكبوها ضد المسلمين أكبر وأفدح من كل ما يتصور الناس.

- وتحالف المشركين الملحدين الذين كانوا يسمون «الاتحاد السوفيتى» ضد الإسلام والمسلمين فى الجمهوريات الإسلامية الواقعة فى دولة «الاتحاد السوفيتى سابقًا».

- وتحالف المشركين الملحدين اليوغسلاف بقيادة «تيتو» من أجل القضاء على المسلمين فى يوغسلافيا.

- وتحالف المشركين من الصرب والكروات ضد المسلمين فى البوسنة والهرسك، ثم فى إقليم كوسوفوا.

- وتحالف مشركى الهند ضد المسلمين فى شبه القارة الهندية وضد المسلمين فى كشمير، وما ينبغى أن ينسى الناس حادث القطار وهو قطار مليء بالموظفين المسلمين فى الهند الراغبين فى الهجرة إلى باكستان حيث أُفنوا عن آخرهم فى القطار.

- وما أظن ما يحدث من أمريكا اليوم ضد المسلمين فى إيران والسودان وأفغانستان والصومال والعراق وليبيا وفلسطين، ما أظن ذلك إلا صادرا عن روح تشرك بالله وبالحق وبحقوق الإنسان، وهى قريبة جدًا من روح المشركين عبدة الأوثان.

* إن تذكر الدعاة إلى الله والحركيين لهذه التحالفات يجعلهم يراجعون أعمالهم وتحركاتهم لتتناسب مع هذه التحالفات.

٣ - ولابد أن يفكر المسلمون اليوم دعاة وحركيين فيما يفعلون إزاء هذه التحالفات وذلك التحدى.

- هل تكون المواجهة بمزيد من الحرية والشورى يتشبثون بها فى أوطانهم وأقاليمهم ليستطيعوا فعل شىء فى طريق اتحاد العالم الإسلامى ووحدته فى مواجهة أعدائه؟

- وهل تكون المواجهة للأعداء - بعد الأخذ بالحرية والشورى واحترام حقوق الإنسان - هى نهضة علمية تقنية تمكنهم من اقتصاد قوى يقوم على الاكتفاء الذاتى فى الطعام والسلاح والتعليم والإعلام؟ لتغطية حاجة العالم الإسلامى من هذه الاحتياجات.

ـ وهل تكون المواجهة بالعمل على كسر احتكار الأعداء لصناعة السلاح والإصرار على تصنيع السلاح وإنتاجه والخروج من دوائر الحظر المفروضة على العالم الإسلامى؛ لأن الشرعية الدولية اليوم ارتبطت تماما بالقوة المادية وامتلاك الأسلحة الدمارية المتطورة!!!

ـ وهل تكون المواجهة فى التمسك بمنهج القرآن والسنة فى ممارسة الحياة السياسية الكريمة التى أمر بها الله تعالى؛ من أجل إعلاء قدر الإنسان أكرم مخلوقات الله فى هذا الكون؟

ـ أم تكون المواجهة فى ذلك للأعداء هى مؤتمر أو أكثر يعقد للعلماء والمفكرين الإسلاميين؛ لوضع خريطة يصنعها العلماء والمتخصصون فى مختلف مجالات العلم؟

* إنه لابد من حل فى مواجهة هؤلاء المشركين الذين لا عهد لهم، مع مراعاة تلك القلة من المشركين الذين يستقيمون على عهودهم ومواثيقهم، مع أن معظمهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، لأنهم لا أيمان لهم، وذلك أن من المقرر أن أكثرهم فاسقون.

* إن مهمة الدعاة إلى الله والحركيين أن يبصروا الناس بطبائع هؤلاء المشركين التى ذكرها القرآن الكريم وهى:

أ ـ أنهم لا يعاهدون المسلمين إلا إذا كانوا فى عجز عن مواجهة المسلمين أو التغلب عليهم.

ب ـ وأنهم عندما يغلبون المسلمين فى معركة فإنهم يتجاوزن كل حد من حدود الإنسانية فى التعامل مع المغلوب دون مراعاة لأى قيمة إنسانية، أو تذمم من أى عمل مشين يمارسونه.

حـ ـ وأنهم يضمرون الحق والعداء للإسلام والمسلمين، حتى لو ظهر من ألسنتهم خلاف ذلك، فهم أهل مداهنة وحيلة والتواء من أجل الوصول إلى أهدافهم الخبيثة.

د ـ وأنهم يصدون عن سبيل الله فيحولون بين الناس وبين منهج الله ونظامه.

هـ ـ وأنهم أصحاب أعمال سيئة دائما وفاسقون عن القيم الإنسانية فى كل حال، ومعتدون باستمرار.

وتلك صفاتهم كما ذكرتها الآيتان التاسعة والعاشرة، وكل من اتصف بهذه الصفات فهو إلى الشرك أقرب، حتى لو كان من أهل الكتاب الذين هم من غير المشركين.

ثانيا: ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من الآيتين التاسعة والعاشرة كيف يحافظون على آيات الله ويتخذونها منهجا ونظاما فى الحياة، وذلك مما يلى:

١ ـ التأكيد على أن آيات الله ـ وهى القرآن الكريم ـ وما فيه من هدى وحق وبراهين وأدلة على الحق والعدل والإحسان هى الهدف الأول الذى يحاول المشركون القضاء عليه أو تشويهه.

* وللمشركين وأمثالهم فى حرب القرآن صولات وجولات، واتهامات وأباطيل (١).

*وذلك يعنى أن الدعاة إلى الله يجب أن يوجهوا كل اهتمامهم للقرآن الكريم: فهمًا ودرسا واستنباطا وعلما والتزاما بمنهجه، ودفاعًا عنه ضد حملات التشويه الموجهة إليه.

٢ ـ والتأكيد على أن الأخذ بمنهج القرآن الكريم هو الحل لكل المشكلات فى حياة المسلمين اليوم، فهو يهدى للتى هى أقوم وفيه تبيان كل شىء وتفصيل كل شىء ـ ومن أنكر شيئا من ذلك فليس من المسلمين ـ.

* ومعنى ذلك أن تعطيل أحكام القرآن أو أخلاقه وآدابه هو صد عن سبيل الله، وعمل سيء يحسب على فاعله ويحاسب عليه أشد أنواع الحساب.

* وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية وفى مجالات التربية الإسلامية أن يعملوا ما وسعهم على أن يكون للقرآن ـ وهو الإسلام ـ مكانتة اللائقة به فى المجتمع المسلم وأن لا يقبلوا بديلا عنه، لأن هذا القبول هو نوع من بيع آيات الله بثمن قليل وعدوان على الحق وعلى أهله والدعاة إليه، وهى صفة من صفات المشركين.

ثالثا: ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة دورسا أهمها:

١ ـ أن الحد الفاصل بين الإيمان والشرك هو التوبة والانحياز إلى الحق.

---

(١) انظر لنا : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام - نشر دار المنار بالقاهرة ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م . ط رابعة .

* ومعنى ذلك أن الحد الفاصل بين المعصية والطاعة أيضا هو التوبة والانحياز إلى الحق والالتزام بقيم القرآن الكريم ومبادئه، مما يوجب على الدعاة إلى الله أن يفسحوا صدورهم لعصاة المسلمين لعلهم يتوبون من قريب.

٢ - وأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فيهما علاج لمعظم مشكلات الفرد والمجتمع، وأنه لا يجوز لمسلم أن يفرق بين الصلاة والزكاة، فمن لم يزك فلا صلاة له.

وقال القرطبى - فى تفسيره -: «وفى حديث أن النبى ﷺ قال: «مَنْ فَرَّق بين ثلاث فرق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة: مَنْ قال أطيع الله ولا أُطيع الرسول، والله تعالى يقول: ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] ومَنْ قال: أقيم الصلاة ولا أوتى الزكاة، والله تعالى يقول: ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٥٦، المزمل: ٢٠، البقرة: ٤٣] ومَنْ فرَّق بين شكر الله وشكر والديه، والله عز وجل يقول: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

٢ - وأن العلم يورث الإيمان، فمن كان على علم اهتدى بعلمه إلى الإيمان، وأن الله تعالى وهو يفصل آياته ويوضح دلائله ويفسر ما أعطاه لأنبيائه ورسله من معجزات وعلامات، إنما يفصل ذلك لقوم يعلمون فيهتدون.

أما أولئك الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا فليسوا ممن يعلمون، بل ليسوا ممن يعقلون، لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وما يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣)﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* ومعنى ذلك أن الدعاة إلى الله يجب أن يوجهوا الناس إلى العلم وإلى التعمق فيه، وإلى التنوع فى دراساته، فهو الوسيلة الجيدة للإيمان أولا، ولممارسة حياة إنسانية كريمة ثانيا، وإلى إعمار الأرض الذى طالب به الله عباده ثالثا، وإلى القدرة على مواجهة أعداء الإسلام أخيرا.

٣ - وأن التوبة النصوح والدخول فى الإسلام بعد الشرك يَجُبُّ ما كان قبله من ذنوب وآثام وأعمال سيئة وعداء للإسلام، بل إن هذه التوبة النصوح تعطى صاحبها حقوق الأخوة فى الإسلام، لأن الصلة بين المسلمين تقوم على صحة العقيدة وسلامة العبادة وحسن التوبة إلى الله.

* وإذا كان ذلك فى مجال توبة المشرك من شركه، فما بالنا بتوبة العاصى عن معصيته؟ وفى ذلك للدعاة إلى الله دروس عظيمة النفع فى ممارسة الدعوة والحركة والتربية.

٤ ـ وأن هؤلاء المشركين إن تولوا عن التوبة ونكثوا أيمانهم وطعنوا فى دين الإسلام ـ وهذا ليس بمستبعد منهم ـ فإنهم حرب على الله ورسوله فقتالهم واجب بكل ما يترتب عليه من أسر وحصار وتربص.

* وأن توضيح هذه الأحكام واجب الدعاة إلى الله، ما ينبغى أن يقصروا فى توضيحه وبيانه، وإلا اختلط على الناس ما أمر الله به وما نهى عنه.

* وأن كل من طعن فى دين الإسلام من مشرك وكتابى ومسلم فقد كفر بالله وبما أنزل على خاتم رسله محمد ﷺ.

* وأن الطعن فى الدين هو: أن يكذِّب أو يُنسَب إليه ما ليس منه، أو يحذف منه ما هو منه، أو أن يُستخف به أو: بأصل من أصوله أو ركن من أركانه، أو فرع من فروعه الصحيحة القطعية الثبوت، ومن فعل ذلك فهو من أئمة الكفر.

* ومن الطعن فى الدين قبول منهج آخر بديلا عنه، أو سب مُنْزِله أو الرسول الذى أنزل عليه أو الاستهزاء بالله ورسوله أو وصفهما بما لا يليق، ومن فعل ذلك فهو من أئمة الكفر.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس ذلك ويعلنوهم به وبعقابه الذى شرعه الله تعالى لهؤلاء ردعا لهم ولأمثالهم، وهو أقسى عقاب إذ هو القتل وما يجره وراءه من ويلات فى الدنيا والآخرة.

تحريض المؤمنين على قتال المشركين، وطمأنة المؤمنين على نصر الله تعالى لهم.

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ .

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها:

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن تحريض المؤمنين على قتال المشركين كى لا يستشرى شرهم، وتطمئن المسلمين على النصر من عند الله وتخبر المؤمنين بأن المشركين لم يعد لهم وجود ولا مشاركة فى المسجد الحرام ولا فى الحج ومناسكه مهما تذرعوا بسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وتعد المؤمنين المهاجرين والمجاهدين فى سبيل الله بأعظم الجزاء، وهو الخلود فى الجنة.

ونفصل ذلك فيما يلى والله المستعان:

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هذا تحريض أو تشجيع للمؤمنين على قتال المشركين، وتحذير لهم من ترك قتالهم

حتى لا يفسدوا ويعيثوا فى الأرض فسادا، إذ هم مؤهلون لذلك لما فيهم من صفات سيئة تجعلهم يمارسون الفسق والفساد والعدوان ونكث العهود.

* وقد جاء هذا التحريض عقب الآيات الكريمة السابقة التى وصفت المشركين بصفات تسع كل واحدة منها جديرة بأن يُقاتَل صاحبها من أجلها وهذه الصفات هى:

- لا يوفون بعهد ولا ميثاق.

- ويغدرون.

- ويضمرون الشر والأذى للمسلمين.

- وأكثرهم فاسقون.

- وأنهم يبيعون آيات الله بأبخس ثمن.

- وأن أعمالهم كلها سيئة.

- وأنهم يتجاوزون كل حد دينى وإنسانى.

- وأنهم معتدون دائما إن قدروا.

- وأنهم لا أيمان لهم.

وهذه الصفات من شأنها أن تغرى المسلمين بقتالهم، لأن من صحيح عمل الإسلام والمسلمين تطهير المجتمع من هذه الصفات وأصحابها، وتشير هذه الآية الكريمة إلى صفات أخرى هى:

- أنهم نكثوا أيمانهم بعد عهدهم، وتلك صفة سابقة ولكن أعيد ذكرها لفداحتها ومناقضتها لإنسانية الإنسان.

- وأنهم همّوا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، فلما عجزوا أجمعوا على قتله وتفريق دمه فى القبائل فنجاه الله منهم وأمره بالهجرة إلى المدينة المنورة.

أوهمّوا بإخراجه من المدينة مهاجراً يوم بدر إذ كان خارجا لملاقاة غيرهم. فلما نجت العير أصروا على الذهاب إلى بدر وملاقاة المسلمين، أوهمّوا بإخراجه من الحج والعمرة والطواف.

ـ وأنهم بدأوا المسلمين بـالقتـال حين أعـانوا بنى بكر حلفـاءهم على العـدوان على خزاعة حلفاء النبى ﷺ، وقتلوا بعض الخزاعيين فى الحرم.

وهذه الصفات أيضا تغرى بقتلهم بل توجبه.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

المعنى: أنهم بهذه الصفات وبهذه الأعمال مـا يجوز لكم أن تخشوهم حتى لو كانوا كثـرة عددًا وعُدة، لأن الله مـعكم أيهـا المؤمنون، وإنما الذى يجب أن تخشـوه هو الله وحده إن كنتم مؤمنين فالمؤمن لا يخشى إلا الله.

وذلك الأسلوب فى التحريض إثارة لهممهم، وتبرير لقتال المشركين:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ...﴾.

«قَاتِلُوهُمْ»: أمر صريح بقتال المشركين لا يجوز مخالفته.

ونتائج هذا الذى أمر به الله تعالى إذا أُدّى بإخلاص هى:

ـ تعذيب المشركين أسرًا وجراحـة وقتلا بأيدى المؤمنين، ونسب ذلك إلى الله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ لأنه سبحانه هو الناصر الحقيقى وأيدى المؤمنين إنما هى أسباب.

ـ وخزْى المشركين وانكسارهم وإذلالهم وفى ذلك عز للمؤمنين.

ـ ونصر للمؤمنين على المشركين، وفى هذا النصر كرامة للمؤمنين.

ـ وشفـاء لصدور المؤمنين بنصرهم على المشـركين، والشفاء هو إزالة أسـباب المرض وزوال ما فى نفـوس المؤمنين من غيـظ من المشركين، وفى ذلك النصـر ما فيـه من غم المشركين وحرج صدور من نجا منهم من الموت.

ـ وإذهاب لغيظ قلوب المؤمنين، إذ المؤمنون فى غيظ دائم من المـشركين لشركهم ولما فيهم من صفات رذلة ساقطة غير إنسانية، والغيظ هو: الغضب المشوب بالانتقام.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ...﴾

والمعنى: أن من رحمة الله بعـباده مؤمنهم ومشركهم أنه سبـحانه يقبل توبة من تاب

منهم بشروط التوبة المعروفة، حتى لو كان هذا التائب مشركا، فما بالنا لو كان مؤمنا عاصيا؟

﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾.

وعلم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة يعنى أن يعامل الناس بما يعلم أنهم أهل له، لأنه سبحانه يعلم نياتهم وما يضمرون، وحكمة الله تعالى تعنى أنه سبحانه لا يأمر بأمر إلا فى الاستجابة له مصلحة للمستجيب فى دنياه وأخراه، كذلك نهيه سبحانه وتعالى، فإن فى اجتناب ما نهى عنه مصلحة الدين والدنيا وتلك هى حكمة الله تعالى فى الأمر والنهى، فوجب على الناس الامتثال.

﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة...﴾

- الخطاب فى هذه الآية موجه للمؤمنين على تفاوت مراتبهم فى المدة التى عاشوها مسلمين، إذ منهم أهل السبق، ومنهم من آمن منذ زمن قصير، لكن الجميع مطالبون بمضمون الآية كما سنوضح بعد قليل.

والاستفهام فى الآية الكريمة ﴿أم حسبتم...﴾ للإنكار، أى ينكر على المؤمنين بمختلف مراتبهم أن يظنوا أن الله تعالى يتركهم بغير اختبار وامتحان بالجهاد فى سبيله وتحمل مشقاته فى المال والنفس ومواجهة أعداء الله والرغبة فى القضاء عليهم.

وهذا الاختبار أو الامتحان من صدق فيه وصبر على متاعبه رفع الله تعالى من درجاته عنده، وأعدلهم أحسن الجزاء بعد ما يرى منهم الإقبال على الجهاد فى سبيله والإخلاص فى أدائه والتضحية فيه بالمال والنفس.

﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾.

الوليجة: كل ما يتخذه الإنسان معتمدًا عليه وليس من أهله، والمقصود هنا أن يتخذ مدخلا عند المشركين بموالاتهم أو إطلاعهم على أسرار المؤمنين.

والذى يمتنع عن أن يتخذ عند المشركين وليجة يجزيه الله أحسن الجزاء على إخلاصه لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه خافية، فلا يظن أحد منكم أن الله تعالى تارككم دون اختبار وامتحان ليرى ما تفعلون فيثيب المحسن ويعاقب المسىء، فهو سبحانه خبير: أى عالم ببواطن أموركم وخافيها، أى خبير بكل ما تعلمون من عمل.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

بهذه الآية الكريمة منع الله المشركين من دخول المسجد الحرام من يوم نزلت وإلى أن تقوم الساعة بإذن الله كما وضح ذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا . . .﴾ [التوبة:٢٨].

وهذه الآية الكريمة تنفى عنهم الأهلية التى تتيح لهم عمارة المسجد الحرام، لأن عمارة بيوت الله إنما تكون بالعبادات فهى التى تُعَمِّر المساجد.

وليس ذلك من حق المشركين على أى حال، وكيف يكون هذا من حقهم وهم قد شهدوا على أنفسهم بالكفر بالله، لشركهم ولدنىء أعمالهم وسوئها.

والمساجد لله فهى بيوته: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

وما دامت المساجد لله فالأصل ألا يعمرها إلا المؤمنون من عباده ولا حق فيها لغير المؤمنين.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

الإخبار عن المشركين، وحبوط أعمالهم أى بطلانها وعدم نفعها وعدم قبول الله تعالى لها، فأصبحوا بذلك خالدين فى النار.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

ـ هذا إخبار من الله تعالى بمن لهم الحق فى عمارة المسجد الحرام وبيوت الله جميعا وهم: المؤمنون بالله واليوم الآخر الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ولا يخشون إلا الله.

* وهذه الآية الكريمة تدل على أن الذين يبعدون عن عمارة مساجد الله أنواع وهم:

ـ المشركون عموما وقد أقصوا صراحة فى الآية السابقة وفى الآية الثامنة والعشرين من هذه السورة التى نشرحها.

ـ واليهود والنصارى لأنهم ـ وإن آمنوا بالله واليوم الآخر بزعمهم ـ لم يدخلوا فى دين الإسلام عندما جاء به خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وبالتالى فهم مخالفون لأمر الله فى القرآن الكريم ولما جاء فى كتبهم من وجوب الإيمان بمحمد ﷺ عند ظهوره [1] وبالتالى فإنهم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة اللتين فرضهما الإسلام على المؤمنين به.

ـ كذلك يبعد عن مساجد الله وعمارتها كل من لم يكن مؤمنا بالله ورسوله، ومقيمًا للصلاة مؤديًا للزكاة حتى وإن كان من المسلمين أو المنافقين.

* وتدل الآية الكريمة على أن من صفات المؤمنين أنهم يخشون الله، ولا يقدمون خشية أحد على خشيته سبحانه وتعالى، فمن كان من المسلمين بهذه الصفات فعسى أن يكون من المهتدين.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ـ هذه الآية الكريمة تخاطب مَنْ سوَّوا بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وبين الجهاد والهجرة فقالوا: إنَّ كل ذلك من عمل البرّ.

وكان هؤلاء القائلون من المؤمنين، فأوضحت لهم هذه الآية الكريمة خطأ ما ذهبوا إليه من تسوية بين هذا وذاك.

* وقد ذكر علماء التفسير وعلماء أسباب النزول فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ما رووه عن الطبرى والواحدى بسنديهما عن النعمان بن بشير الأنصارى ـ قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: «ما أبالى أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج» وقال آخر: «بل عمارة المسجد الحرام» وقال آخر: «بل الجهاد فى سبيل الله خيرٌ مما قلتم» فزجرهم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال: لا

---

(1) معرفة هذه البشارات التى جاءت فى التوراة والإنجيل تبشر بمحمد وتدعو إلى الإيمان به وبما جاء به - انظر ـ : عالمية الدعوة الإسلامية ط الرابعة دار الوفاء ١٤١٢ - ١٩٩٢ م البحث الثانى من الفصل الأول من ـ الثانى من الكتاب.

ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليت الجمعة دخلتُ على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿واللَّه لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال بعض العلماء: والأصوب أن يقال: فقرأ عليه: ﴿أَجَعَلْتُم سقاية الْحَاجِّ. . .﴾ الآية. لأنها نزلت قبل ذلك، ولم يكن هذا سبب نزولها.

ـ وروى الطبرى والواحدى: لما أُسِرَ العباس بن عبد المطلب يوم بدر، أقبل عليه المسلمون فعيروه بكفره بالله وقطيعة الرحم، وأغلظ له علىّ ـ رضى الله عنه ـ القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا، فقال له علىّ ـ رضى الله عنه ـ ألكم محاسن؟ قال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة. ونسقى الحاج ونفك العانى، فأنزل الله عز وجل رَدًا على العباس: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أن يعمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ. . .﴾ الآية.

ـ وقال عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال العباس بن عبد المطلب حين أُسر يوم بدر: لئن كنتم سقبتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقىَ الحاج ونفك العانى، فأنزل الله تعالى: ﴿أجعلتُم سقاية الحاج وعمارة الْمَسْجِد الْحَرَامِ. . .﴾ الآية.

ـ والسقاية هى: سَقْى الحاج من ماء زمزم، وكانت السقاية ببنى هاشم، وجاء الإسلام وهى بيد العباس بن عبد المطلب.

ـ والعمارة هى: صناعة التعمير، أى القيام على تعمير شىء بالإصلاح والحراسة ونحو ذلك. وهى: السدانة أو الحجابة.

والعمارة هنا غير العمارة فى قول الله تعالى ﴿ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ. . .﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد اللَّه مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ ففى هاتين الآيتين: العمارة بمعنى العبادة.

وكانت العمارة بمعنى التعمير ـ فى الجاهلية ـ لبنى عبد الدار وجاء الإسلام وهى بيد عثمان بن طلحة بن أبى طلحة [1].

(١) هو قرشى من بنى عبد الدار توفى سنة ٤٢ هـ وأسلم مع خالد بن الوليد فى هدنة الحديبية، وشهد فتح مكة، فدفع رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إليه وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة.

* وعمارة المسجد الحرام من أعظم مناصب قريش، وقد أبقاها الإسلام هى والسقاية.

* وكانت لقريش فى الجاهلية مناصب أخرى أبطلها الإسلام وهى ثمانية مناصب، وهى:

- الديات والحمالات:

فالدية عوض عن دم القتيل خطأ أو عمدًا إذا صولح على ذلك.

والحَمالة غرامة يحملها قوم عن قوم.

وكانت الديات والحمالات لبنى تميم، وجاء الإسلام وهى بيد أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

- والسفارة:

وهى السعى بالصلح بين القبائل، والقائم بها يسمى سفيرًا، وكانت لبنى عَدِىّ، وجاء الإسلام وهى بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

- والراية:

وتسمى العُقاب، وهى راية جيش قريش فى الحرب، وكان لبنى أمية، وجاء الإسلام وهى بيد أبى سفيان بن حرب رضى الله عنه

- والرفادة:

وهى أموال تخرجها قريش إكراما للحجيج، فيطعمونهم جميع أيام الموسم، وكانت لبنى نوفل بن عبد مناف، وجاء الإسلام وهى بيد الحارث بن عامر بن نوفل.

- والمشورة:

وهى ولاية دار الندوة، وكانت لبنى أسد بن عبد العزى، وجاء الإسلام وهى بيد زيد بن زمعة.

- والأعنة والقُبَّة.

وهى قبة يضربونها يجتمعون إليها عند تجهيز الجيش، وكانت لبنى مخزوم، وجاء

الإسلام وهى بيد خالد بن الوليد رضى الله عنه.

ـ والحكومة وأموال الآلهة

وهى الأموال المتجمعة من جزاء الصيد فى الحرم أو فى الإحرام، أو مما يُقَدَّم للآلهة من سلاح ومال، وكانت لبنى سهم وجاء الإسلام وهى بيد الحارث بن قيس بن سهم.

ـ والأيسار:

وهى الأزلام التى يستقسمون بها، وكانت لبنى جمح، وجاء الإسلام وهى بيد صفوان بن أمية بن خلف.

* وإنما أبطل الإسلام ما عدا السقاية والسدانة، ما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح وهو على درج الكعبة.

«الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده إن كل مأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هاتين إلا ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت» ورواه أبو داود وابن ماجه فى سننهما، ورواه ابن الأثير فى النهاية.

* والاستفهام فى: ﴿أجعلتم سقاية...﴾ للإنكار، أى ما ينبغى أن تُسَوُّوا بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ـ بمعنى حراسته وصيانته ـ ومن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله، ولا يستوى العاملون لهذين مع العاملين فى مجال الإيمان والجهاد، والله لا يهدى القوم الظالمين، أى الذين يسوون بين المؤمنين المجاهدين وبين من يكتفون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم المؤمنون من أهل مكة وما حولها الذين دخلوا فى الإسلام قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، ثم هاجروا إليها عندما أذن الرسول ﷺ لهم فى الهجرة فهاجروا، هؤلاء أعظم درجة عند الله من أصحاب السقاية والعمارة الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا.

ـ وأعظم درجة: أى أرفع قدرا عند الله تعالى.

ـ ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ أى أصحاب الفوز، وقد استحقوا ذلك لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم فى سبيل الله بالمال والنفس.

ـ ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات. . .﴾ الآية: يبشرهم: أى يدخل السرور عليهم، ويتابع إيراد الخيرات لهم، يبشرهم برحمة منه أى إنعام وأفضال وإحسان.

ورضوان: أى رضا كثير. ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى، خُص لفظ الرِّضوان في القرآن بما كان من الله تعالى.

وجنات: جمع جنة وهى كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما: إنما قال جنات بلفظ الجمع لكون الجنان سبعا:

جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليين.

* وحسب هؤلاء المؤمنين رفعة ودرجة أنهم فى جنات لهم فيها نعيم مقيم أى تَلَذُّذ نفسىّ حسىّ مستمر لا ينقطع، فلا يفوتونه بالموت لأنهم فى دار الخلد، ولا يفوتهم النعيم لأنه حقهم وجزاؤهم.

ـ ﴿إنَّ اللَّه عندَهُ أجرٌ عظيمٌ﴾.

أى أن ما أعطى الله للمؤمنين المهاجرين المجاهدين من مكانة وفوز وبشارة ورحمة ورضوان وجنات، كل ذلك يعدُّ بعض الأجر الذى عند الله لعباده المؤمنين.

* المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيت الكريمة أمورا كثيرة لو التزموا بها كانت خيرًا لهم فى الدنيا والآخرة فهى دروس عظيمة للحياة السعيدة معاشا ومعادًا، ومن ذلك:

أولا: يتعلم المسلمون من الآيات الكريمة من الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة دروسا نافعة نشير إلى بعضها فى التالى:

١ ـ أن قتال المشركين ناكثى العهود والمواثيق أولى من قتال غيرهم من الكفار، ومعنى ذلك أنه لا يجوز مهادنتهم فضلاً عن ولائهم، وذلك من أجل أن يتوبوا عن الشرك، وييأسوا من تركهم على شركهم دون قتال.

٢ ـ وأن من مبررات قتالهم ـ بالإضافة إلى صفاتهم الرذلة ـ أنهم أخرجوا الرسول ﷺ من مكة أذ أخرجوه للحرب، وأنهم بدءوا المسلمين بالعدوان ـ عندما اعتدى بنو بكر تؤيدهم قريش على خزاعة أحلاف النبى ﷺ.

٣ ـ وفى قتالهم درس للمؤمنين عميق إذ يتدربون على قتال من هم أكثر عددا وعدة، ثقة فى تأييد الله ونصره، ووصولا إلى هذا المستوى الرفيع من التربية الإسلامية حين يصبح المسلمون لا يخشون أحدا إلا الله، لأن من شروط الإيمان ومكملاته أن يخشى المؤمن اللهَ وحده ولا يخشى أحدًا ولا شيئًا سواه.

٤ ـ ويتعلمون أن طاعة الله تعالى فى الاستجابة لأمره بقتال المشركين لها أعظم النتائج المادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية ومن تلك النتائج:

ـ أن الله تعالى يعذب المشركين بأيدى المؤمنين قتلى وأسرى ومحاصرين ومتربَّصًا بهم.

ـ وأنه سبحانه يخزى المشركين بهزيمتهم وقتلهم وأسرهم، وفى ذلك ما فيه من فتّ عضد الآخرين.

ـ وأنه ينصر المؤمنين على المشركين، وفى هذا النصر ما فيه من النفع الدنيوى بالغنائم والأسلاب والنفع الدينى بنصر الإيمان على الكفر، والنفع الأخروى بالجنة جزاء على

الجهاد فى سبيل الله وما بذل فيه من مال ونفس وجهد ومشقة.

- وأن هذا النصر يشفى صدور قوم من المؤمنين كانوا ينتظرون هزيمة المشركين، يشفيهم من ألم رؤية المشركين غير مقهورين.

- وأن هذا النصر يذهب غيظ قلوب المؤمنين، إذ يدركون من هؤلاء المشركين ثأرًا أو أكثر مما أصلاهم المشركون نيرانه من قبل.

٥ - وفى قتال المؤمنين للمشركين درس للمؤمنين واختبار لصدق مواقفهم فى القتال وإخلاصهم فى الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا، واختبار لتجرد المؤمنين لدينهم ولربهم ولرسولهم، فهم فى هذا القتال لا يتخذون وليجة من الكفار يوالونهم لقرابة أو نحوها، ففى هذه الحرب بعد شديد عن كل أسباب النفاق والضعف والتوجس، مع مزيد من الاعتماد على الله والأخذ بالأسباب.

ثانيا: يتعلم المسلمون من الآيات الكريمة من السابعة عشرة إلى الآية الثانية والعشرين دروسا عظيمة نذكر منها:

١ - أن عمارة بيوت الله بالعبادة دليل على الإيمان، بل على صدق الإيمان.

وعمارة بيوت الله لها وسائل عديدة منها:

- عمارتها بالعبادات صلاة وتلاوة قرآن وتسبيحًا وتكبيرًا وتهليلاً ومدارسة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته شرحًا وتفسيرًا وتفقيهًا للناس فى الدين، وحثًا لهم على حب الخير وحب الناس وفعل الخير والازدياد منه.

- كما تكون عمارة بيوت الله برعايتها وإضاءتها وتأثيثها وصيانتها وتنظيفها وتزويدها بالكتب النافعة، وإيقاف الأموال والأعيان عليها.

والذى يعمر بيوت الله بأى وسيلة من هذه الوسائل فهو من المهتدين.

٢ - وأن المشركين والكفار والفجار لا يقبل منهم عمارة بيوت الله على نحو من الأنحاء، لأنه سبحانه نفى عنهم هذا الشرف لما علمه فيهم من شر وفسق حيث قال ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين علىٰ أنفسهم بالكفر﴾ .

ويرى العلماء أن أحد الذين نفى الله عنهم شرف عمارة بيوته لو أوصى بعمارة بيت

من بيوت الله لم تقبل وصيته، لأن ماله خبيث مثله، والله تعالى طيب لا يقبل من العمل إلا طيبًا، وما يعمر بيته إلا من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله.

٣ ـ وأنه ليس هناك عمل يبلغ فى مكانته الإيمان بالله واليوم الآخر والهجرة والجهاد فى سبيل الله، حتى لو كان سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.

ذلك أن هؤلاء المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون بالبشارة والرحمة من الله والرضوان والجنات ذات النعيم المقيم والخلد.

وهذا يعلم المسلمين ما هى أرفع الدرجات عند الله؟ وما هو الأجر العظيم الذى ينتظر المؤمن المهاجر المجاهد فى سبيل الله؟ وعندئذ يقبل المسلمون على التحلى بهذه الصفات التى ينالون بها عند الله ذلك الأجر العظيم.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة

ما أحوج الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق والذين يربون الناس تربية إسلامية نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ما أحوجهم إلى هذه الآيات الكريمة وأمثالها فى كتاب الله.

إنهم لا يستطيعون أن يشقوا طريقهم فى الدعوة والحركة والتربية إلا بهدى من كتاب الله وسنة رسوله، ونور ينبعث منهما يكشف لهم دائما ثنيات الطريق ومعوقاته.

ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

أولا: يتعلم الدعاة والحركيون من الآيات الكريمة من الآية الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة ما يلى:

١ ـ أن المشركين وهم المعسكر المعادى للإسلام والمسلمين، كان لهم مع المسلمين مواقف عدائية حاقدة تضمر الشر يجب أن يتذكرها المسلمون لكى تحرضهم على قتالهم، بل الاستزادة والاشتداد فى قتالهم وهذه المواقف التى وقفها المشركون ضد

المسلمين كثيرة - وقد سردناها آنفا - وقد سجلت منها هذه الآيات الكريمة: الهمّ بإخراج الرسول ﷺ، وأنهم بدأوا المسلمين بالقتال فى مواقف عديدة كإصرارهم على قتال المسلمين فى بدر هجومهم عليهم فى أحد، وتحشدهم مع سواهم ضد المسلمين فى الخندق، وتجميعهم الناس من كل صوب وحدب ضد المسلمين فى حنين.

- والمشركون مصرون على عداء المسلمين حتى اليوم بنفس الضراوة والحقد والكراهية وإضمار الشر وإعلانه - كما ضربنا على ذلك الأمثال آنفا.

٢ - وأن القعود عن قتال المشركين إنما يأتى نتيجة لخشيتهم بأكثر مما ينبغى، وهذه الخشية للمشركين تتضمن عدم الخشية من الله وذلك ضعف فى إيمان من يخشى الناس ولا يخشى الله، بل ربما تزعزع إيمانه وانقلع.

* والدعاة إلى الله والحركيون يتعلمون من ذلك درسًا من أهم دروس حياتهم، بسبب ما يتعرضون له من تضييق وتَحدٍّ من الأعداء للإسلام وللعمل الإسلامى، سواء أكان هذا التحدى صادرًا من مشركين أو من غير مشركين، فهم على الدوام وتلك سنة الله فى دعوته ودعاته - يواجهون بما يحول بينهم وبين المضى فى دعوتهم من أصحاب السلطات، فلو خشى الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية هذه السلطات لتوقف موكب الدعوة ولكُبِّلَتْ خطوات الحركة ولوقفت التربية الإسلامية عاجزة عن التأثير والتغيير.

* إن الدعاة إلى الله لا يخشون أحدا إلا الله، وكأنى ببعض الدعاة إلى الله وقد خشوا غير الله، قد واجههم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣ - وأن خوض المسلمين للمعركة ضد الشرك وحلفائه أمرٌ واجب النفاذ، وأنه - بناءً على الإخلاص فى تنفيذه - لابد أن يحقق للدعوة أحسن النتائج وأرضاها لله تعالى وللمسلمين؛ ففى الانتصار على المشركين خزيهم وانحسار شرهم وتفرق جمعهم وشرود من كان يحميهم ويؤيدهم، وهذا تعزيز للدعوة إلى الله وللحركة بهذا الدين، وللدعاة والحركيين، وللمدعوين أنفسهم، وفى هذا ما يضع دعوة الله فى مكانها الصحيح من حياة الناس، وما يجعل المترددين فى الانضمام إلى موكب الدعوة أكثر شجاعة وأعمق فقهًا فى خشية الله وحده واحتساب الأجر عنده فى كل ما يصيبهم فى سبيل الله من

نَصَبٍ أوْ وَصَبٍ، والله تعالى يحسن جزاء المؤمنين المخلصين.

٤ ـ وأن من نتائج قتال المشركين والانتصار عليهم، ما يعود على صفوف المقاتلين بأحسن النتائج وأولاها بأن تملأ نفوس المسلمين رضا وسعادة بهذا النصر، وإذهابًا لغيظ قلوبهم من المشركين الذين لا هَمَّ لهم إلا تحدى الإيمان والمؤمنين ومحاولة القضاء عليه وعليهم.

* إن المؤمنين وهم يتذكرون ما فعله المشركون منذ خطوات الإسلام والمسلمين الأولى فى مكة يوم قاطعوهم وحبسوهم فى شعب بنى هاشم وكتبوا بهذه القطيعة وثيقة عُلِّقَتْ فى جوف الكعبة وهى وثيقة ظلم وجور وقطيعة رحم واستئصال للإيمان والمؤمنين، إن تذكر المسلمين ذلك وهم ينتصرون على المشركين يذهب غيظ قلوبهم، وما من مؤمن فى أى زمن آتٍ من أزمان الحياة الإنسانية إلا وهو مغتاظ من هذه القطيعة الظالمة، فإذا كان انتصارٌ على الشرك فى أى عصر، فإنه يذهب غيظ قلوب المؤمنين.

* فإذا أضفنا إلى ذلك فرحة المسلمين بإحقاق الحق وإعلاء كلمة الله وإبطال الباطل وخزيه وانهزامه، علمنا أن الاستجابة لأمر الله تعالى فى قتال المشركين هى العلاج لكثير من أمراض نفوس المؤمنين، وطمأنة لهم على صواب النتائج فى كل خطوة يخطونها فى طريق الدعوة إلى الله والحركة بالإسلام فى الناس والآفاق، وما يتم ذلك أو شىء منه إلا بالإصرار على خوض المعارك ضد المشركين وتقديم التضحيات بالمال والجهد والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر دعوته ومنهجه فى ربوع العالمين، فذلك حق هذا المنهج العظيم على المؤمنين فى كل زمان ومكان، ما يشك فى ذلك أحد من المؤمنين.

٥ ـ وأن الله تعالى شرع الجهاد فى سبيله، وكتبه على المؤمنين وهو كُرْه لهم وتضحيات ضخمة لا يقوم بها إلا المخلصون من المؤمنين، وأنه سبحانه وتعالى أمر بهذا الجهاد فى ظروف عديدة وجعله ذروة سنام الإسلام، وأحد أهم الأسباب التى تحقق عزة المسلمين، إنما شرع الله ذلك وجعله فى القمة من عبادات الإسلام، ليحقق أهدافًا كبيرة لا غنَى عنها للمسلمين، ومن هذه الأهداف:

ـ إقرار الحق والعدل بين الناس ليعيشوا حياة إنسانية ملائمة لماكرم الله به بنى آدم وفضلهم على كثير من خلقه، وهل يحق الحق ويبطل الباطل ويبدده إلا الجهاد فى سبيل الله؟.

- وزرع الثقة فى نفوس الناس بأن دين الحق هو الدين السائد المنصور، وهذا من شأنه أن يجمع الناس حول هذا الدين، فإذا اجتمع الناس حوله وجاهدوا فى سبيله تخلصت الإنسانية كلها من طمع الإنسان فى أخيه الإنسان بظلمه وهضم حقوقه، وعندئذ يدخل الناس فى دين الله أفواجا، وما لهم لا يدخلون، وقد جاء نصر الله والفتح؟

- وتمييز المخلصين من المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله فى قتال المشركين أعداء الإسلام، ولم يتخذوا عند المشركين الصلات والولائج، وإنما أعلنوهم بأنهم أعداء وأنهم سوف يدفعون ثمن هذا العداء للإسلام قتلى وأسرى ومحاصرين ومتربص بهم فى كل مجال من مجالات الحياة.

- واختبار وامتحان للمؤمنين فى تحمل أعباء الجهاد فى سبيل الله وهى أعباء كثيرة قد تبدأ بالمال والجهد والوقت ولكنها كثيرا ما تكلف النفس والشهادة فى سبيل الله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً...﴾.

كيف يترك المؤمنون بغير اختبار وامتحان وابتلاء وفتنة؟ ليكشف ذلك عن إخلاصهم وتشبثهم بالحق، تلك سنة الله فى المؤمنين الذين خلوا من قبل: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

بل كيف يجزى الله هؤلاء المؤمنين المجاهدين خير الجزاء دون هذا الاختبار والامتحان والابتلاء؟

* إن الابتلاء من أجل الدين حق قرره الله تعالى منذ كان صراع بين الحق والباطل، فقد أكَّد الله هذا الابتلاء بأنواعه فى قوله تعالى يخاطب المؤمنين: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ولقد كان هذا البلاء بكل أنواعه فى المال والنفس وفى سماع التهم الجائرة للموجهة للمؤمنين حقيقة ملازمة لمختلف عصور الإيمان، وعلى عهد رسول الله ﷺ جدَّ اليهود

والمشركون فى إلصاق التهم الباطلة بالرسول ﷺ ولم يكن، أسوأها أنه ـ فى نظرهم ـ شاعر أو يكتتب أساطير الأولين وإنما انحدروا إلى ما هو أسوأ من ذلك بكثير.

وعلى امتداد تاريخ الإسلام والمسلمين لم يتخلّ المشركون وأهل الكتاب عن اتهاماتهم الباطلة للإسلام والمسلمين.

وفى هذا العصر الذى نعيشه جداً الذين أوتوا الكتاب والذين أشركوا فى إلصاق التهم الباطلة بالمؤمنين يعينهم على ذلك غافلو المؤمنين؛ كقولهم: إن المؤمنين متطرفون أو أصوليون أو متعصبون أو إرهابيون.

* إن الدعاة إلى الله عليهم أن يؤكدوا للمؤمنين أن هذا الابتلاء بأنواعه إنما يضاعف أجرهم عند الله إذا صبروا واحتسبوا، وأن يذكروهم وإنما بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

ثانيا: ويتعلم الدعاة والحركيون والتربويون من الآيات الكريمة من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والعشرين دروسًا فى الدعوة والحركة بالغة الأهمية نذكر منها:

١ ـ أن المشركين بعد إعلان البراءة منهم، وبعد الأذان إليهم بأنهم ليس من حقهم أن يعمروا بيوت الله، عليهم أن يعلموا أن ذلك الإعمار لبيوت الله هو حق المؤمنين بالله وحدهم.

وليس ما كان يقوم به المشركون من سدانة البيت الحرام وسقاية الحاج بشىء ذى قيمة مع إشراكهم وكفرهم، فالأولى ببيوت الله هم المؤمنون به سبحانه وتعالى، أما أولئك الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر فليس لهم من ذلك شىء فهم بشركهم قد حبطت أعمالهم وجزاؤهم الخلود فى النار.

* وجاءت أحاديث النبى ﷺ لتوضح هذه القاعدة الدينية فى عمارة بيوت الله.

ـ فقد روى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان».

ـ وروى أحمد بسنده عن معاذ ـ رضى الله عنه قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة

والمسجد».

- وروى عبد بن حميد فى مسنده بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله».

٢ - وأن العبادة بكافة أنواعهـا تعبير عن العقيدة، وما دامت العـقيدة فاسدة، بدليل شهادة أصحابها على أنفسهم بأنهم كافرون ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ فكيف يمكن أن تكون عبادتهم صحيحة أو مقبولة حتى لو كانت سدانة البيت أو سقاية الحاج؟

فما بالنا لو كانت عبادتهم ذبحا من أجل الأصنام أو نحو ذلك من باطلهم؟

وما دامت المساجد بيوت الله فإن عمارتها يجب أن تصدر من المؤمنين بالله المخلصين له فى أقوالهم وأعمالهم، أنَّى للمشركين أن يؤمنوا بالله أو يخلصوا له؟

٣ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضـحوا أن المؤمنين الذين لهم حق إعمـار بيوت الله لهم صفات تميزهم وترفع من قدرهم وتعطيـهم الحق فى إعمار هذه البيوت، ومن تلك الصفات:

- الإيمان بالله واليوم الآخر بكل ما يقتضيه هذا الإيمان من التزام بالحق والعدل وإيثار للحق على كل شىء، ويقين بأن الله تعـالى جامع الناس ليـوم لاريب فيه فـمحاسـبهم ومجازيهم على ما قدموا من عمل.

- وإقامة الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وتوطِّدُ العزم وتقوى الإرادة على الاستـمرار فى أداء مـا أوجب الله فالصـلاة تذكر بذلك لتكررها فى اليـوم والليلة خمس مرات.

- وإيتاء الزكـاة وهى تطهير لـلنفس من الشح ومن المعاصى، وهى فى الوقت نفـسه اختـبار وابتلاء بإنفـاق المال - وهو أعز ما يملك الإنسـان من أعراض الحيـاة الدنيا - فى وجوهه التى شرعها الله تعالى، كما أن الزكاة إسهام حقيقى فى علاج أمراض المجتمع.

- وخشـية الله وحده دون أحد سـواه، وذلك أن الذين يخشون الناس يخـسرون من دينهم وصـلاتهم وزكاتهم وسـائر عـبادتهم ذلك القـدر الذى آثروا فـيه مـا عند الناس فخشوهم وآثروا ما عندهم على ما عند الله فلم يخشـوه، ومن كان كذلك فهو ضعيف الإيمان إن لم يكن قد فارقه الإيمان.

تلك بعض صفات عـمار بيوت الله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . ﴾ الآية، وهم بهـذه الصـفـات أهل لأن يرضى الله عنهـم، وأهل لأن يكونوا من المهتدين ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قال المفسرون: كل «عسى» من الله حق، وكل «عسى» فى القرآن الكريم فهى واجبة.

٤ ـ وأن كل عمل يقوم به الإنسـان مهما بدا فى ظاهره صالحًا، فإنه لا اعـتبار له ما دام لم يخرج من قلب عامـر بالإيمان بالله، فلقد اغتر بعض الناس بذلك قـديمًا وحديثا فحـسبوا أن العـمل الذى أحسنوا فيـه إلى غيرهم هـو من مذخوراتهم ـ مع أنهم غـير مؤمنين ـ فـردّ الله تعالى عليهم هذا التـصور الخاطىء فى قـوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، قال المفسـرون: حبطت أعمالهم. التى ظاهرها البر والإحسان، لعدم إيمانهم الذى تعتبر به الأعمال.

* وقد حكم الله تعالى فى قضية الأعمال أعدل حكم، لأنه سبحانه ربطها بالإيمان، وعلينا أن نتعلم ذلك ونأخذ به فى حياتنا مع أنفسنا ومع الناس، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . ﴾ الآية وإذا كانت سقـاية الحاج وعمارة المسجد الحـرام دون إيمانه فهى لا وزن لها ولا قيمـة، فماذا تكون أعمال البر والإحـسان التى هى أقل من عمارة المسجد الحرام وسـقاية الحاج؟ إنها لن تكون إلا من الهباء المنثور.

* إن الدعاة إلى الله والمتـحركين بالإسلام دينًا ومـنهجا ونظامـا فى الناس والآفاق، عليـهم أن يركـزوا على أن الإيمان بالله واليـوم الآخر بل سـائر أركـان الإيمان من إيمان بالملائكة والكتب والرسل والقضـاء والقدر، ذلك الإيمان هو الذى يجعل العمل مـقبولا مهما كان ضـئيلاً محدود الأثر، وأن فقد هذا الإيمان يجعل العمل مـرفوضا هباء منثورًا مهما كان كبيرًا واسع الأثر والتأثير.

* إن تلك مهـمة الدعاة عليـهم أن يقوموا بها فى كل حين، لـيحتاج إليـهم ويقبل دعوتهم المؤمنون الواعون، لا الذين ينخدعـون بظاهر الأمور ولألائها، لأن الدعوة إلى الله تقـوم على أكتـاف رجـال لا تخدعـهم الظواهر ولا تغـرهم الأعـراض، والحركـة بالإسلام فى الناس والآفاق تعتمد على اللبـاب لا القشور، وتمتد بما لها من جذور قوية فى أرض قويـة، ولا ينخدع بالمتـسلقات من النبـاتات التى لا تعيش إلا مـعتمـدة على

سواها، وكذلك التربية تقوم على تعميق المفاهيم وترفض تسطيحها.

٥ ـ وأن الدرجات العُلَى عند الله إنما هى لمن جمع بين الإيمان والهـجرة والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس.

ـ والإيمان بأركانه كلها إنما يترجم عنه العمل الصالح.

ـ والهجـرة ـ بعد فتح مكة ـ أصـبحت هجرة ما نـهى الله عنه أو هجرة المكان الذى يحال فيه بين الإنسان وعبادة ربه، مع عجزه عن دفع هذا الباطل.

ـ والجهاد فى سبـيل الله فريضة ماضية إلى يوم القيـامة لا تتوقف مادام على الأرض حياة.

ولن تنال الدرجات العُلَى عند الله إلا بهذه الدعائم الثلاثة:

الإيمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بهذه الحقـيقة وأن يعينوهم ما وسعهم على الاتصاف بهذه الصفات.

* وأن على الدعاة إلى الله أن يفـصلوا للناس مفهـوم هذه الدرجات العُلَى عند الله وهى:

ـ بشارة الله لهم بما يسرهم ويسعدهم فى الدنيا والآخرة.

ـ ورحمة من الله لهم تقتضى مغفرة ذنوبهم والتجاوز عن سيئاتهم.

ـ ورضوان من الله عليهم يعطيـهم من نعمه ما يرضيـهم وما يزيد على ذلك مما يدل على رضا الله تعالى عنهم.

ـ وجنات سبع يتنعمون فيها بما شاء الله لهم من نعيم مقيم.

ـ وخلود فى هذه الجنات لا خـروج منهـا ولا مـوت فيـهـا ولا نعمـة تفـوتهم أو يفوتونها.

* وإن على الدعاة إلى الله أن يوضحـوا للناس أن تلك الدرجات هى الأجر العظيم الذى أعده الله تعالى لعباده المؤمنين.

* ولابد أن يوجِّه الدعاة إلى الله الناس إلى المقارنة بين هذا الأجر العظيم، وبين ما ينتهي إليه المشركون من شهادتهم على أنفسهم بالكفر وحبوط أعمالهم.

إن هذه المقارنة تدعو عقلاء المشركين إلى مغادرة أرض الشرك وساحته، والإقبال على أرض الإيمان وباحته، ليكونوا من المهاجرين المجاهدين في سبيل أن فيكون لهم هذا الأجر العظيم.

٦ ـ والدعاة إلى الله مطالبون بأن يقروا للناس هذه الحقائق ويقنعوهم بها، لتتحول هذه الحقائق في نفسوهم إلى إيمان ويقين، وفي جوارحهم إلى عمل وسلوك.

ذلك من صميم عمل الدعاة إلى الله والمتحركين بالإسلام في الناس والآفاق والذين يربون الناس تربية إسلامية، بحيث لو لم تصبح هذه الحقائق واضحة ناصحة ناصعة فإن خللاً قد وقع في عمل الدعاة والحركين والتربويين، وما أحوج العاملين في هذه المجالات إلى عدم الإخلال بواجباتهم، وإلا حوسبوا عن أنفسهم مقصرين، وحوسبوا على أنهم أوتوا الكتاب فلم يبينوه للناس.

٤ ـ الآيات الكريمة من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الثامنة والعشرين

المفاصلة الدقيقة بين الإيمان والشرك والنفاق

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا آباءَكُمْ وإخْوانَكُمْ أوْلياءَ إن اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإيمان وَمَن يَتَوَلَّهُم مّنكُمْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ (٢٣) قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مّنَ اللَّه وَرَسُوله وَجهَادٍ في سَبيله فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتيَ اللَّهُ بأَمْره وَاللَّهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الْفَاسقينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ في مَوَاطنَ كَثيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْن عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبرينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكينَتَهُ عَلَىٰ رَسُوله وَعَلَى الْمُؤْمنينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذينَ كَفَرُوا وَذَلكَ جَزَاءُ الْكَافرينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ منْ بَعْد ذَلكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامهمْ هَذَا وَإنْ خفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللَّهُ من فَضْله إن شَاءَ إنَّ اللَّهَ عَليمٌ حَكيمٌ (٢٨)﴾ [٢٣ ـ ٢٨].

شرح الآيات الكريمة وتفسيرها

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن نهى المؤمنين عن اتخاذ الاولياء من الكافرين حتى لو كانوا آباء أو أبناء أو إخوة، وتؤكد أنه ما ينبغى لمؤمن أن يكون أهله وذووا قرباه أو ماله أو تجارته أو مسكنه أحب إليه من الله ورسوله وجهاد فى سبيله.

وتذكر المؤمنين بنصر الله تعالى لهم يوم حنين بعد أن خسروا الجولة الاولى، فأيدهم الله وأنزل السكينة عليهم، وهزم أعداءهم.

وتخبرهم الآيات بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد لا حاجِّين ولا متاجرين، ويوصيهم بألا يخافوا الفقر لهذه المقاطعة.

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا آباءَكُمْ وإخْوانَكُمْ أوْلياءَ إن اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإيمان وَمَن يَتَوَلَّهُم مّنكُمْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ﴾.

ـ هذه الآية الكريمة خطاب للمؤمنين كافة فى عهد النبى ﷺ وفى كل زمان يأتى بعده وتطالبهم بقطع ما بينهم وبين الكافرين إلى يوم القيامة.

- «والولاية» هنا الصداقة والنصر والحب، وقد نهى الله المؤمنين عن موالاة أهل الكتاب والمشركين وكل كافر فى آيات عديدة من القرآن الكريم.

- وذكر الآباء والإخوان بالتحديد لأنهم الأقرب إذ لا قرابة أقوى من قرابتهم.

فلابد من قطع الولاية معهم ماداموا يختارون الكفر على الإيمان. ومن لم يقطع هذه الولاية فقد ظلم نفسه بمخالفته لأمر الله.

- وقال بعض العلماء: إن الآية تخاطب المؤمنين الذين بقوا بمكة ولم يهاجروا.

قال الطبرى والواحدى: إنهم لما أمروا بالهجرة قال العباس يبرر عدم هجرته: أنا أسقى الحاج، وقال طلحة أخو بنى عبد الدار: أنا صاحب الكعبة، فلا نهاجر.

وتعلق بعض الأزواج والأبناء ببعض المؤمنين قائلين لهم: «أتضيعوننا» فرقُّوا لهم وجلسوا معهم، فنزلت هذه الآية.

- غير أن المنهى عنه الموالاة - كما أوضحنا - وليس الصلة والبر، لأن الصلة والبر بالاقارب والأرحام مطلب شرعى حتى مع اختلاف الدين، لما رواه البخارى بسنده عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما، قالت قُلتُ: يا رسول الله إن أمى قدمت علىّ راغبة وهى مشركة أفاصلها؟ قال: «صلى أمّك».

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

- هذه الآية الكريمة نزلت فى الذين تخلفوا عن الهجرة مؤثرين الاستجابة لنداء ذويهم من آباء وأبناء وإخوان وأزواج وعشيرة، وخوفا على أموالهم وتجاراتهم ومساكنهم التى يرضونها، فجعلوا بذلك الموقف منهم - هذه العلائق أحب إليهم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله.

نزلت هذه الآية فى هؤلاء، بينما نزلت الآية السابقة فى الذين نهوا عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان.

والمعنى: أن الآية الأولى نهى عن الموالاة، والنهى واجب الاجتناب لما نهى عنه.

وهذه الآية تهديد لمن آثر هذه العلائق على الله ورسوله والجهاد فى سبيله حتى يأتى الله بعقوبة عاجلة أو آجلة.

- وقد جمعت هذه الآية أنواعًا من العلاقات وأصنافا من المَحَابّ التى من شأنها أن تألفها النفوس وتقبل عليها وترغب فى القرب منها أو الخوف عليها.

والأصل أن ثبات الإيمان وقوته والإخلاص فيه يقتضى هجر هذه العلاقات والمَحَابّ من أجل الدين، فمن لم يفعل ذلك. وآثر هذه العلاقات على محبة الله ورسوله أفضى به ذلك إلى موالاة الذين يستحبون الكفر على الإيمان، وإلى القعود عن الجهاد فى سبيل الله، وكل ذلك مما حرّم الله على المؤمنين.

روى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

* وفى هذه الآية الكريمة ذَكَر الله تعالى الأمور الداعية إلى مخالطة ولكفار وهى أربعة:

- مخالطة الأقارب وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة.

- والميل إلى إمساك الأموال المكتسبة.

- والرغبة فى تحصيل الأموال بالتجارة.

- والرغبة فى المساكن والبناء.

ثم أوضح أن رعاية الدين وأوامره ونواهيه خير من رعاية هذه الأمور، وإلا وقع المخالف فى الفسق وهو الخروج عن أوامر الله تعالى ونواهيه، وخرج من زمرة من يهديهم الله تعالى، لأنه سبحانه لا يهدى القوم الفاسقين.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* وهذه الآيات الكريمة تعقيب على الآيتين الكريمتين اللتين قبل هذه الآيات، ففى

الآيتين السابقتين أمرٌ بالإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن الطيبة، الإعراض عن كل ذلك من أجل الدين.

ـ ولما كان هذا الأمر يشق كثيرًا على بعض النفوس والقلوب: ذكر الله تعالى فى هذه الآيات ما يدل على أن مَنْ ترك الدنيا من أجل الدين فإنه يصل إيضا إلى مطلوبه من الدنيا، ومن لم يلتزم بذلك ضيع الدين والدنيا معا.

وما أخيب الذى يضيع دينه من أجل دنياه، إنه سيسخر الاثنين معا، فقد روى الحاكم بسنده عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من جعل الهموم همًّا واحدًا، هَمَّ المعاد، كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك».

* وقد ضرب الله تعالى لذلك مثلاً، بما جرى للمسلمين يوم حُنَيْن، فقد خرج المسلمون إلى هذه المعركة قوة عَدَدِيَّة لم يبلغها جيش لهم من قبل إذ كانوا اثنى عشر ألف مقاتل، فأعجب ذلك بعضهم فقال ـ كما فى بعض كتب التاريخ الإسلامى: لن نُغْلَبَ اليوم من قلة، وما أظنه قال ذلك إلا فرحا بهذا الجيش الكبير، ولا أتصور أنه قاله غرورا أو اعتمادا على الجيش وكثرته لا على الله ونصره، ولكن هذه المقالة ما كان ينبغى لها أن تقال على كل حال.

* وقد لقَّن الله المسلمين درسا لا ينسى إذ دارت عليهم دائرة الحرب فى الجولة الاولى ففر من فرَّ وثبت من ثبت، ليزيل من أنفسهم مظنة الاعتماد على غير الله، ومظنة الثقة المطلقة فى الأسباب.

* والآية الكريمة: ﴿نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ دعوة للمسلمين أن يكونوا دائما مع الله ومع الحق والدين مضحين بأسباب الدنيا ليربحوا الدين والدنيا معا.

* وقد أوضح الرسول ﷺ هذا المعنى فيما رواه الترمذى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همه ـ أى الدين والتزام أمر الله ونهيه ومنهجه ـ جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

* ومعركة حنين من المعارك الإسلامية التى غَنِيَتْ بالقيم التربوية ـ كما سنوضح ذلك

ونحن نتحدث عن المواقف التروية العامة والخاصة بالدعوة والمركزة فى هذه الآيات بعد قليل.

وكان من قصة هذه المعركة أن الرسول ﷺ لمَّا فتح الله عليه مكة اتجه لقتال هوازن وثقيف، إذ كانوا على الشرك، وكانوا ممالئين لمشركى قريش ضد النبى ﷺ فى مواطن عديدة، وكانوا قد جمعوا جموعهم قائلين ـ بعد فتح مكة ـ: إن محمدا قد فرغ لنا فلابد أن نغزوه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم على ذلك واستعدوا وساروا لملاقاة الرسول ﷺ، فلاقاهم النبى ﷺ فى مكان يسمى «أوطاس».

وكانت الجولة الأولى للمشركين على المسلمين، ففر كثير من المسلمين حين كمن لهم بعض جيش هوازن وثقيف وأمطروا المسلمين بنبالهم ففرَّ بعض المسلمين وانهزموا، لكن رسول الله ﷺ ثبت ومعة ثلَّة من المؤمنين منهم عمه العباس وعلىٌّ بن أبى طالب وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وولده وأخوه وبعض الصحابة رضوان الله عليهم، فأمر النبى ﷺ عمه العباس أن ينادى فى القوم ـ وكان جهير الصوت ـ فنادى: يا أهل السَّمُرة ـ وهى الشجرة التى بايعوا النبى ﷺ عندها يوم الحديبية ـ يا أصحاب سورة البقرة، فجاء المسلمون، وأخذ رسول الله ﷺ كفًا من الحصى ورمى بها المشركين قائلاً: «شاهت الوجوه» فما زال أمرهم مدبرا، وحدهم كليلا حتى هزمهم الله تعالى، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا من الملائكة وعذب الذين كفروا بقتلهم وأسرهم وذلك جزاء الكافرين.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والمعنى أنه من بعد ماهيأ الله النصر للمؤمنين فى مكة وحنين ومواطن كثيرة، وقمع الشرك والمشركين، أعطى المشركين فرصة قوية ليهتدوا إلى الدخول فى الإسلام، وعندئذ يغفر الله لهم ما قاموا به من عمل سيِّئ لأن الإسلام يجب ما قبله، والله سبحانه غفور رحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ـ هذه الآية الكريمة تعليل لإبعاد المشركين من المسجد الحرام، وقد علل هذا الإبعاد لصفتين فيهم:

أولاهما: أنهم مشركون، وكل مشرك شاهد على نفسه بالكفر.

والأخرى: أنهم نجس ونجاستهم معنوية وهى شركهم

ومن كانت فيه هاتان الصفتان فهومُحَقَّر مذموم مبعد عن المؤمنين شاء أو أبى، والمقصود بهذا الإبعاد هو إبعادهم عن المسجد الحرام بعد عامهم هذا الذى بُلِّغوا فيه بالبراءة منهم وبوجوب قتالهم بعد الأشهر الحرم أو انتهاء مدة عهدهم ومنعهم من عمارة المسجد الحرام.

وقد كان المشركون قبل ذلك يَفدون إلى المسجد الحرام فينفقون ويقدمون الهَدْى.

«والعيلة» الاحتياج والفقر الذى قد يخطر فى نفوسهم من منعهم المشركين من المسجد الحرام أن يصيبهم الفقر.

وقد هدى الله المسلمين وهيأ لغناهم أسبابا منها:

- أنه سبحانه هدى أهل تبالة للإسلام.

- وهدى أهل جُرَش من بلاد اليمن، وكانت بلادهم بلاد خصب وزرع فحملوا إلى مكة الطعام والميرة.

- وهدى إلى الإسلام أهل جدة، وبلدهم مرفأ ترد إليه الأقوات من مصر وغيرهما فحملوا الطعام إلى مكة.

- وأسلم أهل صنعاء من اليمين وصنعاء مرفأ تأتيه السفن من أقاليم كثيرة كالهند وغيرها، فحملوا الميرة والطعام إلى مكة.

هذا التعبير فتح لباب الرجاء مع التضرع إلى الله فى تحقيق وعده.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

يعلم ما لكم من المنافع؛ من وفادة القبائل فيغنيكم عن وفادة المشركين بوسائل أخرى هو أعلم بها وفيها من الحكمة ما فيها.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

أولا: يتعلم المسلمون من الآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين دروسا نافعة جليلة، نذكر منها ما يوفق الله فيما يلى:

١ - أن الأصل فى الولاية والنصرة والثقة والاطمئنان والتعاون على الخير أن يكون ذلك بين المؤمنين بعضهم مع بعض: لقوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [التوبة: ٧١].

أما الولاية بين المؤمنين والكافرين فمنهى عنها فى عديد من آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ٢٨] وقوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...**﴾ [النساء: ١٤٤]. وغيرهما من الآيات الكريمة.

ثم هذه الآية التى تنهى عن اتخاذ الأولياء من المشركين حتى لو كانوا آباءً أو إخوانًا ماداموا على الكفر. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾.

* ولا يبرر هذه الولاية بين مؤمن وكافر أى نوع من القرابة حتى لو كانت أبوة أو بنوة.

ويتعلم المسلمون من هذا النهى أن الولاء للدين أولاً ثم للمؤمنين بعد ذلك، وهذا يعزز العلاقة والثقة بين المؤمنين، ويقوى الانتماء إلى الدين الخاتم.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ أن مخالفة أمر الله فى هذا المجال ظلم، بل وفى غيره من المجالات.

والظلم حَرَّمه الله على نفسه وجعله بين عباده حراما، والظلم هو تجاوز الحق والعدل، وحسب الظلم بشاعة أن الشرك ظلم كما يفهم من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣]. وأن الله تعالى جعل لعنته على الظالمين، كما فى قوله تعالى: ﴿**أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [هود: ١٨].

* ومن والى المشركين ـ أو غير المؤمنين ـ فقد ظَلَمَ أنواعا من الظلم:

ـ ظلم نفسه أولا إذ عرَّضها لعقاب الله.

ـ وظلم ربه إذ خالف أمره ونهيه.

ـ وظلم إخوانه المؤمنين إذ تخلى عن موالاتهم إلى موالاة أعدائهم.

* وقد توعد الله كل ظالم ووصفه بأنه من غير المؤمنين، كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾ المجادلة: ٢٢].

بل توعد الله مَنْ والى غير الله ورسوله والمؤمنين، وتربص بهم أن يأتى بأمر يسؤوهم، لأنهم بهذه الموالاة لغير المؤمنين قد فسقوا: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

* ويتعلم المسلمون أن حب الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله لا ينبغى أن يوازيه حب لأحد مهما كان قريبا ولا لشىء مهما كان عزيزًا أو مبهجًا، وهذا هو المعيار الدقيق للإيمان، والدليل على نصاعته وخلوصه من الشوائب والأغيار، وأن كل شائبة تشوب هذا الحب تضعف من إيمان المؤمن حتى تزيله.

٣ ـ وأن حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله لا يجوز أن يعدلها حب الناس مهما كانت قراباتهم، ولا حب أشياء مهما كانت غالية أو أثيرة أو نافعة؛ لأن حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله هو صميم الإيمان ودليل الإسلام والإحسان.

وأن الجهاد فى سبيل الله بعطفه على حب الله ورسوله، ترتفع مكانته فى أركان الإسلام وضرورته فى كل زمن وكل مجتمع يعيشه المسلمون، وأن المسلمين بغير جهاد فى سبيل الله لا وَزْنَ لهم ولا تأثير، وأنهم بتضييع الجهاد يضيعون ويصبحون من الضعف بحيث يطمع فيهم عدوهم، وتتفرق كلمتهم، وذلك أن الأمة الإسلامية أمة جهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، ولتسود بناءً على ذلك قِيَمُ العدل والشورى وتحقيق العدالة الاجتماعية، وإعلاء شأن الإنسان فى ظل نظام اجتماعى يقوم

على الإيمان ويهيىء للناس برحمته وعدله أن يدخلوا فى دين الله أفواجا، وأن يتركوا المعاصى إلى الطاعات وأن يؤثروا الحق على الباطل، والهدى على الحيرة والضلال.

ثانيا: يتعلم المسلمون من الآيات من الخامسة والعشرين إلى الثامنة والعشرين دروسًا أخرى أكثر نفعًا لهم فى دينهم ودنياهم، ومن هذه الدروس:

١ - أنّ الله تعالى قد مَنَّ على المسلمين بأن نصرهم على أهل الشرك فى مواطن كثيرة على عهد رسول الله ﷺ، فى كل غزواته وسراياه حتى تلك التى شاء الله للمسلمين فيها أن ينهزموا ليتعلموا، فإنها تضمنت دروسًا عظيمة بل نصرًا عظيمًا، وفقهًا عميقًا إذ أدركوا أن مجرد مخالفة بسيطة لما قاله الرسول ﷺ لها ثمن فادح ويترتب عليها هزيمة وخسائر مادية كبيرة، فقد خالف الرماة الذين كانوا يحمون ظهور المسلمين فى معركة أُحُد أمر رسول الله فتركوا مواقعهم عندما رأوا الجولة الأولى للمسلمين، فكانت ثغرة أُتِيَ المسلمون من قبلها، فاستوعب المسلمون هذا الدرس، فكان أن انتصروا فيما بعد على أنفسهم وعلى شهواتهم ورغباتهم فى أعراض الحياة الدنيا.

وبعض العلماء يقولون: إن المواطن الكثيرة التى نصر الله فيها المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ كانت ثمانين موطنًا، وسردوها، وذلك معناه أن الله تعالى قد أكثر من نصر المؤمنين على أعدائهم لتكون كلمة الله هى العليا، وليستطيع هؤلاء المؤمنون - وإن كانوا قلة فى العَدَد والعُدَّة، أن يبلغوا كلمة الله ودعوته إلى كل من يمكن أن تبلغهم من الناس.

٢ - وأن نصر المؤمنين فى حنين - وإن بدأ بهزيمة فى الجولة الأولى - إلا أنه عاد على المسلمين بخير كثير، وأبرز هذا الخير أنه بعد نصر حنين لم يعد فى جزيرة العرب قوة شرك يمكن أن تناوئ الإسلام والمسلمين، وإنما طفق الناس بعد هذا النصر يدخلون فى دين الله أفواجا.

وبهذا النصر حقق المسلمون - كما ذكرت الآية الكريمة - مغانم كثيرة، لم يغنم المسلمون مثلها من قبل، فكان هذا النصر تصديقا لقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

* وكان هذا النصر درسا تعلم المسلمون منه ألا ييأسوا من روح الله ورحمته، مهما

ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وهزموا فى أول الأمر، ومهما ضاقت عليهم أنفسهم، بما زينت لهم شياطين الإنس والجن، لأن المؤمن يجب أن يكون رجّاعًا إلى الحق يثوب إليه فى كل حين، عندئذ يجد سكينة الله تنزل عليه فتملأ نفسه اطمئنانا وثقة وتدفعه نحو المضى فى طريق الحق لا يخشى إلا الله تعالى.

٣ ـ وأن نداء الله تعالى على المؤمنين بوجوب منع المشركين من المسجد الحرام بل من القرب منه، لأنهم نجس يخشى على بيوت الله منهم ومن سيىء أعمالهم.

ويتعلم المسلمون من ذلك أن بيوت الله يجب أن تصان عن المشركين لأنه سبحانه أمر بذلك.

وأن المشركين لا يجوز لهم أن يعمروا بيوت الله لأنهم نجس وأموالهم نجس ونواياهم نجسة.

* ومهما تعلل بعض المسلمين بأن حرمان المشركين من القرب من بيوت الله سوف يحرم المسلمين بعض المنافع الدنيوية كالتجارة أو السياحة بلغتنا اليوم، فإن هذه التّعلاّت ما ينبغى أن تقبل بحال، لأن الله تعالى سيعوض المسلمين بأحسن مما فقدوا من منع المشركين من الاقتراب من بيوت الله كما حدث فى عهد الرسول ﷺ مما بيناه آنفا، وصدق الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ. . .﴾.

ـ المواقف التربوية فى هذه الآيات فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الست دروسا عظيمة تدفع بالدعوة إلى الله إلى مداها وتزيل عنها من الشوائب ما يمكن أن يعلق بها وهى تواجه التحدى والتعنت، وتتيح للحركة بالإسلام طريقا لاحبًا واضح المعالم ليس مفروشًا بالورد ولا مُذَلّلاً بحيث يسهل السعى فيه، ولكن الطريق المفضى إلى الغاية النبيلة التى تستهدفها الدعوة والحركة، وهى التمكين لدين الله فى الأرض.

ومن ذلك ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

أولا: يتعلم الدعاة والحركيون من الآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين:

١ ـ أن توجيه النداء للذين آمنوا فى الآية الأولى من هاتين الآيتين فيه إشادة بالمؤمنين وإيمانهم، وبجدارتهم فى الانتهاء عما نهى الله عنه، مهما كان المنهى عنه صعبا فى الظاهر ـ لأن الله لا يشق على أحد فى تكليف ـ لما فيه من وجوب قطع علاقات المؤمنين بغير المؤمنين حتى لو كانوا آباءً أو إخوانا، فشأن المؤمن أن يستجيب للتكاليف الشرعية وأن يقبل عليها مؤمنا بأن صالح الدين والدنيا فى الالتزام بها.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يعزِّزوا هذه المعانى فى نفوس المؤمنين وأن يوضحوا لهم أثر ذلك فى الحاضر وفى المستقبل وفى نجاح الدعوة والحركة، والوصول إلى النصر والتمكين.

٢ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يبينوا للناس أن الاصل فى الولاء أن يكون لله ولرسوله ولصالحى المؤمنين.

* وأن الأخوة فى الدين هى التى تدعم هذا الولاء وتقويه وأن هذه الأخوة تستوجب الولاء والنصرة، ويترتب عليها حقوق وواجبات.

* وفى هذا دعم للعمل من أجل الإسلام، لأن هذا العمل لا ينجح ولا يثمر إلا إن عزَّزته وحدة الهدف وتعاون المؤمنين فيما بينهم على البر والتقوى، وهذا لا يكون إلا بالولاء فيما بينهم، مع اعتبار ولاء المؤمن لغير المؤمن معصية لله تعالى يستحق صاحبها العقاب.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بأن تَوَلِّى غير المؤمنين للذين يستحبون الكفر على الإيمان ظلم يحاسب الله فاعله حسابا شديدا، بل إن ابن عباس رضى الله عنهما فسر هذه الآية بأن من يتولى غير المؤمنين فهو مشرك مثلهم.

٣ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للمؤمنين أن الرباط الذى يربط بعضهم ببعض هو رباط العقيدة وهو أقوى من رابطة الدم، وأن الاصل فى رابطة العقيدة ـ أى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ـ أن تضم المؤمنين جميعا من مختلف أقطار الأرض ومن متعدد الألوان والأجناس والألسنة، أما رابطة الأسرة فاضيق من ذلك بكثير.

* وأنه من أجل هذه العقيدة ورابطتها الوثيقة بين المؤمنين يجب التضحية بكل رابطة لا تقوم على الإيمان، إذ لا جدوى منها ولا بركة فيها، بل فيها الخطأ والمعصية وما يغضب الله تعالى ومعنى ذلك بكل يقين أن جنسية المسلم وكيانه كله هو عقيدته.

٤ ـ ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من الآية الكريمة الرابعة والعشرين ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١ ـ أنه ما ينبغى أن يكون حب شىء فى قلب المؤمن معادلا لحب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله، لأن تلك العناصر هى التى يقوم عليها بناء الدولة المسلمة، فمن أحب الله أطاعه فيما أمر وفيما نهى وهو سبحانه لا يأمر ولا ينهى إلا بما يحقق مصلحة الإنسان فى دنياه وآخرته، ومن أحب رسوله ﷺ التزم بشريعته فى حياته، فما تفوته مصلحة ولا تقترب منه مضرَّة، ومن أحب الجهاد فى سبيل الله فقد تعهد أن يعمل ما وسعه من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وإذا علت كلمة الله أمِن الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم وأهل الكتاب منهم، أَمِنُوا من الفقر ومن الجهل ومن الظلم والعدوان، وأمنوا من الإحساس المتزايد لدى معظم الناس اليوم بأنهم مهمشون يكال لهم بكيلين ويوزن لهم بميزانين ويفرق بينهم بألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وأديانهم، على الرغم مما تدعيه هيئة الأمم المتحدة وسائر المنظمات العالمية التابعة لها.

* من أحب الله ورسوله والجهاد فى سبيله، فقد أمِن من كل هذا وأمَّن الناس المحيطين به والبعيدين عنه من كل هذه المخاوف التى تنتكس بالإنسان إلى عهود الهمجية وسطوة الظُّفُر والنَّاب أو سطوة القنابل النووية والهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات وغيرها من وسائل دمار الضعفاء والملونين ومن لهم دين يدينون به وبخاصةٍ إذا كان هذا الدين هو الإسلام!!!

* إن الدعاة إلى الله عليهم أن يذكروا الناس بأن من أحب شيئا أو أحدا حبا يعادل حب الله ورسوله وجهاد فى سبيله أن يتربص بنفسه، وأن يتوقع شرا يعكر هذه العلاقة بالله ورسوله والجهاد فى سبيله.

٢ ـ وأن المؤمن الصحيح الإيمان المتكامل الإسلام يجب أن يكون الجهاد فى سبيل الله أحب إليه من راحة بدنه وشهوة بطنه وفرجه، وأحب إليه من أبيه وأمه وبنيه وإخوانه

وزوجه وعشيرته وماله وعقاره وسكنه الطيب.

* وعلى الدعـاة إلى الله أن يبـصـروا المؤمنين بأن الذى يصـرفـهم عن ذلك هو الشيطان، ولا عجب فى ذلك فـالشيطان هو العدو المبين للإنسان، فـمن تنبه للصوارف عن هذا الحب لله ورسوله وجهاد فى سبيله وعلـم أنها من وسوسة الشيطان استطاع أن ينصرف عن ذلك إذا حـارب شيطانه وعصـاه وألجم فاه وأبطل همـزه ولمزه، وحال بينه وبين أن يضل بهذه الوسوسة.

روى النسائى بسنده عن سَبْرة بن أبى الفاكه رضى الله عنـه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه؛ فقعد له بطريق الإسلام فقال تُسْلم وتذَرُ دينك ودينَ آبائك وآباء آبائك؟ فعصـاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فـقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهـاجر كمثل الفرس فى الطِّوَل، فعصـاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهـاد فقال: تجاهد؟ فهو جهد النفس والمال فتـقاتل فتُقْتلَ، فتُنكح المرأةُ ويُقَسَّم المال، فعصـاه فجاهد، فمن فعل ذلك كـان حقًا على الله أن يدخله الجنة، ومن قُتِل كان حقـا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حـقا على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة».

ورواه أحمد وابن حبان بسنديهما.

٣ - وعلى الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بأن الله تعالى ما كلفهم فى هذا الحب له ولرسوله والجهاد فى سبيله بما لا يطيـقون، لأنه سبحانه أودع فى الناس قدرات وطاقات هائلة تمكنهم مـن التأقلم مع كـل ما أمـر الله به أو نهى عنه، وإن ذلك فى أول الأمـر صعب على بعض النفوس التى لا يتعمق أصـحابها فى كلمة الله فى التكاليف، وعلمه المحيط بكل شىء وبخاصةً بنفس الإنسان وبالشيطان وبما يوسوس به ويزينه من باطل.

* ومن أجل ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يتخـلى عن كثير من مطالب البدن، ومن مطالب الحياة الأسرية والاجـتماعية طالما كانت هذه المطالب مما أمـر الله بتركها أو نَدَب إليها.

إن الإنسـان قادر على ذلك ما دام قد عقد العزم على الاستجابة لأمر الله ونهيه، وقد آثر ما عند الله على هوى نفسـه وحاجاته الاجتماعية.

والإنسان الذى يفعل هذا هو منَ النوع الذى يحبه الله تعالى ويعلى قدره: يوم تصحح الموازين ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ثانيا: يتعلم الدعاة إلى الله من الآيات من الآية الخامسة والعشرين إلى الثامنة والعشرين دروسا فى تذكر نعم الله على عباده المؤمنين ووجوب شكره سبحانه على هذه النعم، وفى رحمته وقبوله التوبة، ووعده للمؤمنين بتعويضهم عما يتصورون أنه خسارة مادية لهم عندما يستجيبون لأى أمر من أمره.

ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

١ ـ إن نعم الله تعالى على عباده كثيرة فى الماضى والحاضر وفى المستقبل كذلك، فما دام على الأرض عباد الله يتقونه ويفعلون ما يؤمرون فإن نعمه عليهم لن تنقطع.

* ومن أهم النعم التى ينبغى أن يتذكرها المؤمنون؛ ما مَنَّ به عليهم من تحقيق النصر لهم فى معارك عديدة ومواطن كثيرة، وبخاصة يوم «حُنين» إذ وقعت بهم الهزيمة أول النهار فتداركتهم نعمة الله ورحمته فانتصروا منتصف النهار.

إن على المؤمنين أن يتذكروا تلك النعمة كلما وجدوا أنفسهم معرضين لأن يواجهوا ثقيفا وهوازن الجديدتين، وأن يوقنوا بأن نصر الله لهم قد يحدث فى هذه المعارك التى يخوضونها لكن هذا النصر لا يكتبه الله إلا لمن استوفى شروطه من عباده.

وهذه الشروط مستطاعة، وهى:

ـ إخلاص النية وصدق التوجه إلى الله فى هذا الجهاد، أو أى عمل يقوم به المؤمن من أجل هذا الدين.

ـ والتجرد من الأغراض الشخصية التى قد تصاحب الجهاد وتلبس على المجاهدين كطلب الشهرة والجاه والمغانم والأسلاب.

ـ والثبات على الحق والتضحية بالمال والجهد والوقت والنفس فى سبيل إحقاق هذا الحق وإقراره فى الناس، فذلك هدف أى جهاد فى سبيل الله تعالى، وهو الترجمة الصحيحة لقولنا: يجاهد لتكون كلمة الله هى العليا، وهو عندئذ فى سبيل الله.

ـ والطاعة لقيادته، والإقدام على القتال بحماس، ودون أدْنى تردّد فضلا عن التراجع والتماس المعاذير.

وغير ذلك من الشروط المعروفة فى الجهاد [1].

٢ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يركـزوا على الدروس المستفادة من معـركة حنين، التى كانت بُعَيْد الفتح الأعظم فتح مكة الذى كان فى شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة.

وأهم هذه الدروس ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

ـ أن نصـر الله تعالى للمـؤمنين فى فـتح مكة ودخـول الناس فى دين الله أفواجـا، وسمـاحة رسـول الله ﷺ مع أهل مكة حيث قال لـهم، أنتم الطلقاء، وتلك الفـرصة الرائعة التى ملأت صدور المؤمنين فرحًا بفتح مكة التى طردهم منها كفار قريش.

كل هذه المشاعر العمـيقة الجملية السَّارَّة، لم تصرف المؤمنين عـن مواصلة الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمـة الله هى العليا ـ وقد كان يمكن أن يعتبـر الفتح الأعظم فتح مكة آخر المعارك ـ ولكنهم المؤمنون الذين يعلمون أن الجهاد فى سبيل الله مستمر ما دام على ظهر الأرض من يعبد غير الله، وما دام على الأرض من يتربص بالمؤمنين ويحشد لهم ـ كما فعلت هوازن وثقيف حيث جمعوا لحرب المسلمين: بنى جشم وبنى سعد بن بكر، وبعض بنى هلال وبعض بنى عـمرو بن عامر، وعـوف بن عامر، فى تجـمع ـ يذكر بما فعـله مشركـوا قريش يوم جـمعـوا الأحزاب فى غـزوة الخندق ـ هذا التجـمع الثقـفى الهوازنى قاده مالك بن عوف.

وقد أمـرهم قائدهم مالك ـ لأمر قـضاء الله ـ باصطحاب النسـاء والأموال والولدان والشاء والنَّعَم، لأن خطتـه أن يحمس المقاتلين ليـدافعوا عن حريمهم وأمـوالهم بكل ما أوتوا من قوة، وتجمعوا و تحشدوا وتوجهوا لقتال المسلمين فى وادى حنين.

ـ وأن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه كانوا عددًا لم يسبق لهم أن قاتلوا بمثله كثرةً، إذ كانوا اثنى عشر ألفا من المقاتلين، عشرة آلاف منهم من المهاجرين والأنصار، وألفين من الطلقاء الذين أسلموا بعـد فتح مكة فكانوا حديثى عهد بالإسـلام. وقد أعدّ رسول الله

(١) انظر لنا: ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٩٥ هـ - ١٩٩٥ م ففيها المزيد من الحديث عن الجهاد فى سبيل الله.

ﷺ لهذه المعركة من الرجال والسلاح الشيء والكثير، حتى إنه استعار بعض الأسلحة من بعض الذين كانوا لا يزالون على الكفر، مما يدل على جواز ذلك شرعا للمسلمين في معاركهم في المستقبل، وذلك أن السلاح عنصر أساسي في كل معركة، إذ المعركة تقوم على عناصر ثلاثة:

- **خطة** تضعها القيادة بعد استشاره أهل الخبرة والثقة.

- **ورجال** مؤمنين على استعداد للتضحية بكل شيء بل بالموت في سبيل الله لنيل أجر الشهداء.

- **وسلاح** - يدخل فيه كل ما يحتاجه المقاتل في العصر الذي يعيش فيه - ولابد أن يكون هذا السلاح موازيا إن لم يكن أكثر وأفعل من سلاح العدو.

* والسلاح يجب الحصول عليه من كل مصدر له، ويجب أن يكون في متناول المقاتلين، وله كفاءته في كل معركة يخوضها المسلمون إذ تختلف المعارك والميادين وطبيعة الأرض التي تقام فيها المعركة، والسلاح يجب أن يكون ملائمًا لكل هذه الظروف.

- وأنه على الرغم - في هذه المعركة - من كثافة الجند وكثرة السلاح وقوة الاستعداد وتكامله لخوض هذه المعركة، على الرغم من كل ذلك فإنه - بعد درس حنين - لا يجوز لأحد من المؤمنين أن يعتقد أن النصر مرهون بكثرة العَدَد والعتاد فقط، وإنما يحتاج قبل ذلك وبعده إلى توفيق الله عز وجل وطلبه منه، والتضرع إليه إذ النصر من عند الله - وتلك قضية مسلمة في فقه الجهاد في سبيل الله - فإن وقع من بعض المسلمين خطأ في ذلك، فقال: مثلاً لن نغلب اليوم من قلة أو من ندرة أسلحة أو من تصور خطة فيمكن ألا يكون نصر وإنما تأتي الهزيمة لتربي وتعلم، وتجرد النية من كل ما عدا الله.

* ولعل من يقول ذلك أو يتصوره اليوم يستنبطه من قول الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجة بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأكثم بن الجون الخزاعي: يا أكثم اغزُ مع غير قومك يحسن خُلُقك، وتكرَّم على رفاقك، يا أكثم خير الرفقاء أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة». غير أن الحديث الشريف يضع الركائز التي يجب أن تتوفر لمن يقاتل في

سبيل الله ويشير إلى أسباب لابد أن تؤخذ لكن ليس فيه ما يشير إلى أن النصر مرهون بتلك الأسباب، لأن النصر فى حقيقته من عند الله، وبالاعتماد عليه وطلبه منه بعد الأخذ بكل الأسباب المتاحة.

- ومن دروس معركة حنين التى يجب أن ينبه الدعاة إلى الله الناس إليها، أن الثبات فى المعركة وصدق اللقاء مع العدو هو أصل من أصول الجهاد فى سبيل الله.

فقد فوجىء المسلمون بكمين الأعداء ونبالهم الكثيفة، فَفَرَّ بعضهم ولم يثبت، ولكن ثبت النبى ﷺ ومن معه من الصحابة رضوان الله عليهم، فأمر الرسول ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب أن ينادى فى الناس - وكان العباس جهير الصوت -: يا أصحاب الشجرة - أى شجرة بيعة الرضوان فى الحديبية - وكانوا بايعوا النبى ﷺ على الموت - يا أصحاب سورة البقرة.

والرسول ﷺ يقول: إلىّ عباد الله إلىّ، أنا رسول الله، أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، حتى رجع الناس، وأمرهم النبى ﷺ بصدق الحملة على الأعداء فصدقوها، فكان النصر على الأعداء منحةً من الله تعالى ونعمة أنعمها عليهم، واتبع المسلمون المشركين قتلا وأسرًا، وما تراجعوا أو وهنوا حتى انتهت المعركة بالنصر العظيم.

حدث ذلك النصر فى نهاية المعركة مع أن أول المعركة كان هزيمة للمسلمين أدت إلى فرار كثير منهم، حيث ضاقت عليهم الأرض وهى رحبة وضاقت عليهم أنفسهم وهى أنفس مؤمنة، لأنهم تصوروا أنهم بكثرتهم سوف ينتصرون!!!

وكان هذا هو الدرس العظيم الذى يستفيد منه المسلمون فى كل معركة يخوضونها، الاعتماد على الله والثقة فيه وفى نصره، وطلب النصر منه، والأخذ بالأسباب، والثبات فى المعركة وعدم الوقوع فى جريمة الفرار من المعركة، إذ من كان كتب له الاستشهاد فى معركة فكيف ينجيه الفرار من قضاء الله وقدره؟

إنها وساوس الشياطين التى تأمر بالفحشاء.

وكان من نعم الله على المؤمنين فى هذه المعركة أن تاب عليهم، وعذب المشركين بأيدى المؤمنين، وأنزل عليهم السكنية جنودًا من الملائكة لم يروها ولكن رأوا أثرها،

فكان النصر العظيم.

٣ ـ ومما يجب أن ينبه إليه الدعاة إلى الله أن المؤمنين لا يجوز لهم أن يقلدوا غير المؤمنين مهما بدت عادات غير المؤمنين نافعة أو مفيدة، لأن المؤمنين يحيط بهم الوحى والرسول المعصوم ﷺ.

ومهما كان ما يفعله غير المؤمنين من عادة صغرتْ أو كبرتْ حَقُرتْ أو كَبَرت، فذلك هو ما وجه إليه رسول الله ﷺ فى تلك المعركة، فقد روى الترمذى بسنده عن أبى قتادة الحارث بن مالك رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ـ ونحن حديثوا عهد بالجاهلية ـ فسرنا معه إلى حنين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة ـ أو سدرة خضراء ـ [1] يقال لها: ذات أنواط [2]، يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يومًا.

فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر. الله أكبر قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، إنها لسنن، لتركبن سُنَن مَن قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة» [3].

وفى رواية: «حتى إنهم لو دخلوا حجر ضَبّ لدخلتموه» [4]. فالمؤمن لا يقلد سواه من غير المؤمنين وبخاصة فى هذه الوثنيات وإنما يصدر فى كل عمله عما أمره به الله تعالى، وما بينه له رسول الله ﷺ.

وهذا درس تربوى عميق جاء من ظروف معركة حنين.

٤ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يستوعبوا ما جاء فى معركة حنين من دروس ـ وأنصح

---

(١) السدرة: شجرة التين.

(٢) النياط: جمع نوط وهو حبل أو ما يشبهه يُعلق به الشىء، والمعنى أن هذه السدرة كانوا يعلقون بها أسلحتهم تبركاً بذلك.

(٣) القذة: ريشة الطائر كالنسر والصقر بعد تسويتها وإعدادها لتركب فى السهم، والحديث الشريف يضرب مثلاً فى تساوى الشيئين وعدم تفاوتها.

(٤) الضَّب: حيوان من جنس الزواحف يكثر فى صحارى الأقطار العربية.

بقراءتهـا فى سيرة ابن هشام أو فى كـتاب: سُبُل الهدى والرشاد فى سـيرة خير العـباد للإمام الصالحى الشامى رحمه الله (ت ٩٤٢ هـ) وهو من أجمع كتب السيرة النبوية وما يستغنى عن اقتنائه داعية إلى الله أو عامل فى الحركة الإسلامية أو مشغول بقضايا التربية الإسلامية.

ومن هذه الدروس مـا دعا به رسـول الله ﷺ ربه وهو فى هذه المعركـة، ليحـفظوه ويرددوه فى كل موقف مشابه، ففيه الخير والبركة وقضاء الحاجة بإذن الله تعالى.

فقد روى الإمام أحـمد بسنده عن عبد الله بن مسـعود رضى الله عنه قال: كنت مع رسـول الله ﷺ يوم حنين حين تولى الـناس عنه وبقـيت مـعـه فى ثمـانين رجـلاً من المهاجـرين والأنصار، فقـمنا على أقدامنا ولم نولِّهم الدُّبر، وهم الـذين أنزل الله تعالى عليهم السكيـنة، ورسول الله ﷺ على بغلته لم يمض قُدُمًا فـحادت به بغلته فـمال عن السرج، فـقلت له: ارتفع رفعك الله، فقـال: «ناولنى كفًا من تراب» فناولته، فـضرب وجوههم فامتلأت أعيـنهم ترابا ثم قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم أولاء، قال: «اهتف بهم» فهتـفت بهم فجاءوا سيوفهم بأيمانهم كأنهـا الشهب، وولىَّ المشركون أدبارهم».

وذكر محمد بن عمر الواقدى (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ) [١] قال[٢]: «كان دعاء رسول الله ﷺ حين انكشف عنه الناس ولم يكن مـعه إلا المائة الصابرة: اللهم لك الحـمد وإليك المشتكى وأنت المستـعان فقال له جبريل عليه السـلام: لقد لُقِّنت الكلمات التى لَقَّن الله موسى يوم فلق البحر، وكان البحر أمامه وفرعون خلفه».

ومن هذه الكلمات يتعلم المسلمون دعاء الشدة والحرج، فيلقنون الكلمات التى لقنها الله النبى ﷺ وموسى عليه السلام.

وما أكثـر الشدائد التى يقع فيـها الدعاة إلى الله من أجل الدعوة ومنه أجـل الحركة بالإسلام فى الناس والآفاق، وما أكثر ما يتفرق عن الدعاة إلى الله من لا صبر لهم على

---

(١) أبو عبد الله المدنى من أقدم المؤرخين فى الإسلام ومن أشهرهم ومن حفاظ الحديث ولد بالمدينة، وانتقل إلى العراق سنة ١٨٠ هـ فى أيام الرشيد، ولى القضاء فى بغداد واستمر إلى أن توفى.

(٢) جاء ذلك فى كتابه الشهير: المغازى النبوية، وأشـهر من روى عنه: محمد بن سعـد صاحب كتاب: الطبقات الكبرى، وأكثر كتبه فى التاريخ والفتوحات.

الشدائد ولا على تحدى أعداء الله أعداء الإسلام!!!

وإن من علاج هذه الشدائد وكشف بلواها «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان».

٥ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا أنفسهم ويذكروا الناس أن طاعة الله مفتاح كل نجاح وفلاح فى الدنيا والآخرة، وأن لها حلاوة لا يحس بطعمها إلا الطائعون، ويصاحبها ما لا يشعر به إلا من أوذىَ فى الله بسبب طاعته لله.

وهذا درس من دروس معركة حنين حيث تؤكد الآيات الكريمة أن المسلمين لو أطاعوا الله والرسول وجاهدوا فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، فإن الله تعالى سوف يجعل ثمن هذه الطاعة أمورا خمسة تسرّ المؤمن وتثلج صدره وتشفيه من كل ضيق وهى:

ـ أن الله تعالى سوف ينصر هؤلاء الطائعين على عدوهم.

ـ وأنه سبحانه سوف ينزل عليهم السكينة، فلا يهابون عدوًا ولا تزحرح لهم قدم عن مواطن الصدق التى يقفون فيها.

ـ وأن سبحانه سوف يعذب الذين كفروا بأيدى الذين آمنوا وفى ذلك ما فيه من لذة الإحساس بالنصر، وراحة الإحساس بالقضاء على المشركين.

ـ وأنه سبحانه سوف يتوب ويقبل التوبة من كل مَنْ أخلص النية فتوجه إلى دين الحق، إلى طاعة الله ورسوله، وإن كانت قد بدرت منه بعض المعاصى.

٦ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله ويعلمون الناس، من تدبر قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أمورا على جانب كبير من الأهمية فى مسار الدعوة إلى الله والحركة بدينه وتربية الناس تربية إسلامية نابعة من الكتاب والسنة، ومنها:

ـ أن المشركين نَجَس أى خبثاء فاجرون قذرون غير أعفَّة، ومن كانوا كذلك، وجبت قطيعتهم وإبعادهم عن المسجد الحرام وعن بيوت الله جميعا، ومن تَشَرُّف المؤمنين وشرفهم عند الله طالبهم بذلك وأمرهم به.

- ومهما يتعلل بعض الناس بأن المشركين فى ذلك الوقت كانوا يمثلون فى الجزيرة العربية قوة اقتصادية وحراكا اجتماعيا لا يمكن الاستغناء عنه إلا ويحدث ضيق وتضييق، حيث تتعطل المنافع التجارية، وتتوقف رحلتا الشتاء والصيف وهما بمثابة الرئتين اللتين تتنفس منهما مكة ومن حولها، مهما تعللوا ومهما قالوا فإن ذلك كله - على فرض حدوثه وإن كان لم يحدث وإنما عوض الله المؤمنين بما شاء من أسباب ذكرناها آنفا - فإنه لا يساوى شيئا إذا قورن بما يجب أن يكون فى فصل الشرك عن الإيمان وإبعاد المشركين عن المؤمنين.

والدرس العميق هنا أن من أطاع الله فى امتثال أمره لم يضيع الله عليه مصلحة دنيوية صغيرة أو كبيرة، وإنما يرزقه من حيث لا يحتسب لأنه بهذه الطاعة متوكل على الله، والله تعالى يحب المتوكلين عليه فلا يتركهم.

٧ - ويتعلمون أن الحركة الإسلامية وهى تشق طريقها فى الناس وفى الآفاق يجب أن يكون لها موقف مع من أصرُّوا على البقاء على الشرك فعطلوا عقولهم، ولوَّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون، إن الحركة الإسلامية وهى تقاطع هؤلاء فإنما تقاطع من لا يرجون لله وقارا، وليست قطيعتهم خسارة حركية بحال من الأحوال، لأن الله تعالى أمر بقتلهم وأسرهم وحصارهم والتربص بهم فى الآيات الكريمة السابقة.

* إن هذه القطيعة للشرك والمشركين أمر بقتلهم وأسرهم وحصارهم والتربص بهم فى الآيات الكريمة السابقة.

* إن هذه القطيعة للشرك والمشركين تربى المسلمين على أن يقيموا حاجزا حصينًا بينهم وبين الشرك وأهله.

* إنها تربية قرآنية تجعل المؤمنين فى غنى وترفع عن أن يروا المشركين وهم يمارسون أعمالهم النجسة فتتأذى عيونهم بها وتتأثر أسماعهم بما يقولون وتتأذى قلوبهم بما يحسون به نحو هذا النجس.

* إنها التربية القرآنية التى تقوم على الفصل بين الحق والباطل بكل حسم وصراحة، وبكل قوة وإصرار، وبكل حرب وقتال.

* إنها التربية القرآنية التى لا تسمح للمؤمنين بأن يعجبهم ما عليه المشركون من نعمة

مال وولد فإن ذلك فتنة لهم وعذاب ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥][١].

* إنها التربية القرآنية التى تقول للمؤمنين عندما يبهرهم ما فى أيدى المشركين، إنكم قصرتم أيها المؤمنون فى اتخاذ الأسباب التى تجعلكم أحسن منهم حالا فى كل شيء!!!

٨ ـ ومن دروس هذه الآيات أن يستيقن الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من أن كل الهواجس والمخاوف التى تجعل من بعض المؤمنين أذنابًا وأتباعا للمشركين، أو فى حاجة اقتصادية إليهم هى مجرد هواجس ومخاوف أدَّى إليها ضعف الإيمان ورقّته، وضحالة الفكر وسطحيته، وضلال العقول وضياعها وكل ذلك أنساهم فضل الله على عباده المؤمنين، ذلك الفضل الذى يغنيهم به عما فى أيدى غير المسلمين، ويزرع فيهم العزَّة والاستغناء والترفع، والاستعانة بالله فى كل ما يتخذون من أسباب.

ولو شعر المسلمون بغير هذا واعتبروا أنفسهم فى شدة لتفوق غير المسلمين عليهم فى أعراض الحياة الدنيا وأسباب السيادة فيها، فما عليهم إلا أن يلجئوا إلى دعاء الأنبياء عليهم السلام الذى لقنهم إياه الله تبارك وتعالى: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان».

يدعون ذلك الدعاء بصدق ويقين بالإجابة، فإذا كل شكوى قد زالت أسبابها وكل عسير أصبح يسيرًا لأنه الله تعالى هو المستعان.

(١) سنشرح هذه الآية بالتفصيل عندما نصل إليها فى سياق شرحنا وتفسيرنا لآيات سورة التوبة إذا أذن الله وأعان.

٥ ـ الآيات من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الخامسة والثلاثين.

حدود التعامل مع أهل الكتاب ومعالمه

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [الآيات: ٢٩ ـ ٣٥].

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها.

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن أحكام قتال أهل الكتاب والتعامل معهم، وتستعرض بعض انحرافاتهم عن العقيدة الصحيحة فى الله تعالى وفى رسله عليهم السلام، وأن أهل الكتاب فى هذه الانحرافات يشبهون الذين كفروا فى معتقداتهم، فهم يتخذون الأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم أربابا من دون الله، مع أنهم أمروا فى كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بتوحيد الله عز وجل.

كما تتحدث الآيات الكريمة عن تحدّيهم لدين الحق الذى جاء به محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ محاولين إطفاء نوره لتعيش البشرية فى ظلام الكفر والخرافة، ولكنهم مهما حاولوا فإن الله تعالى سوف يتم نوره مهما كره الكافرون، حيث أرسل رسوله الخاتم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله مهما كره الكافرون والمشركون وكل معاند للحق ودين الحق.

وتصف الآيات الكريمة أعمال الأحبار والرهبان السيئة؛ من أكلهم أموال الناس بالباطل، وصدهم من سبيل الله وكنزهم الذهب والفضة وبخلهم بها عن أن تنفق فى سبيل الله، فتهددهم الآيات الكريمة بالعذاب الأليم، على اتصافهم بهذه الصفات الذميمة المخالفة لمنهج الله تعالى فى التعامل مع الأموال كلها ذهبا وفضة وغيرهما، حيث يقتضى منهج الله أن تنفق هذه الأموال فى سبيل الله، بأن يعطى كل ذى حق حقه فيها.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

ـ تضع هذه الآية الكريمة النظام الذى يجب أن يعامل به المسلمون أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى ـ وقد جاء ذلك عقب صدور الأمر بنبذ عهود المشركين بعد انتهاء مدتها، وقتالهم حيث وجدوا ـ وذلك لأن لليهود والنصارى مع المسلمين مواقف مختلفة عن مواقف المشركين مع المسلمين.

وأبرز هذا الاختلاف موقفان.

الأول:

أن اليهود والنصارى كانوا فى بداية الأمر فى سلام مع المسلمين حيث ظنوا أن تصدى المشركين للمسلمين سوف يقضى على الإسلام والمسلمين ويريح أهل الكتاب منهم، ولكن خاب ظنهم بانهزام المشركين أمام المسلمين، وبانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية، وباستقلال المسلمين بدولة فى المدينة المنورة.

عندئذ أخذ كل من اليهود والنصارى موقفا مختلفا مع المسلمين:

*** أما اليهود:**

فقد كرهوا هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وكرهوا تأييد أهل المدينة له ولدينه، فنافقوا المسلمين فى بداية الأمر ثم ظاهروا عليهم المشركين فى المعارك التى كانت بين المسلمين والمشركين.

وقد ردَّ الله على اليهود كيدهم وعاقبهم المسلمون على غدرهم بهم على الرغم من العهود والمواثيق، وظل أمر اليهود فى خسران حتى أجلوا عن المدينة كلها. لكنهم ظلوا

على عداوتهم للمسلمين وللإسلام كلما أتيحت لهم فرصة غدر أو عدوان أو تآمر، ولا يزالون كذلك حتى يومنا هذا دون تحول أو كلال.

* **وأما النصارى:**

فقد كانوا مسالمين للمسلمين حتى فتح الله على المسلمين مكة والطائف ودخل الناس فى دين الله أفواجا وامتدَّ نفوذ الإسلام والمسلمين واتسعت الحدود حتى بلغت الشام من جهة الشمال، وبلغت اليمين من جهة الجنوب، عندئذ توجس النصارى خوفا على أنفسهم من تلك القوة السريعة الانتشار، وقد كان فى الجزيرة نصارى فى الشام وطيء وكلب وقضاعة وتغلب وبكر، واليمن، فأخذوا بعد الفتح يظهرون عداوتهم للمسلمين - وكانت دوله الروم تحمى النصارى فى الجزيزة العربية.

فأخذ النصارى يستعدون لحرب المسلمين مستعينين فى تلك الحرب بجيوش ملوك غسان حكام الشام من قبل الروم، وبجيوش الروم فى تبوك ومؤتة.

- وكان المسلمون يتوجسون من غزو الغساسنة - وهم نصارى - فقد روى البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: كان لى صاحب من الأنصار إذا غبتُ أتانى بالخبر، وإذا غاب عنى كنتُ آتيه بالخبر - ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذُكِرَ لنا أنه يريد أن يسير إلينا، وأنهم ينعلون خيولهم لغزونا، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب؛ فقال: افتح، افتح، فقلت أَجَاءَ الغسَّانى؟ قال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ نساءه. . . إلى آخر الحديث.

- وكان على المسلمين أن يتأهبوا ويحتاطوا ليأمنوا شر أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

* وكان من تأهبهم لذلك فى حياة الرسول ﷺ أن حاربوا بنى قريظة وبنى النضير وأهل خيبر بعد غدرهم وممالأتهم للمشركين على المسلمين، فانتصروا عليهم، وهؤلاء أعداء كانوا فى داخل الدولة فأجلوهم عنها وأمنوا شرهم.

* وأما من كانوا خارج الدولة فقد توجه المسلمون إلى تبوك عندما علموا أن «هرقل» قد جمع جيوشه لحرب المسلمين، فقد روى الطبرانى بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى «هرقل»: إن هذا الرجل - يقصدون

محمدا ﷺ قد خرج يدعى النبوة - وأنهم أصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينَك فالآن، فبعث - هرقل - رجلا من عظماء الروم يقال له: «قباذ» وجهز معه أربعين ألفا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأمر بالجهاد وجهز جيشا للتوجه إلى لقاء الروم فى تبوك، وكان المسلمون فى جدب وقحط وعسر، فسمى هذا الجيش جيش العسرة.

* وكان من عادة رسول الله ﷺ أن يُورّى فى غزواته - أى يخفى فى البداية مقصده - ولكنه فى هذه الغزوة أعلن أنه يريد تبوك لمواجهة الروم المستعدين للمسلمين، حتى يستعد الناس لهذه المعركة ويتأهلوا بالمال والعتاد لخوضها.

ودعا رسول الله ﷺ إلى الإنفاق فى سبيل الله، وإلى المشاركة فى تجهيز هذا الجيش، فأقبلوا على تجهيزه واستجابوا فمنهم من جاء بماله ومنهم من جاء بنصف ماله، ومنهم من جاء بمال وفير، وجهز مقاتلين كثيرين كعثمان بن عفان رضى الله عنه.

- والمعنى الذى تهدف إليه هذه الآية الكريمة هو: الأمر بقتال من اتصفوا بهذه الصفات الى ذكرتها الآية الكريمة وهى:

* أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

* ولا يُحَرِّمون ما حرم الله ورسوله فى دينهم.

* ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام.

وهؤلاء هم:

اليهود، والنصارى، والمجوس لأنهم لا يدينون دين الحق فهم ملحقون بأهل الكتاب فى هذه الصفة.

وكان المجوس لهم وجود فى القبائل التى تتبع ملوك الفرس من تميم وبكر والبحرين.

وكان اليهود فى خيبر وفى المدينة نفسها وحولها.

وكان النصارى فى الشام وطيئ وكلب - كما أوضحنا آنفا -

* وهؤلاء جميعا يجب قتالهم لأنهم لا يدينون دين الحق وهو الإسلام الذى جاء به

محمد ﷺ.

ـ ويقال: إنهم أوتوا الكتاب ولم يدينوا دين الحق الذى جاء به كتابهم، وإنما دانوا بما حرفوا منه، وما ألصقوا به، ولو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام، لأن كتابهم الذى أوتوه أوصاهم بذلك بل أمرهم باتباع النبى الآتى من بعد، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٣].

ـ وفى الآية الكريمة تهيئة للمسلمين ليقاتلوا الروم والفرس وما بقى من قبائل العرب الذين يستظلون بنصر إحدى هاتين الدولتين، من أولئك الذين تأخر دخولهم فى الإسلام مثل: قضاعة وتغلب بتخوم الشام، يقاتلهم المسلمون حتى يؤمنوا أو يظلوا على أديانهم مع إعطاء الجزية بأيديهم أى شخصيا بحيث لا يرسلونها مع غيرهم، وعليهم أن يعطوها راضين غير ممتنعين ولا منازعين فى إعطائها، وهذا هو التطبيق لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وكلمة صاغرين تعنى راضين بأن يعطوا أموالهم دون تذمر، ومقرين بتعظيم أمر الحكم الإسلامى ونظامه.

ـ وفى هذه القيود:

قيد أن يعطوا الجزية عن يد.

وقيد أن يعطوها وهم معظمون لشأن الحكم الإسلامى ونظامه دعوة إلى الدخول فى الإسلام، وترغيب لهم فى الخروج من هذين القيدين ليكونوا فى سعة منهما، وفى نجاة بدخلوهم فى الإسلام لتسلم لهم بذلك دنياهم وأخراهم.

ـ وللجزية أحكام تتعلق بها، منهما:

*** أنها تؤخذ من أهل الكتاب أصلاً، كما ينص على ذلك القرآن الكريم، وتؤخذ** من المجوس بنص من السنة النبوية، فقد روى الإمام مالك ـ فى موطئه ـ بسنده عن

عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه ذكر المجوس فقال: ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم - فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب» وفى رواية بزيادة: «غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم».

* وأن الجزية شرعت جزاءً لما يمنحهم المسلمون من الأمن.

* وأن قدر الجزية دينار واحد على كل من بلغ الحلم، فإن صالحهم الإمام على أكثر من ذلك جاز.

* وأن الجزية لا تؤخذ من النساء ولا الصبيان ولا العبيد ولا المجانين، ولا الطاعنين فى السن. وقاعدة أخذها هى: أن تؤخذ من القادرين على القتال.

* ولا سلطان للحكم المسلم على أموال من دفعوا الجزية، وليس له أن يأخذ منهم شيئا من أموالهم تلك.

* ولا يجوز عقوبة من امتنع عن أداء الجزية لعجزه، لأن من عجز عن أداء الجزية سقطت عنه، ولا يكلف أغنياؤهم بأداء الجزية عن فقرائهم.

كل هذه الأحكام تستهدف ألا يقع ظلم على أحد؛ ظلم فى ماله أو فى نفسه، فقد روى أبو داود بسنده عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة رضى الله عنهم من آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة».

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

- القائلون: عزير ابن الله ليسوا جميع اليهود، وإنما هم طوائف منهم، فكلمة «الْيَهُودُ» فى الآية لفظ عام قصد به طوائف معينة منهم هم أصحاب تلك المقولة الشنعاء: «عزير ابن الله».

قال النقاش[1] : لم يبق يهودى يقولها، بل انقرضوا.

---

(١) هو محمد بن الحسن بن محمد أبو بكر النقاش، وكان فى مبدأ أمره يعمل فى نقش السقوف والحيطان فعرف بالنقاش ولد سنة ٢٦٦ وتوفى سنة ٣٥١ هـ بالموصل ونشأ ببغداد ورحل فى طلب العلم رحلة طويلة وهو عالم بالقرآن الكريم وتفسيره، وله فيما يتصل بالقرآن تصانيف عديدة فى التفسير ومعانى=

وقد نسب هذا القول إلى اليهود جميعا وإن كان القائلون به فرقة منهم لأن سكوتهم على هذا القـول وعدم عـملهم على تغيـيره يجـعلهم من الموافقين عليـه والراضين به، فيجوز نسبته إليهم.

ـ «وعزير» اسم لحبـر من أحبارهم الذين كانوا فى الأسر البابلى وهو فى الـعبرانية: عِزْرا بن سرايا، من سبط اللاويِّين، كان حافظا للتوراة، وقد تفضل عليه «قورش» ملك فارس فـأطلقه من الأسر، ومـعه بنو إسرائيل، وأذن لهم فـى الرجوع إلى «أورشليم» ـ القدس ـ وسـمح لهم ببناء هيكلهم فيه، وكـان ذلك سنة ٤٥١ قبل ميلاد المسـيح عليه السلام.

* وكانت التوراة قـد ضاعت، بأن دفنت خوفا عليها أو ضنا بهـا، وقيل إن التوراة أُنْسِيَتْ، فكان عزرا حـافظا لها فـأعادها على اليـهود، بعـد ضياع، فكانوا يعـظمونه، ويرفعـون من شأنه حتى بالغ بعـضهم فادعى أنه ابن الله، مـغالاة فى تقديسـه فدخلوا بذلك فى الكفر والشرك، وكـبائر الذنوب والمعاصى، فالله تعـالى لم يلد ولم يولد كما جاء فى كل دين سماوى.

ـ ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾.

* وتلك فرية عظيمة ومقولة شنيعـة، ومن رضيها منهم أو لم يرفضها ويردها فكأنه قال بها.

وقد فُتن النصارى بمولد المسـيح دون أب ـ كما فتن اليهود فـى عزير الذى حفظ لهم التوراة ـ ولكنهم تخبطوا وضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا، وكانوا فرقًا:

فمنهم من قال: إن المسيح هو الله تعالى نفسـه، تعالى الله عن ذلك علُّوا كبيرا.

ومنهم من قال إنه ابن الله.

ومنهم من خَفَّفَ ذلك فقال: إن بنوة المسيح لله تعالى، بنوة حنان ورحمة.

وكل هذه الفرق تقول كلمة الكفر وتكفر بالله إذ تدعى هذا الباطل والزور.

ـ وهم فى قولهم هذا: «عزيـر ابن الله» والمسيح ابن الله «يشبهون قـول الذين كفروا

=القرآن وغريبه، وله المعجم الكبير فى أسماء قراء القرآن الكريم.

الذين قالوا إن اللات والعزّى ومناة آلهة وأولئك مشركوا العرب، والذين قالوا: «الملائكة بنات الله» وهم المشركون من العرب واليونان وأمثالهم.

ـ ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

دعاء يستعمل فى التعجب فتقول لمن أتى عملا عجيبا: قاتلك الله.

والمقصود هنا بهذا الدعاء هو: اللّعن: أى لعن اليهود والنصارى بهذين القولين، أى لعنهم حيث يتوجهون كـما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى يصرفون أو يتوجهون فاللعنة مصاحبة لهم أنّى توجهوا.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

* الأحبار: جمع حبْر، وهو الذى يحسن القول وينظمه، ويحسن البيان عنه.

ويطلق هذا اللفظ على علماء اليهود.

* والرهبان: جمع راهب وهو المنقطع للعبادة.

والتَّرهُّب: التَّعبُّد.

والرهبانية: غلو فى تحمل التعبد من فرط الرهبة والخوف من الله تعالى، وهى ابتداع غير مشروع لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها وقد ذم الله تعالى الرهبانية فى قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...﴾ [الحديد: ٢٧].

ـ والذين اتخذوا الأحبار والرهبان والمسيح بن مريم أربابا من دون الله هم اليهود والنصارى.

* فادعاء اليهود بنوة عزير لله تأليه له، واتخاذه ربا من دون الله وهذا كفر.

* وادعاء النصارى بنوة عيسى بن مريم الله أو أنه إله؛ تأليه له واتخاذه ربا من دون الله وهذا كفر، وقد بالغ النصارى فى ذلك بأكثر مما فعل اليهود، فكانوا يسجدون لصور عظماء ملتهم مثل صورة مريم، وصور الحواريين، وصورة يحيى بن زكريا، بل كانوا يستنصرون بهم فى حروبهم، وكل ذلك كفر وإشراك لخلق الله مع الله باتخاذهم آلهة أو

وسطاء.

- ولقد كان هذا حال كثير من طوائفهم وفرقهم، فقد كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم التى تخالف المعلوم بالضرورة أنه من الدين.

بل كانوا يعتقدون أن أحبارهم ورهبانهم يحلُّون لهم ويحرمون عليهم، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، وهذا الاعتقاد مطرد فى جميع الطوائف عند اليهود والنصارى.

ولقد اتضح ذلك من حديث نبوى شريف رواه أحمد بسنده ورواه الترمذى من طريق عدىّ بن حاتم رضى الله عنه.

قال عدىّ بن حاتم الطائى: إنه لَمَّا بلغه دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام - وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأُسِرتْ أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته، وأعطاها.

فلما رجعت أخته رغَّبته فى الإسلام وفى القدوم على النبى ﷺ، فقدم عدىّ إلى المدينة - وكان رئيسا فى قومه طيىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم - فتحدَّث الناس بقدومه.

فدخل على رسول الله ﷺ - وفى عنق عدىّ صليب من فضة - وكان النبى ﷺ يقرأ الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ قال حاتم. فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال النبى ﷺ بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم».

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾.

- أى أنهم أُمروا فى أديانهم بعبادة الإله الواحد، وحُذِّروا من أن يشركوا به شيئا أو أحدًا من مخلوقاته.

﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أى تنزيه لله تعالى عما افتروا عليه من الشرك فى عبادة غيره، أو فى قبول تحليل هذا الغير وتحريمه فتلك عبادة لهذا المحرِّم المحلِّل أيضا.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

* هذه الآية الكريمة تصف أهل الكتاب وصفا يكشف عما يضمرونه للإسلام من شر، وما يقومون به من أعمال معادية للإسلام والمسلمين بممالأة أعدائهم عليهم.

ذلك أن أهل الكتاب لما رأوا ظهور الإسلام وانتشاره، تحركت أحقادهم واشتد حسدهم، فحاربوه وألَّبوا عليه كل عدو بل زعموا للمشركين أن شركهم خير من دين محمد ﷺ!!! يريدون بذلك أن يطفئوا نور الله وهو الإسلام أو القرآن أو ما جاء به محمد ﷺ.

ففى الآية الكريمة تشبيه الإسلام بالنور، وتشبيه محاولة إبطاله ومنعه بمن يريد إطفاء نوره، وتشبيه الإرجاف والتكذيب والتشويه بالنفخ فى المصباح لإطفاء النور، وهذا ما يسميه علماء البيان تشبيها مركبًا أو تمثيليا شُبِّهت فيه هيئة منتزعة من متعدد بهيئة من متعدد ـ على نحو ما أوضحنا فى الشرح.

وإضافة النور إلى الله تعالى «نور الله» تشير إلى أن محاولة إطفائه عبث ويحيط بها الإخفاق، لأن الله تعالى يأبى عليهم ذلك، ويريد أن يتم نوره ليبلغ انتشار الإسلام ما بلغ الليل والنهار، وقد حدث ذلك فعلا بفضل الله وبجهود الدعاة إلى الله المخلصين المجاهدين فى سبيل الله.

ولقد بشر رسول الله ﷺ أمته بالتمكين فى الأرض، وبشرها بأن دينها سيبلغ مبلغ النجم.

فقد روى الطبرانى بسنده ـ فى الأوسط ـ عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله استقبل بى الشام وَوَلَّى ظهرى اليمن وقال لى: يا محمد إنى جعلت ما تجاهك غنيمة ورزقا، وما خلف ظهرك مددا، ولا يزال الإسلام يزيد، وينقص الشرك وأهله، حتى تسير المرأتان لا تخشيان إلا جورا، والذى نفسى بيده لا تذهب الأيام والليالى حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم».

وروى أحمد بسنده عن أُبىّ بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والدين، والنصر، والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب».

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

ـ هذه الآية الكريمة بيان وتفسير لقوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾.

ذلك أنه أرسل رسوله الخاتم محمداً ﷺ بهذا الدين، وأتمه وأكمله ورضيه للبشرية كلها دينا، فلا يريد إزالته، ولا يمكن أحدا من ذلك حتى تقوم الساعة.

* وقد وصف الله تعالى هذا الدين بأنه هُدًى، وبأنه دين الحق تنويها بفضله، وتعريضًا بأن ما عليه أهل الكتاب من دين ليس بهدىً ولا حق، لما فى هذه الأديان من تحريف، ولما يرتكبه أهلها من مخالفة لها فى أمرها إياهم باتباع محمد ﷺ ـ روى أبو داود بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ ربى زوى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها... ولا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله».

وروى مسلم بسنده عن نافع بن عتبة رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة، فأتى النبى ﷺقوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف فوافقوه عند أكمة فإنهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد، فقالتْ لى نفسى: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، ثم قلت لعله نجيٌّ معهم، فأتيتهم فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلمات أعدهن فى يدى، قال: تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله».

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

أى ينصره وينشره ويفضله، لأن معجزته القرآن وهى معجزة تدرك بالعقل ويستوى فى إدراك إعجازها جميع الناس فى جميع العصور.

هذه ميزة.

وميزة أخرى هى أنه معجزة باقية حتى بعد وفاة الرسول ﷺ، وأن معجزات سائر الأنبياء قد شوهدت فى حياته فقط.

وميزة ثالثة هى أن القرآن أو الدين الذى جاء به القرآن الكريم خالٍ تماما من كل عيوب الاعتقاد والعمل التى أدخلها أهل الأديان الأخرى على أديانهم، وعلى سبيل المثال:

* هو خالٍ من وصف الله تعالى بما لا يليق بكماله وجلاله، كما جاء ذلك فى كتب الأديان الأخرى التى حُرِّفَت.

* وهو خالٍ من التكاليف التى يشق على الناس القيام بها، فليس فيه رهبانية مثلا، وليس فيه - كما يدعى بعض أهل الأديان أن يحمل أحد وزر أحد ولا عذاب أحد، وليس فيه خطيئة تورث فليعن بها الوارث - كما يقال فى بعض الأديان، وليس فيه، وليس فيه مما لو تحدثنا عنه لأطلنا.

وهو دين مُبَرَّأ من الظلم مطلقا ومن الفساد كله، ومن كل مامن شأنه أن يفقد الناس إحساسهم بالأمن والطمأنينة، وليس فيه شىء يناقض العقل كالخرافات والأباطيل التى يدعيها بعض أهل الأديان الأخرى.

* ولقد ظهر دين الإسلام فعلاً بدخول الناس فيه أفواجا، ودخول كثير من أهل الملل الأخرى فيه على الرغم من كراهية حكامهم وساستهم لذلك، فقد أجلى اليهود عن الجزيرة العربية وغلب النصارى ومن ورائهم الروم، وغلبت المجوس وأصبحت فارس من بلاد الذين دخلوا فى دين الله أفواجا، وغلب عُبَّاد الأصنام والأوثان على بلادهم مما يلى الترك والهند، فكان إخبار الله تعالى بأن دين الحق سيظهر على الدين كله حقٌّ قد وقع فعلاً كما هو معروف.

ومهما غُلِبَ المسلمون بعد ذلك على بعض ديارهم وأوطانهم فإن الله تعالى قد وعد، ووعده الحق بأن الإسلام سيظهر على الدين كله ولو كره المشركون، لكن ذلك يكون فى أزمان يعلم الله وحده متى تكون لكنها لابد كائنة، والذى نعلمه علم اليقين - كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ - أن ذلك كائن لا محالة وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

* ومن المعروف أن المشركين استمروا على شركهم كراهية لظهور الدين، لأن ظهوره أشد حسرة عليهم وأكثر غيظا لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

- هذه الآية الكريمة توضح نقائض أهل الكتاب ونقائصهم فى أعمال راذلة يأتونها - فوق ما أتوا من أعمال سيئة تحدثت عنها الآيات الكريمة السابقة - وهذه النقائص هى:

* أن كثيرا من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل كزعمهم أنهم يغفرون ذنوبهم أو يحملون عنهم خطاياهم، أو يحولون بينهم وبين دخول جهنم، أو ثمنا لفتوى دينية يُفتونهم بها أو نحو ذلك من أنواع الباطل التى يأكلون بها أموال الناس وهى فى حقيقها رشاوى وسحت وظلم وعدوان باسم ما يزعمون من دين، يستوى فى ذلك علماء اليهود والنصارى.

* وأن كثيرا من هؤلاء الأحبار والرهبان يصدون أنفسهم عن دين الله الخاتم الذى جاء به رسوله الخاتم ﷺ، كراهية لهذا الدين وطمعا فى استمرار ما هم عليه من سلطة وتسلط على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل باسم دينهم.

* وأن هؤلاء الأحبار والرهبان يصدون الناس عن الدخول فى الإسلام دين الحق.

﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- هؤلاء طائفة من الناس يأتون هذا العمل الراذل وهو كنز الأموال أى حبسها وتخبئتها عن مستحقيها من عباد الله.

وهؤلاء الكانزون للأموال أعم من أن يكونوا أحبارا ورهبانا إذ قد يكونون من غيرهم من اليهود أو النصارى.

وقد يكونون من المسلمين الذين لا يؤدون الزكاة التى فرضها الله على القادرين من المسلمين.

هؤلاء وأولئك يقعون فى خطيئة كنز المال وحبسه عن مستحقيه.

* وجمهور علماء المسلمين يرون أن المال المكنوز المنهى عن كنزه هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤدَّ، والزكاة فى الإسلام لها شروط معروفة هى:

- الإسلام لأنها عبادة لا تطلب إلا من المسلمين.

- والحرية لأن العبد لا يملك التصرف فى المال إلا بإذن سيده وهذان شرطان فى المُزَكِّى.

ـ وحئـول الحول ـ أى: مـرور سنة على هذا المال الذى وجـبت فيـه الزكاة دون أن يكون صاحبه محتاجا إليه فى طعامه أو شرابه أو مسكنه هو ومن يليه.

ـ وبلوغ هذا المال قدر النصـاب الشرعى الذى تجب فيه الزكاة، وهذا الـقدر يختلف باختلاف الزمان والبيئة، وكل نوع من المال تجب فيه الزكاة بشروط بعينها (١)

* والإنفاق فى سبيل الله يشمل: الزكاة الواجـبة، ونفقة الحج الواجب، والنفقة فى نوائب المسلمين مما يدعو إليه ولاة العدل.

* والوعيد فى هذه الآية الكريمة موجَّه إلى كل عن امتنع عن الإنفاق فى سبيل الله.

ـ وقد اختلف العلماء فى المال المكنوز ما هو؟

* فقال جـماعة: هو المال الذى لم تؤد فيه الـزكاة وهو أرجح الأقوال، وعلى رأس هؤلاء: عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

* وقال جمـاعة: هو المال الذى لم تؤدَّ فيه الحـقوق العارضة كفك الأسـير وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ونحوها.

* وقال جماعة: هو ما كنز لأنه فائض من حاجة صاحبه فلم يؤدّ فيه حق الله وحق الناس.

والأرجح أنه المال الذى لم تؤد فـيه الزكـاة، لما رواه أبو داود بسنده عن ابن عـباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: والذين يكنزون الذهب والفضة... كَبرُ ذلك على المسلمين فقـال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أنا أُفرِّج عنكم، فـانطلق فقال: يا نبى الله إنه كبـرُ على أصحابك هذه الآيـة، فقال النبى ﷺ: «إن الله تعـالى لم يفرض الزكاة إلا ليطيـب ما بقى من أموالكم، وإنما فـرض المواريث على أموال تبـقى بعدكم» فكبَّر عـمر رضى الله عنه. ثم قـال رسول الله ﷺ: «ألا أخـبرك بخـيرْ مـا يُكنز المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

﴿فبشرْهُم بعذاب أليم﴾

فسَّر النبـى ﷺ هذا العذاب بنفـسه، فقـد روى مسلم بسنده عن الأحنـف بن قيس

(١) تفصيل هذه الأمور التى تتصل بالزكاة تلتمس فى كتب الفقه الإسلامى وهى كثيرة.

رحمه الله تعالى قـال: قدمتُ المدينة فبينا أنا فى حلقة فيـها ملأ من قريش إذا رجل [(١)] أخشن الثياب أخشن الجسـد أخشن الوجه فـقام عليهم فـقال: بَشِّر الكَنَّازين بكَىٍّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكىٍّ من قِبلَ أقفائهم يخرجَ من جباههم؛ ثم تنحى فقعد، فقلتُ من هذا؟ قـالوا: هذا أبو ذرّ، فقمت إليه فـقلت: ما شىء سمعتـك تقول قُبيل؟ قال: ما قلتُ إلا شـيئا سمعتـه من نبيهم ﷺ. قال الأحنـف: قلتُ: ما تقول فى هذا العطاء؟ قال: خذه فإن فيه اليوم معونة، فإذا كان ثَمنًا لدينك فدعه.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

هذا هو الجزاء الأخـروى على كنز المال فى الدنيا، فيـوم القيامة يؤتى بهـذه الأموال التى كنزت فيحمى عليها فى النار ثـم تكوى بها الجبهة ـ وهذا فى الوجه أشنع وأبشع ـ وفى الجنب والظهر ـ وهذا آلم وأوجع ـ فلذلك خصهما دون سائر الأعضاء.

* ولعلماء الصـوفية تعليل جيـد حيث قالوا: لما طلبـوا ـ أى الكانزين ـ المال والجاه شَانَ الله وجـوههم، ولما طَوَا الكَشْحَ عن الفـقيـر إذا جـالسـهم كُوِيَتْ جنوبهم، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها واعتمادا عليها كويت ظهورهم.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

ـ أى يقال لهم تبكيتـا وتوبيخا، لأنهم لم يؤثروا رضا ربهم ولم ينفقـوا فى سبيله: ذوقوا وبال مـا كنتم تكنزون، بما كنتم تكنزون لا بغيره، فـقد ورد أنهم يُكْوَوْن بالدينار وبالدرهم وبما كنزوا؛ فى جباههم وجنوبـهم وظهورهم، وهكذا يكون الجزاء من جنس العمل.

(١) هو جُندب بن جُنادة بن سـفيـ من بنـى غِفار من كنانة بن خُزاعة مـن كبار الصـحابة ، قـديم الإسلام يضـرب به المثل فى الصـدق ، وروى له البخارى ومـسلم ٢٨١ حديثًا توفى بالربذة من قـرى المدينة سنة ٣٢هـ بعد أن طوّف بالشام بعد وفاة النبى ﷺ وبقى فى الشام إلى خلافة عثمان رضى الله عنه.

أولا:

يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾الآية ما يلى:

١ - أن الحرب بمختلف أنواعها قائمة دائما بين المؤمنين والذين لا يؤمنون، لا تتوقف حتى يفيء غير المؤمنين إلى ظلال الإيمان ورحابه، سواء أكان هؤلاء الذين لا يؤمنون من المشركين أم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو ممن لحق بهم من المجوس فالمسلمون مطالبون بأن تستمر هذه الحرب إلى أن ينحسم الشرك والكفر، وما هو بمنحسم إلى يوم القيامة، فالحرب إذن بين الإيمان والكفر إلى يوم القيامة.

هذا هو الدرس الذى يتعلمه المسلمون من هذه الآية الكريمة ويترتب على هذا الدرس أن يؤهل المسلمون أنفسهم لخوض هذه الحرب ما عاشوا على هذه الدنيا.

٢ - وأن الجزية لم تفرض على أهل الكتاب طمعا فى أموالهم إذا كانوا يعيشون فى كنف الدولة المسلمة، وإنما تؤخذ منهم لجعلهم يفكرون طويلا - وهم يعيشون فى كنف المسلمين - فى أن ينتقلوا من حال الكفر ودفع الجزية كارهين، إلى حال الإيمان والكرامة وسقوط الجزية عنهم مطلقا، كما أجمع على ذلك علماء المسلمين من كل العصور؛ إذ يصبحون مسلمين لهم ما للمسلمين من الحقوق، وعليهم ما على المسلمين من الواجبات.

٣ - ويتعلم المسلمون من هذه الآية أن أهل الكتاب كانوا وما يزالون وسيظلون - إلا من رحم الله - موصوفين بأنهم.

- لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

- ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله عليهم فى كتبهم بل يخرجون منه.

- ولا يدينون دين الحق الذى جاء به محمد ﷺ، والذى أمرتهم أديانهم باتباعه، فهم كافرون بأديانهم وبدين الإسلام. وعلى ضوء هذا يعاملون تلك المعاملة التى أمر بها

الله تبارك وتعالى، فهو أدرى بما يلائمهم وما يلائم المسلمين.

ثانيا:

ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ الآيتين، ما يلى:

١ ـ أنّ الخلل فى العقيدة المؤدى إلى وصف الله تعالى بما لا يليق بكماله وجلاله؛ قائم عند اليهود والنصارى على السواء، فكما قالت اليهود عزير ابن الله قالت النصارى المسيح ابن الله، وهى مقولات كاذبة ضالة كَذَّبهم الله تعالى فيها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى مجرد افتراء وادعاء لا سند له، وهم فى ذلك كالمشركين والكفار يقولون على الله الكذب إذ يصفونه بما لا يليق به سبحانه وتعالى.

٢ ـ ويتعلمون أن العقيدة الصحيحة فى الله تعالى وفى ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لا تكون إلا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فلا يوصف الله تعالى إلا بوصف جاء فى الكتاب والسنة، وكذلك لا توصف الملائكة ولا الكتب السماوية ولا الرسل والأنبياء إلا بما يليق بهم مما ورد فى الكتاب والسنة النبوية وكذلك الإيمان بالله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره لا يكون صحيحًا سليمًا إلا إن كان مبنيًا على ما جاء فى الكتاب والسنة عن ذلك.

وهذا درس عظيم يحرر العقيدة من الشوائب والضلالات والأوهام وتخرصات الجاهلين.

٢ ـ وأن الضلال والاضطراب والحيرة أقرب ما تكون إلى الناس عندما يستسلمون لتعظيم مَنْ يسمَّون عندهم برجال الدين من أحبار ورهبان ـ لأنهم عندئذ يلغون عقولهم وينخدعون فى الأحبار والرهبان فيستجيبون لهم ويطيعونهم فيتخذونهم بتلك الطاعة أربابا من دون الله.

هكذا فعل اليهود والنصارى فغضب الله على اليهود ولعن النصارى، إذ طاعة هؤلاء الأحبار والرهبان فيما يُحلُّون للناس وما يحرمون عليهم عبادة لهم، كما وضح ذلك من حديث عدىّ بن حاتم الذى أوردناه آنفا.

٣ ـ ويتعلم المسلمون من هاتين الآيتين الكريمتين أن أهل الأديان جميعا أمروا فى

كتبهم وعلى ألسنة رسله عليهم السلام أن يعبدوا إلـهًا واحدا سبحانه عما يشركون، أى تنزه عن الشـركاء والنظراء والأعوان والأبناء وغـيرهم، إذ هو الله الواحـد الأحد لارب سواه ولا شريك معه.

ومعنى ذلك أن كل دعوى يدَّعيها أهل أى دين يترتب علـيها عبادة غير الله، دعوى باطلة، ما قُبلتْ منهم فى الماضى ولا يجوز أن تقبل منهم فى الحاضر أو فى المستقبل.

ثالثا:

يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ...﴾ الآيتين ما يلى:

١ ـ أن المشركين وأهل الكتاب ومن إليهم من الـطوائف ممن ضلوا وأضلوا كثيرا من الناس، يرغبون دائما فى أن يطفئـوا نور الله أى الإسلام أو القرآن الكريم والسـنة النبوية المطهرة، كان ذلك دأبهم منذ جـاء محمد ﷺ بهذا الدين القويم، واسـتمر ذلك شأنهم على مدى تاريخ المسلمـين كله وإلى يوم الناس هذا، ومن أجل ذلك يخططون ويدبرون ويتحالفون مـع كل عدو للمسلمين ويقولون ويفعلون، ويتقـولون على الإسلام ورسوله وأهله ومنهجه وكتابه وسنة رسوله ﷺ ما وسعهم الكذب والافتراء، وما شاء لهم الجدل والافتراء، حديثهم فى تلك العداوة كقديمهم.

* غير أن الله تبارك وتعالى قد قدَّر أن يتم نوره وأن ينتشر دينه فى الأرض مهما كره ذلك أولئك الكافرون.

* إن على المسلمين أن يوطنوا أنفسهم على أن ذلك سوف يكون مـهما تباعد الزمان واضطرب المكان، عليـهم أن يفكروا كيف يسـتعدون للوصـول إلى هذا الإتمام لنور الله والتمكين لدينه فى الأرض، ولن تقبل من أحد من المسلمين علة يتـعلل بها تعفى نفسه من الاستعداد للوصول إلى هذا اليوم.

٢ ـ وأن عوامل الإتمام لنور الله وديـنه ومنهجه ونظامـه كامنة فى صـميم هذا الدين كتابًا وسُنَّة، فالكتاب ينادى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والسـنة النبوية تبشر بذلك ـ وما كان رسول الله ﷺ لينطق عن الهوى، فقد روى أحمد بسنده عن أُبىّ

ابن كعب (١) رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّر هذه الأمة بالسناء، والدين، والرفعة، والنصر، والتمكين...» الحديث وقد ذكرناه آنفا.

وروى أحمد بسنده عن تميم الدارمى رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، يعزُّ عزيزًا ويذلُّ ذليلاً، عزًا يُعزُّ الله به الإسلام، وذُلاً يُذِل الله به الكفر».

قال تميم الدارى رضى الله عنه: لقد عرفت ذلك فى أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الذل والصغار والجزية.

* فللمسلمين أن يطمئنوا تمام الاطمئنان إلى تلك البشارات لكن بشرط أن يعدوا أنفسهم ليكونوا أهلاً لأن تُحقَّق على أيديهم هذه البشارات، فيُمكَّن لدين الله فى الأرض.

٣ - وأن يتعلموا من هذه الآيات أن الله تعالى وقد أبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون فقد جعل هذا الدين دين الإنسانية كلها وأتمه وأكمله ووعد بنصر المؤمنين به، فمن أراد أن يكون أهلا لأن يتحقق نصر الدين على يديه وبمشاركته، فنعم ما اختار لنفسه فى دينه ودنياه، وإن شغلته الدنيا عن شئون الدين فتفرقت به طرقها فلن يبالى الله تعالى به فى أى أودية هذه الدنيا سيهلك، قال جل شأنه: ﴿... وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٨] أجمع المفسرون لكتاب الله على أن المعنى: وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم بل خيرًا منكم.

رابعًا:

يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآيتين ما يلى:

١ - أن أحبار اليهود ورهبان النصارى ومن شابههم ممن يدَّعون أنهم رجال دين وأنهم

---

(١) هو أبى بن كعب بن قيس بن عبيد من بنى النجار من الخزرج كنيته أبو المنذر صحابى أنصارى - كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود مطلعاً على الكتب القديمة يقرأ ويكتب، فهداه الله للإسلام فأسلم واختاره الرسول ﷺ ليكتب الوحى وقال عنه: اقرأ أمتى أبىّ بن كعب. شهد بدراً واحد والخندق والمشاهد كلها وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس على عهد عمر بن الخطاب وأمره عثمان بجمع القرآن، وله فى الصحيحين ١٦٤ حديثاً و وقد توفى بالمدينة سنة ٣٢ هـ.

بذلك أقرب إلى الله من سائر عباده، هؤلاء جميعا إنما يقصدون من وراء هذه الدعاوى أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، أى بالرشا والدجل، بحجة أنهم يسامحونهم فى التكاليف ـ كأنهم هم المكلَّفون بها ـ!!! فيبيعون لهم قراريط فى الجنة، أو يمنعونهم من دخول النار، هؤلاء دجاجلة لا يعرفون الطريق إلى تقوى الله، ومن أطاعوهم عباد لهم كما أسلفنا من قبل.

والمسلمون يتعلمون من ذلك ألا يسمحوا لأحد أن يخدعهم باسم الدين ولا يأكل أموالهم ليقربهم إلى الله، فالمسلم راشد مهتدٍ بنور الله له فراسة يعرف بها الصادق والدجال.

٢ ـ وأن هؤلاء الأدعياء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل يصدون الناس عن سبيل الله أى عن دين الحق دين الإسلام بعد أن صدوا أنفسهم عنه، وهؤلاء جريمتهم مضاعفة لهذا الصد المزدوج عن سبيل الله.

ومعنى هذا أن يتعلم المسلمون أن الذين يأكلون أموال الناس بالباطل يربطون دائما بين أكل هذه الأموال بالباطل وبين الصد عن سبيل الله، لأنهم لو تركوا الناس دون أن يصدوهم عن سبيل الله لكشف الناس أمرهم بما يهديهم إليه التدبر فى كتابه وفى سنة رسوله ﷺ.

ومعنى ذلك أن فساد الذمم يصاحبه فساد العقيدة، وأكل الحرام يلازمه الابتعاد عن الحق والعدل.

٣ ـ وأن الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله يستمرئون أن يكنزوا الذهب والفضة ولا يُنْفِقونها فى سبيل الله، والارتباط بين هذه الأعمال الثلاثة وثيق فهو أكَلَ أموال الناس وصَدَّ عن سبيل الله ليُمسك عن الإنفاق فى سبيل الله، ويَكْنِزَ الذهب والفضة، وما كل ذلك إلا لانشغالهم عن الله وعن دين الحق بطلبهم المال والجاه.

ـ وإذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله أى لا يؤدون زكاتها فهم مسلمون آثمون محاسبون على تضييع ركن من أركان الإسلام وهو الزكاة.

ولهم نفس جزاء مَنْ كنز الذهب والفضة من غير المسلمين حيث يحمى على الذهب

والفضة دنانير ودراهم لتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، تقول لهم الملائكة: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ هذا عقاب لهم يوم القيامة.

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منْ رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل الله له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى الله بين العباد، ثم يُرى سبيله إما إلى جنة وإما إلى نار».

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية والمشغولون بالتربية الإسلامية من هذه الآيات الكريمة السبع دروسًا عظيمة فى الدعوة والحركة والتربية، مما يزيدهم حصانة وبصرًا بشئون الحياة، ومعرفة بحقيقة المشركين وأهل الكتاب، وحقيقة مقولاتهم التى تفترى على الله الكذب وحقيقة أعمالهم التى تدمر العلاقات الاجتماعية إذ يُستَغل فيها الإنسان أسوأ استغلال وأبعده عن الإنسانية. ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

أولا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية ما يلى:

١ - أن واجب الدعاة والحركيين والتربويين فى تأهيل الناس لحرب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب وأمثالهم ممن يشاركونهم فى عداوة الإسلام والمسلمين، تأهيلهم تأهيلا متنوعا كالتالى:

* التأهيل النفسى العقلى: بتزويدهم بالمعلومات والمعارف التى توضح لهم بدقة مَن هم هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق من أهل الكتاب وأمثالهم فى الباطل والضلال، فيستعدون لذلك كل أنواع الاستعداد المتاح لهم، فيعيشون بذلك على شوق لخوض المعركة بين الإيمان والكفر بين الحق والباطل، بين الذين لا يخشون الله وبين الذين يخشونه ولا يخشون أحدا سواه.

ومن خاض معركة وهو متحشد لهـا نفسيًا وعقليًا خاضها بإذن الله وهو أهل للنصر فيها.

* والتأهيل البدنى: بتربيـتهم على القاعدة النبوية العميـقة فى التربية وهى: «المؤمن القوى خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير» فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، احرص على مـا ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا... ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان».

إنّ على المسلم أن يأخذ بدنه بالبعد عن كل أسباب ضعفه والأخذ بكل أسباب قوته، وهذه وتلك معروفة لا يجهلهـا أحد من الدعاة إلى الله، لأن كل إنسان يجب أن يكون خيرًا وأحب إلى الله ولا يجب أن يعجز أو يوصف بالعجز.

* والتأهيل المالى: وذلك أن الأصل فى المسلم وهو يـجاهد فى سبيل أن يعـد نفسه ماليًا للإنفاق على طعـامه وسلاحه، وقد ظل الأمر كـذلك سنين طوالا، حتى تكفلت الدولة بتجهيز المقاتل وتأمين طعامه وسلاحه، ولا يزال ذلك شأن الدولة حتى اليوم.

فكيف يؤهل المسلم نفسه ماليا للجهاد فى سبيل الله؟

الذى أتصوره الآن أن يقتطع المسلم جـزءا من ماله ليتوجه به إلى الدولة مـتبرعا به، ليكون من مجموع هذه التبرعـات ما يعين الدولة المسلمة على جهاد وأعداء الله، وذلك أن الجهاد اليوم لا تجدى فيه الأسلحـة التقليدية، وإنما يحتاج إلى تلك الأسلحة المتطورة من طيران وصواريخ وسـفن حربية وغواصات ونحـو ذلك مما لا طاقة لأحد الجنود به، فكان دعم الدولة بالتـبرعات أسـاسيـا فى الإعداد المالى لكى تواجـه متطلبـات الحرب الحديثة.

٢ ـ وأن قتال اليهود والنصارى ليس لأنهم يهود ونصارى بدليل جواز عقد المعاهدات معهم وبدليل حمايتهم إذا عاشوا فى كنف دولة مسلمة وتركهم على دينهم، وإنما سبب قتالهم أنهم يحقدون على الإسـلام والمسلمين ويخططون ويدبرون لحرب المسلمين وكما حاربوهم على مر التاريخ.

وقد استعدت الروم وهم نصارى لقتال المسلمين وجيشوا جيوشهم وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، فتجهز رسول الله ﷺ لقتالهم فى تبوك وجهز من أجل مواجهتهم جيش العسرة ودعا المسلمين إلى قتالهم وأظهر هدفه ومقصده، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة وغيرهم، وخرج إلى الشام يريد قتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار الله فى الرجوع، فرجع عامه هذا. على نحو ما هو معروف فى كتب سيرته ﷺ.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بفقه الجهاد فى سبيل الله، وأن يوضحوا لهم بطلان مقولة: إن الإسلام قد انتشر بالسيف. لأن معناها أن بعض الناس أكرهوا على أن يدخلوا فى الإسلام، وهذا شىء حرمه الله فى كتابه فى قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦].

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس مبعث ضلال النصارى واليهود فى زعمهم أن عزيرًا ابن الله أو أن المسيح ابن الله.

يقول العلماء: زعم بعض النصارى أن المسيح عليه السلام هو الذى قال إنه ابن الله، وهو عليه السلام مُبرأ من ذلك تماما فلا هو قال ذلك، ولا قال - كما يزعمون - اتخذونى وأمى إلهين.

ولعل ذلك الضلال تسرَّب إلى النصارى من ورود لفظ الابن فى الإنجيل، لكنه ورد على سبيل التشريف لا على سبيل الحقيقة، كما ورد لفظ الخليل فى حق إبراهيم عليه السلام تشريفا لا تحقيقًا.

ثم إن النصارى من أجل عداوتهم لليهود، ولأجل أن يقابلوا غلوهم فى قولهم: عزير ابن الله، بالغوا ففسَّروا النبوة بأنها بنوة حقيقية، وقد قبل الجهالُ منهم هذا التفسير، ففشا هذا المذهب الفاسد فى أتباع عيسى عليه السلام، ويؤيد هذا أن الآية الكريمة تقول عنهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

هذا عمل الدعاة إلى الله التوضيح وإزالة الغموض الذى يكتنف بعض الدعاوى الباطلة.

ثانيا:

ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ما يلى:

١ ـ أن دين الإسلام الخاتم إنما جاء ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وأن هذا الأصل الأصيل مشترك بين الأديان جميعا، ولكن اليهود والنصارى حرفوا ما بأيديهم من الكتاب.

* ومن أجل هذا يعادى اليهود والنصارى دين الإسلام لأنه يفوت عليهم مصالحهم الدنيوية.

ـ أما اليهود فاتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله.

ـ وأما النصارى فاتخذوا المسيح ربًا من دون الله.

وباسم هذه العبادة وبناء على تلك الطاعة التى فرضها الأحبار والرهبان على الناس، استغل الأحبار والرهبان الناس بل أكلوا أموالهم بالباطل.

على الدعاة إلى الله أن يوضحوا هذه الحقائق حتى يعرفها الناس على وجهها الصحيح فتلك مهمتهم.

٢ ـ وأنّ أهل الكتاب جميعا يهودًا ونصارى قد أمروا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له فى كتبهم وعلى ألسنة رسلهم عليهم السلام، فإن أنكروا ذلك فقد زادوا كفرًا على كفرهم، كما طولبوا من خلال كتبهم ورسلهم أن يؤمنوا بمحمد عندما يبعث فإن أنكروا ذلك فقد أمعنوا فى الكفر والضلال.

وعلى الدعاة إلى الله أن يحاولوا إقناع أهل الكتاب والناس جميعا بعبادة الله وحده لا شريك له.

* وللدعاة إلى الله فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة إذ دعا عدىّ بن حاتم، رضى الله عنه ـ وكان نصرانيا حين دعاه إذ كان فى عنقه صليب من فضة.

دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام بأسلوب مقنع مُتأنٍ، فحقق هدفه من الدعوة

ودخل عدى بن حاتم فى الإسلام فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عدىّ بن حاتم قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عدىّ ما تقول؟ أيضرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ ما يضرك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلها غير الله؟ ثم دعا النبى عليه الصلاة والسلام عديًا إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، فقال: لقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون».

فليتعلم الدعاة من ذلك ما شاء لهم التدبّر والتفكر فى كلمات رسول الله ﷺ، وفى حسن مدخله فى الدعوة إلى الإسلام، وفى إقناعه للمدعو.

٣ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بأن عداوة اليهود والنصارى للإسلام والمسلمين عليها أدلة كثيرة من القرآن الكريم ومن تصفح تاريخ الحروب التى شنوها أو حرضوا عليها ضد الإسلام والمسلمين.

ففى القرآن غير هذه الآية التى نحن بصددها آيات كثيرة توضح تلك العداوة، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ. . . ﴾ [البقرة:١٠٩].

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ...﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وأما تاريخ عدائهم للإسلام والمسلمين فقد ملأ أسفارًا وأسفارا.

ـ فاليهود عادَوْا الإسلام والمسلمين منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فى أحداث معروفة موثقة بتواريخها واستمرت عداوتهم للإسلام والمسلمين إلى أن تحالفوا مع الصليبية الحديثة فأعانتهم على إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين فطردوا الفسلطينين وشردوهم وقتلوا من المسلمين ألوفا بقنابل «النابلم» وبعناقيد الغضب، وامتدت أذرعتهم لتضرب فى العرب والمسلمين حيث شاءت فى سوريا والأردن ولبنان ومصر والعراق وتونس وغيرها، ولا تستطيع قوة أن تردعها أو تردها عن هذا الحقد وهذه الوحشية،

ومن يردها وهيئة الأمم المتحدة خاضعة للولايات المتحدة الأمريكية والولايات المتحدة الأمريكية خاضعة لإسرائيل؟

ـ والنصارى لهم تاريخ عريق فى عداء الإسلام والمسلمين، فمنذ القديم تحالفوا مع عدوهم التقليدى الفرس ضد المسلمين، واستمرت عداواتهم وأحقادهم حتى أبادوا المسلمين فى الأندلس، وشنوا على العالم العربى سبع حملات صليبية لا تختلف فى وحشيتها عن وحشية اليهود والصرب والنازيين!!!

ولا يزالون يضطهدون المسلمين فى كل مكان، ويكرهون كثيرا منهم على الدخول فى النصرانية ـ كما يعترف بذلك قساوستهم ومبشروهم [(١)] وقد اتسعت حربهم للمسلمين فشملت أوربا حيث طردوهم وقتلوهم وأجبروهم على الدخول فى النصرانية فى قصة معروفة يذكرها مؤرخوا الغرب أنفسهم!!!

ثم اتسعت دائرة حربهم للمسلمين فشملت آسيا وأفريقيا، آسيا حيث تحالف الغرب الصليبى والشرق الصليبى آنذاك على إسقاط دولة الخلافة العثمانية وأحلوا محلها نظاما علمانيًا محلدا، فتمزقت دولة الخلافة إلى أشلاء ودويلات تخضع لتلك القوى المعادية.

* ثم كانت الصليبية الحديثة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا وروسيا اليوم، وما ترتكبه هذه الصليبية من جرائم ضد المسلمين، كما حدث فى قبرص، وما حدث فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، وما حدث فى البوسنة والهرسك والشيشان وكوسوفو وما حدث فى حربين ضاريتين فى الخليج إحداهما بين العراق وإيران حيث كان الغرب يؤيد مشئوم العراق لأنه يحارب المسلمين فى إيران، والثانية ضد هذا المشئوم بسبب ظاهر، هو عدوانه الآثم الغاشم على الكويت، وبسبب حقيقى هو تأمين إسرائيل ضد قوة عسكرية نماها الغرب وأمدها بالأسباب فى حربها للجمهورية الإسلامية فى إيران.

وما حدث وما يحدث فى جنوبى السودان، وأريتريا، وزنجبار وكينيا والكاميرون ونيجيريا وغيرها من بلدان إفريقية يريدون أن يخلوها من أى قوة للمسلمين.

وما حدث وما يحدث فى الفلبين وأندونيسيا وباكستان وبنجلادش والجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى.

---

(١) انظر فى ذلك : الغارة على العالم الإسلامى : لـى شاتليه ، وانظر لنا الغزو الصليبى والعالم الإسلامى، نشر دار المنار القاهرة ط رابعة ١٤١٢هـ ١٩٩١ م .

* كل تلك حلقات من سلسلة متصلة تؤكد عداوة اليهود والنصارى للإسلام والمسلمين.

ولقد نَبَّهتُ - فى كثير مما كتبتُ[1] إلى أن كل حركة تنتمى إلى الإسلام فى أى قطر من أقطار العالم الإسلامى تضرب بقسوة وضراوة إن لم يكن ذلك بأيدى اليهود ومن ورائهم الغرب أو بأيدى الصليبين، فقد تكون بأيدى بعض حكام المسلمين!!!

٤ - وعلى الدعاة إلى الله والحركيين والتربويين أن يؤكدوا للمسلمين أن المستقبل لهذا الدين، وأن الله سوف يحق الحق ولو كره كل كاره وكل عدو وكل حاقد، مهما كانت الضربات العاتية التى توجه إلى المسلمين عمومًا وإلى الحركات الإسلامية، لأن هذا المستقبل لهذا الدين أخبر به المعصوم ﷺ، فهو لا ينطق إلا وحيًا يوحى.

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ثوبان رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها، وإنى أُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض، وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكوا بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربى عز وجل قال: يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يفنى بعضًا، وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين، وإذا وضع فى أمتى السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ قبائلُ من أمتى الأوثان، وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبى، وأنا خاتم النبيين لانبى بعدى، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله».

ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه بأسانيدهم عن ثوبان، وروى أحمد

---

(١) انظر لنا فى ذلك :

- الغزو الصليبى والعالم الإسلامى - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
- الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى - نشر دار المنار بالقاهرة.
- التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم . . نشر دار الوفاء بالقاهرة.
- سلسلة التربية فى القرآن الكريم : التى صدرت كلها فى سبعة كتب هذا الكتاب آخرها فى سورة : المائدة والنور وآل عمران والأنفال والأحزاب والنساء والتوبة : نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

بسنده عن عدى بن حاتم الطائى رضى الله عنه قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ فقال: يا عدىّ أَسْلِمْ تَسْلَم» فقلت: إنى من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنت أعلم بدينى منّى؟ قال: «ألستَ من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلتُ: بلى، قال: «فإن هذا لا يحل لك فى دينك» قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعتُ لها، قال: أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب؛أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد سمعت بها، قال: «فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولَتُفْتَحَنَّ كنوز كِسْرَىَ ابن هرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدىّ بن حاتم، فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

ثالثا:

ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ما يلى:

١ ـ أن علماء السوء ومروجى الضلال والإضلال يجب على الدعاة إلى الله أن يحذروا الناس منهم، حتى لا ينخدعوا بمعسول ما يقولون وما يعدون، وفى الحق ما يريدون من ذلك إلا منافع الحياة الدنيا والجاه والسلطان.

وعلى الدعاة إلى الله أن يذكر والناس بكلمة سفيان بن عيينة رحمه الله [1] وهى: مَنْ فسد من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فَسَد من عبادنا كان فيه شَبَهٌ من النصارى.

---

(١) هو من أجلاء التابعين من أهل مكة ولد سنة ١٠٧ هـ وتوفى سنة ١٩٨ هـ .

* ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ؟»

ورواه أحمد وابن ماجه بسنديهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ورواه الحاكم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

٢ - وعلى الدعاة إلى الله والحركيين أن ينبهوا الناس إلى أن فساد العلماء له علامات من أبرزها أنهم يأكلون الدنيا بالدين من أجل مكانتهم ومناصبهم، يأكلون أموال الناس بالباطل كما كان أحبار اليهود يفعلون، فقد كانوا يفرضون على الناس هدايا وضرائب، فلما بعث رسول الله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم خشية على مناصبهم وتلك الأموال التى يأكلون.

٣ - وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا ويعلموا الناس أن الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى يصدون الناس عن سبيل الله، وعن اتباع الحق فيلبسون الحق بالباطل، ويظهرون للناس أنهم يدعون إلى الخير. وهم على وجه الحقيقة يستحوزون لأنفسهم على هذا الخير بأكلهم أموال الناس بالباطل، وهم على وجه الحقيقة دعاة شر، يسوقون الناس به إلى النار.

* إن واجب الدعاة أن يطلبوا إلى الناس أن يفكروا وأن يتدبروا فيما يفعل أحبار اليهود ورهبان النصارى بأنفسهم وبالناس، إنهم عندئذ يعرفون الحقيقة مجردة من كل زيف وعارية عن كل تزويق وتزوير.

٤ - ويتعلم الدعاة إلى الله ويجب أن يعلموا الناس أنّ بعض الأغنياء وأرباب السلطة والجاه يقومون بعمل من فسد من العلماء ومن فسد من العُبَّاد، فيفسدون كثيرا من الناس، وكثيرا من النظم الاجتماعية العادلة، جريًا وراء مصالحهم الذاتية ومنافعهم الدنيوية، وهم بذلك الجاه وذاك المال يؤثرون فى الناس فيجعلونهم أتباعًا لهم، فيمارسون صفات الأغنياء وأرباب الجاه والسلطان فيما بينهم فيزداد المجتمع سوءًا ويعمه الفساد من أعلاه ومن أدناه، وبالتالى يفسد تَدَيُّن الناس ويقل احترامهم للدين، وقد

لحظ ذلك الشيخ الجليل ابن المبارك[1] فعبَّر بصدق عن السبب فى إفساد الدين فى قوله شِعرًا:

وهل أفْسَدَ الناسَ إلاَّ المـ ـلوك وأحبار سوء ورهبانها

فهؤلاء وأولئك عندما يكنزون الذهب والفضة فيمنعون بذلك حق الله وحقوق الناس فى تلك الأموال وهو الزكاة المفروضة والصدقات المندوبة، عندئذ يغرون الناس بالفساد، فيعزلون الدين عن حياتهم، وهذا أسوأ أنواع الفساد.

٥ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله من الآية ويجب أن يعلموا الناس أن شرَّ الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ليس مقصورا على أنفسهم باستحقاقهم عقاب الله فى الآخرة، وإنما يتعدى ذلك إلى إفساد العلاقات بين الناس وإثارة الأحقاد بينهم، ونشر الشرَّ فيهم، فالآية الكريمة تنفر بل تحرم كنز الذهب والفضة، وكل حرام تنفر منه النفوس الكريمة ثم جاء الحديث الشريف يعلم ماذا يكنزون من أجل دينهم ودنياهم.

ـ فقد روى أحمد بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكتنزوا هذه الكلمات: اللهم إنى أسالك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسالك قلبا سليما ولسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم. وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

ـ وروى الإمام أحمد بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: لما نزل فى الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأى المال نتخذ؟ فقال عمر رضى الله عنه، فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضع ـ أى أسرع ـ على بعير، فأُذنَ له وأنا فى أثره فقال يا رسول الله: أى المال نتخذ؟ قال: «قَلْبًا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة».

هكذا يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة، ويعلمون الناس.

---

(١) هو عبد الله بن المبارك الحنظلى المروزى أبو عبد الرحمن (١١٨-١٨١هـ) شيخ الإسلام الحافظ الفقيه الزاهد المجاهد ، أفنى عمره فى الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً اميناً صدوقاً ، من سكان خراسان له تصانيف عديدة نافعة من أهمها كتاب فى «الجهاد» قال عنه العلماء : إنه أول من صنَّف فى الجهاد. وقد مات رحمه الله بقرية «هيت» على الفرات ، وهو منصرف فى غزو الروم.

٦ ـ الآيتان السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون

نظام التوقيت العادل الصالح للناس جميعا

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾.

شرح هاتين الآيتين الكريمتين وتفسيرهما

تتحدث هاتان الآيتـان الكريمتان عن إقامة نظام التوقـيت على الوجه الأصلح، الذى يحقق الفـائدة والأمن للناس جميـعا مسلمـين وغير مسـلمين، دون أن تتدخل فى هذا التوقـيت أهواء بشرية من تحكم السادة والكبـار فى الضعفـاء من الناس، وتضع الآيتان نظاما للسلم والأمان أربعة أشهر من كل عام.

ذلك التوقيت وهذا النظام جاء به الدين القيم الذى أنزله الله على خاتم رسله وأنبيائه محـمد ﷺ، وعلى الناس الذين يريدون العيش فى سـلام أن يلتزموا بهذا التـوقيت إن أرادوا ما يصلحهم.

والهدف من هذا التوقيت هو إبطال النسيء، وتشنيع الالتجاء إليه أو التحايل به على تحقيق المكاسب الدنيوية والانتصـارات فى الحروب وما تجلبه من غنائم وأسلاب، جاءت عن طريق الأهواء الشخصية لبعض الزعماء والكبراء.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

ـ عدة شهـور السنة ـ كما ضبطهـا الله تعالى يوم خلق السمـوات والأرض اثنا عشر شهرا.

وهذا الضبـط يستهـدف إبطال ما أدخله الناس فـيهـا من تأخيـر يفضى إلى الفسـاد

والإفساد، إذ يزيل حرمة بعض هذه الأشهر التى كانت لها، ويكسب بعضها حرمة لم تكن لها.

وكان هذا من قبائح أعمال اليهود والنصارى والمشركين والظالمين عموما وهم جميعا أهل هَوًى.

* وهذه الشهور هى شهور السنة القمرية التى تبدأ بشهر المحرم، وتنتهى بشهر: ذى الحجة، والدليل على أنها الشهور القمرية لا الشهور الشمسية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يسألونك عن... والحج﴾ [البقرة:ليست٨٩].

﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أى فى تقديره وحكمه، وهو التقدير الذى وجُدتْ به المقدورات جميعا.

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها على التفصيل، وهذا اللوح المحفوظ هو أصل الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه ورسله عليهم السلام.

﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى أن الله تعالى حكم هذا الحكم وقَدَّر عدد الشهور وجعل ذلك النظام من يوم خلق السموات والأرض، أى أنه حكم وقضاء وتقدير قديم واكب خلقه سبحانه وتعالى للسموات والأرض أى لهذا العالم.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ حيث أجمع العلماء على أن هذه الأشهر الأربعة هى: ذو العقدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

ـ والتحريم هنا لا ينصَبُّ على الشهور نفسها ولكنه ينصبُّ على حرمة القتال فيها ومنعه لتكون بمثابة هدنة وراحة من عناء القتال والاستعداد له، وفرصة لكى يراجع المتقاتلون أنفسهم، لعل هذه الهدنة تجعلهم يفكرون فى الصلح والسلام.

ـ كما يدخل فى المعنى أن هذه الأشهر الأربعة يكون التقرب إلى الله تعالى فيها بطاعته سبحانه أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا، كما تكون المعصية له سبحانه أشد عقابًا.

* وقد مَيزَ الله تعالى هذه الأشهر بتلك الميزة، كما ميز البلد الحرام مكة على سائر البلدان، وميز البيت الحرام، وميز يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع، وميَّز يوم عرفة

على سائر أيام السَّنَة بتلك العبادة «الحج» وميز شهر رمضان على سائر شهور السنة فأوجب صومه، بل ميز بعض ساعات اليوم على سائر ساعاته فأوجب فيها صلوات خمس كل منها فى ساعة بعينها، وميَّز بعض الليالى على غيرها كليلة القدر، وميز بعض الناس بأن اختار منهم أنبياء ومرسلين، كل ذلك لحكمة يعلمها سبحانه لابد أن تعود على مخلوقاته وبخاصة الإنسان بالفائدة فى الدين والدنيا معا.

- ومن أجل هذا كان تغيير الناس لهذا النظام ضاراً بهم فى سلمهم وحربهم وشئونهم كلها، بل لابد من الاعتراف بتمييز الله تعالى لبعض الناس على بعض ولبعض الأزمنة على بعض .

﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾

كلمة ذلك: إشارة إلى عدة الشهور الاثنى عشر وإلى جعل أربعة منها حرما، أى ذلك النظام فى التوقيت بالأشهر القمرية وفى تحريم هذه الأربعة الأشهر - على نحو ما بينا - هو الدين المتكامل، وما عداه من الأديان أو النظم لا يخلو من نقص، كما لا يخلو من تغلُّب المصالح الشخصية والأهواء على المصالح العامة والحق والعدل.

و﴿الدِّينُ﴾ هو: النظام المنسوب إلى الله تعالى الذى يجب على الناس أن يدينوا له ويلتزموه، لأن فيه مصالح معاشهم ومعادهم.

﴿الْقَيِّمُ﴾ أى المستقيم الذى يكسب الناس الاستقامة لو التزموا به، وإذا استقام الناس على قيم الدين ومنهجه سعدوا فى حياتهم الدنيا وفى حياتهم الآخرة.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ .

أى لا تظلموا أنفسكم بالوقوع فى المعاصى فى هذه الأشهر الحرم خصوصا، وفى غيرها عموما. أو لا تزهدوا فى أن يزيد ثوابكم فيها بالطاعات فهى أشهر مفضلة مميزة أو: لا تمارسوا النسىء فى هذه الأشهر بتأخير بعضها أو تقديمه، أو: باستحلال القتال فى هذه الأشهر الحرام.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ .

أى: قاتلوهم جميعا أى بأجمعكم لا يتخلف منكم أحد قادر على القتال كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة، والهدف هو الحشد بكل الإمكانيات لقتال المشركين لأنهم

شر ونجس وأعداء للإسلام والمسلمين.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون هم الذين يخشون الله تعـالى ويطيعونه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومما أمر به قتـال المشركين كافة، ومما نهى عنه الأخذ بنظـام النسىء، فمن فعل هذا واجتنب ذلك كان متقيا لله، وكان الله تعالى معه، وحسب الإنسان شرفا وتوفيقا وتأييدا أن يكون الله تعالى معه.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾

النسىء: التأخير، أى تأخير حرمة شهر عن وقته.

ـ وقد لجأ الناس إلي النسىء لأسباب عديدة منها:

* رغبتهم فى الإغارة المباغتة دون انتظار لتوقيت معين.

* وتحقيق مصلحة مادية كالتجارة ونحوها.

* ورغبتـهم فى ألا يأتى موسم الحج فى الأوقات التى لا ينشط الناس فيهـا للتجارة والمرابحة، كالأشهر الشديدة الحر والأشهر الشديدة البرد والقر.

وكل هذه الأسباب مرفوضة لأنها تقوم على الأهـواء وعلى تحقيق المصالح الشخصية دون المصالح العامة للناس جميعا.

ـ وكان هذا التوقيت الذى اختاره الله تعالى قديما من أيام إبراهيم عليه السلام بل من يوم خلق السموات والأرض حيث بنى الأمر على رعاية الأشهر القمرية، ثم أعاد عليهم ذلك على لسـان محمـد ﷺ، فكان التجـاؤهم للنسىء رفـضا لهـذا التوقيت الـصالح المصلح، وكفرا بالله تعالى وبالنظام الذى وضعه، بل هو زيادة فى الكفر.

قال الواحدى [(1)]:

أكثر العلماء على أن هذا التأخير ما كـان يختص بشهر واحد، بل كان ذلك حاصلا فى كل الشهور.

وكان مقتضى تأخيرهم لبعض الشهور، أن يخرج الحَجُّ عن الوقت الذى حدده الله له

(1) فى كتابه : أسباب النزول.

وهو شهر ذى الحجة، ليقع فى محرم أو صفر أو فى غيرهما.

واتفق العلماء على أن الرسول ﷺ لما أراد أنه يحج فى سنة حجة الوداع وهى آخر حجة للرسول ﷺ للبيت الحرام وكان ذلك فى السنة العاشرة للهجرة، فى هذه الحجة كان الحج قد عاد إلى شهر ذى الحجة، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، السَّنَة اثنا عشر شهرا» وأراد أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها.

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

والمعنى أن رؤساءهم عندما ينسئون لهم يضلونهم، إذ يحملونهم على قبول هذا التغيير، وما كان لهم ولا لرؤسائهم أن يفعلوا هذا فعندما فعلوه كفروا.

﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾

أى يحلون هذا التأخير عاما لأنه يوافق أهواءهم، ويحرمونه عاما آخر تبعا لأهوائهم أيضا.

﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

المواطأة: الموافقة، والمعنى كما قال ابن عباس رضى الله عنهما: «إنهم ما أحلُّوا شهرا من الأشهر الحرم إلا حرّموا مكانه شهرا من الحلال، ولم يحرموا شهرا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة» وتلك هى المواطأة.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾.

الذى زين لهم هذا العمل السيىء هم رؤساؤهم وكبراؤهم، أو هم الشياطين التى أغْوَتْ رؤساءهم فأغواهم رؤساؤهم بمخالفة دين الله ونظامه.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: زيَّن لهم الشيطان هذا العمل والله لا يرشد كل كفار أثيم.

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أى يعلم عنهم كفرهم وعنادهم فيتركهم دون إرشاد وهداية بعد ما أرسل إليهم الرسل بالبينات.

المواقف التربوية العامة فى هاتين الآيتين

يتعلم المسلمون من هاتين الآيتين الكريمتين دروسًا هادية فى وجوب الالتزام بنظام الله ومنهجه مع الأخـذ بكل ما جاء به دون استثناء، لأنه الدين القيم ونحـاول أن نشير إلى تلك الدروس فيما يلى:

أولا:

يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ـ الآية الأولى ـ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ. . .﴾ الآية، ما يلى:

١ ـ أن الله تعالى رحيم بعباده دائما، ومن رحمته بهم أنْ وقَّتَ شهور السنة فجعلها اثنى عشر شهرا، وفى ذلك تحقـيق مصالحهم المنظورة وغير المنظورة، وتلك سنة الله فى رحـمتـه بخلقـه من يوم خلقـه السمـوات والأرض، وقـد أودع ذلك النظام فى اللوح المحفوظ، وبلغه إبراهيم وإسماعيل، وجدَّد هذا التبليغ فى رسالة محمد ﷺ.

والدرس المستفاد من ذلك هو الالتزام بنظام الله تعالى فى هذا التوقيت وذاك التحريم بل الالتزام بنظامه فى أى مجال.

٢ ـ ويتعلمـون أن الخروج على توقيت الله تعـالى ونظامه، كفـر بالله وبنظامه، بل زيادة فى الكفر، لأنه خروج عن أمر الله تعالى وإنكار وتكذيب لدينه القيم.

وفى ذلك ظلم للنفس بتعريضها لغضب الله تعالى وعقابه، كما أنه تفويت للمصالح فى الدنيا والآخرة.

٣ ـ ويتعلم المسلمون من هذه الآيـة الكريمة أنهم مطالبون بالتعامل بالأشهـر القمرية عموما، وفى صوم رمضان وحج البيت الحرام على وجه الخصوص، وفى إخراج الزكاة وفى كل عبادة تحتاج إلى توقيت، والأهلة مواقيت للناس والحج.

* فالتـوقيت بالأهلة والأشـهـر القمرية جـزء من شخصيـة المسلم لا يجـوز له أن يتخلـى عنه، وما دام الله تعالى هـو الذى وقت هذا التوقيت فـإن فيـه مصالـح الدنيا والآخرة.

٤ ـ وأن شهور السنة الأثنى عشرة فيها أربعة أشهر لا يجوز فيها القتال، هدنة وراحة ومراجعة وإيثارًا للسلام وبعدًا عن مشقات القتال.

* وأن هذه الأشهر الحرم يعظم فيها ثواب الطاعة، كما يشتد عقاب المعصية، فكأن الله تعالى قد أعطى للمسلم فرصة عظيمة بأنه إن كان أمضى سائر أشهر السنة فى الطاعة، فليزد فى الأشهر الحرم من تلك الطاعة ليحظى بأعظم ثواب.

وإن كان قد عصى الله فى سائر أشهر السنة، فليخف الله تعالى وليكف عن المعصية في هذه الأشهر الحرم تجنبًا لشدة العقاب فيها على المعاصى.

٥ ـ وأن المسلمين يجب أن يتهيَّأوا دائما لقتال المشركين بكل طاقاتهم وبجميع القادرين منهم، لأن المشركين هم العقبة فى سبيل الحق والخير والهدى، فقتالهم مستمر حتى لا يعبد غير الله فى الأرض.

وعلى المسلمين أن يتقوا الله فى كل ما أمر بامتثاله، وفى كل ما نهى عن اجتنابه ليكون الله معهم يوفقهم ويؤيدهم وينصرهم فتقوى الله مجلبة لكل خير، ومانعة لكل شر.

ثانيا:

يتعلم المسلمون من الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كفروا...﴾ الآية...: دروسًا كثيرة نشير منها إلى ما يلى:

١ ـ أن كل تغيير أو تبديل لأى نظام وضعه الله تعالى فى أى جانب من جوانب حياة الإنسان، هو كفر بل زيادة فى الكفر، لا يجوز لعاقل أن يقع فيه، لأن الله ما وضع النظام إلا ليتبع، وما شرعه إلاَّ لما فيه من مصلحة الناس فى معاشهم ومعادهم، وسواء أكان هذا النظام توقيتًا، أو قصاصا، أو حدًا من الحدود التى تقام على مرتكبى الجرائم، أو قيمًا خلقية، أو نظما اجتماعية فى الأسرة أو فى المجتمع كله، أو فى التعامل مع غير المسلمين من أعداء وغير أعداء، كل هذه الأنظمة ـ وهى كثيرة وشاملة ـ يعتبر الخروج عليها كفرا بالله، بل زيادة فى الكفر لمقابلة نعمة وضع النظام بهذا الجحود والنكران.

* وما حرَّم الله القتال فى أشهر بعينها إلا لمصلحة، ولا أمر به فى مواجهة أنواع من الناس إلا لمصلحة كذلك، وما على عباد الله أو عبيده إلا أن يلتزموا.

٢ ـ وأن المُضَلَّلين عن نظام الله ومنهجه من الرؤساء والكبراء والساسة إنما يمارسون الكفر والعناد وتحدى نظام الله تعالى، وأن المُضَلَّلين، الذين استجابوا للخروج من منهج الله ونظامه إنما يمارسون الكفر بالله وبمنهجه وما وضع من نظام.

هؤلاء المضَلَّلين والمضلِّلين فى الكفر سواء، وفى العقاب سواء وهؤلاء جميعا لا يضيرون الله شيئًا بل لا يضيرون منهجه ونظامه وإنما يلحقون بأنفسهم أفدح الأضرار.

ومن المسلَّم به فى ديننا الخاتم أنَّ أحدا كائنًا مَنْ كان لن يبلغ بعمله الصالح مبلغ أن ينفع الله، ولن يبلغ بعمله الفاسد مبلغ أن يضر الله فالله أكبر وأجل من أن يستفيد من عمل الصالحين أو يتضرر بكفر الكافرين، إنما هى أعمالهم يحصيها عليهم فى الدينا ويحاسبهم بها فى الآخرة، وسنذكر فى ذلك حديثًا قدسيًا بعد قليل.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هاتين الآيتين

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هاتين الآيتين دروسا تثْرى عملهم وتوجهه نحو الوجهة الصحيحة، ومن هذه الدروس ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١ ـ يتعلم الدعاة إلى الله أن الآية الأولى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ...﴾ الآية ما يلى:

أ ـ أن الله تعالى بيده الملك وبيده الأمر، وأنه سبحانه لم يترك عباده دون أن يختار لهم النُّظم التى تصلح لهم حياتهم، وأن من هذه النظم نظام توقيت السنة فى اثنى عشر شهرا منها أربعة حرم، وقضى سبحانه أنه من اتبع نظامه فى أى جانب من جوانب حياة الإنسان فقد أطاع ربه أولاً وحقق مصالحه كلها.

* إن على الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن اتباع منهج الله ونظامه طاعة لله وعبادة له، والله سبحانه وتعالى يحب أن يتقرب إليه عباده بالتزام ما شرع لهم من نظام، بل يحب هؤلاء الملتزمين ويجزيهم فى الدنيا والآخرة أحسن الجزاء.

فقد روى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ قال الله

عز وجل: «من أذلَّ لي ولياً [1] فقد استحل محاربتي ، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء الفرائض، وما يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، إن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن وفاته لأنه يكره الموت وأكره مساءته».

ب ـ وأن الله تعالى قد اختار لعبادته أوقاتا تكون فيها الحسنات أكثر تأثيرا في طهارة النفس، وتكون فيها السيئات والمعاصي أقوى تأثيرا في خبث النفس وفسادها، فعلى العاقل أن يختار ما هو أصلح له.

ويعزز هذا المعنى ما ثبت من أن هناك أوقاتا ترجى فيها إجابة الدعاء، فقد سئل رسول الله ﷺ: أي الصيام أفضل؟ فقال فيما رواه النسائي بسنده عن جندب رضي الله عنه: «أفضل الصيام بعد رمضان الشهر الذي تدعونه المحرم».

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم».

وروى البزار بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل أيام الدنيا أيام العشر» وهي العشر الأولى من ذي الحجة والعشر الأخيرة من شهر رمضان، أو عشر من المحرم.

وكذلك فضَّل الله بعض الأمكنة فضاعف فيها على العمل الثواب كالمسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجد الرسول ﷺ.

٢ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله أن هذه الشهور القمرية قد اختارها الله تعالى توقيتا لعباده المؤمنين في عباداتهم وفي حياتهم عمومًا وأسماء هذه الشهور تدل على ما يمارس فيها من عمل:

ـ فالمحرَّم: شهر حرم فيه القتال ـ وهو من الأشهر التي كانت تنسأ في الجاهلية ليحلوا فيه القتال.

ـ وصفر: تصبح بيوتهم فيه صفراً من رجالها إذ يخرجون للقتال، فتخلو منهم بيوتهم.

---

(١) وفي رواية: «من آذى لي وليًا» وكلاهما صحيح.

- وربيع الأول: يَرتبِعون فيه أى يقيمون فى عمارة الربيع.

- وربيع الآخر: يرتبعون فيه أيضا.

- وجمادى الأولى: لجمود الماء فيه من البرد [1].

- وجمادى الأخرة: لجمود الماء فيه أيضا من البرد.

- ورجب: أى مُعَظَّم من الترجيب وهو التعظيم، ومن تعظيمهم له ألا يقاتلوا فيه.

- وشعبان: فيه تتشعب القبائل وتتفرق للغارة والعدوان.

- ورمضان: من شدة الرمضاء وهو الحر أو العطش.

- وشوال: لأن الإبل تشيل فيه بأذنابها طالبة الطراق أى التقليح.

- والقعدة: لقعودهم عن القتال والترحال.

- والحجة: لأنهم يحجون فيه.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بقول قتادة[2] فى ذلك الاختيار وتفضيل بعض المخلوقات على بعض، فقد قال: «إن الله اصطفى صفيًا من خلقه؛ واصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، واصطفى من الكلام ذِكْره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالى ليلة القدر، فعظموا ما عظَّمَ الله، فإنما تعظيم الأمور بما عظَّمَها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل».

٣ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن حرمة الأزمنة والأمكنة إنما تتلقى عن الوحى الإلهى إلى رسول من رسله، فهو وحده سبحانه وتعالى الذى خلق السموات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما، فهو وحده الذى يسُنُّ لهذا العالم نظامه، فبذلك تستقر حرمة كل ذى حرمة فى نفوس جميع الناس، فإذا أدخل بعض الناس

---

(١) ولابد أن تكون هذه التسميات قد أطلقت على هذه الشهور التى يشتد فيه البرد فيجمد الماء كشهور ديسمبر ويناير مثلاً.

(٢) هو قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسى البصرى ولد سنة ٦١ هـ وتوفى فى الطاعون بواسط سنة ١١٨ هـ، وكان مفسراً للقرآن حافظاً للسنة النبوية حتى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة وكان رأساً فى مفردات اللغة وأيام العرب.

تغييرا على هذه الحرمات تنازعوا وفسد ما بينهم لأن كلاً سوف يتعصب لرأيه أو هواه. ومن أجل أنَّ التجرؤ على تغيير نظام الله تعالى كفر بالله وبنظامه بل زيادة فى الكفر، كان الالتزام بهذا النظام إيمانًا وإسلامًا وعدلاً وإحسانًا، وتقوية للمعانى الإنسانية والروابط الاجتماعية.

٤ ـ وقد أبطل الله النسىء ودحض نظامه الظالم بأن أوحى إلى رسوله ﷺ أن هذا العام الذى يحج فيه ﷺ وهو العام العاشر من الهجرة ـ حجة الوداع ـ يوافق يوم الحج منه يوم تسعة من ذى الحجة على الحساب الذى يتسلسل من يوم خلق الله السموات والأرض، وأن فى هذا اليوم ينـدحض أثر النسيء وينتهى، ولذلك قال الرسول ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض».

قال العلماء: فصادفت حجة أبى بكر سنة تسع أنها وقعت فى شهر ذى القعدة بحساب النسىء، فجاءت حجة النبى ﷺ عليه وسلم فى شهر ذى الحجة فى الحساب الذى جعله الله يوم خلق السموات والأرض.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن الذين يغيرون من نظام الله فى أى ناحية من نواحى الحياة التى وضع لها نظامًا كأولئك الذين اعتمدوا النسىء قديما، وأن هؤلاء، وأولئك جهلة مغرورون أصحاب أطماع وأهواء، وأنهم مهما غيروا أو بدلوا فى نظام مما وضعه فلن يضروا إلا أنفسهم، وحاشا لله أن يناله نفع من طاعة الطائعين أو ضرر من معصية العصاة.

فقد روى الترمذى بسنده عن أبى ذرّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يا عبادى كلكم ضال إلا من هديت فسلونى الهدى أهدكم، وكلكم فقير إلا من أغنيتُ فسلونى أرزقكم، وكلكم مذنب إلا من عافيت؛ فمن علم منكم أنى ذو قدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرتُ له ولا أبالى، ولو أن أولكم وآخركم وحيَّكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ما زاد ذلك فى ملكى جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى ما نقص ذلك من ملكى جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغتْ أمنيّته، فأعطيت كل سائل منكم، ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو أنّ

أحدكم مرَّ بالحبر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه، ذلك بأنى جواد واحد ماجد أفعل ما أريد، عطائى كلام، وعذابى كلام، إنما أمْرِى الشىء إذا أردت أن أقول له كن فيكون».

وبعد:

فهكذا ينشر الدعاة إلى الله دعـوته بين الناس على هذه الأسس الراسخة من الإيمان، وعلى هذه المعالم الواضحة من الإسلام، وعلى هذه القيم الرفيعة من العدل والإحسان، وعلى هذه الأعمال النافعة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

٧ - الآيات الكريمة من الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الحادية والأربعين

حث من الله تعالى للمؤمنين على الجهاد فى سبيله

وتأنيبه لهم على التثاقل عن الجهاد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾ .

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها.

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله عن طريق تأنيبهم على التباطؤ فى إجابة الدعوة إلى النفير العام إلى الجهاد وبخاصة فى غزوة تبوك التى تخلف عنها بعض القبائل وعدد من المنافقين وعدد من المؤمنين.

وفيها تهديد ووعيد لمن يتثاقلون فيتخلفون عن الجهاد، مع التأكيد على أن تثاقلهم لن يغير النصر ولن يبطىء به، فالله تعالى قد نصر نبيه فى مواقف أشد وأصعب، فقد نصره ثانى اثنين إذ هما فى الغار فأنزل سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا.

وفى الآيات تنبيه للمؤمنين على وجوب النفير لكل جهاد فى سبيل الله، فى مستقبل الأيام، ففى ذلك الخير للمؤمنين وللأمة المسلمة فى حاضرها ومستقبلها.

وإلى الحديث عن تفصيل ذلك والله المستعان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ...﴾ .

هذا خطاب للمؤمنين الذين تباطئوا، أو قعدوا عن المشاركة فى غزوة تبوك - جيش

العُسْرة - يتضمن تحريضا لهم على الجهاد فى سبيل الله.

قال المفسرون: لا اختلاف بين العلماء على أن هذه الآية الكريمة نزلت عتابًا لمن تخلفوا عن غزوة تبوك أو تثاقلوا عنها.

ومن المعروف أن غزوة تبوك كانت فى وقت حر شديد، ويلزمها سفر بعيد، والمسلمون يومئذ فى حاجة إلى العُدَّة والعتاد؛ من خيول وسلاح، وهم فى شدة من أمرهم ولذلك سميت: غزوة العُسْرة، ومن أجل تلك الظروف الصعبة لم يُورِّ رسول الله ﷺ عن مقصده وإنما صرح به، على عكس ما كان يفعل فى الغزوات الأخرى، وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليتأهب المسلمون فيذهبوا مستعدين، فلم يستجيب بعضهم فعاتبهم الله تعالى على ما فعلوا، وتوعَّد، وهدَّد كل من يقعد عن الجهاد فى سبيل الله أو يتباطأ عنه فيما بعد، لأن الجهاد فى سبيل الله هو الأمان للأمة المسلمة من عدو متربص أو مهاجم.

- والنَّفْر: الخروج السَّريع من موضع إلى آخر لأمر يحدث. ويطلق النفر على الخروج إلى الحرب.

- وفى سبيل الله: يعنى الجهاد، كأنه الطريق إلى الله.

- واثاقلتم: أى تباطأتم وتظاهرتم بأنكم لا تستطيعون النهوض إلى الجهاد فى سبيل الله.

- إلى الأرض: الأرض هنا تعنى الرغبة فى القعود عن الجهاد والبقاء فى الأرض أى بساتينهم التى أثمرت، رغبة منهم فى الراحة إلى الظلال والمياه والثمار.

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾.

الاستفهام فى هذه الآية للإنكار وللتوبيخ، إنكار على قعود قد يحدث، وتوبيخ على قعود قد حدث بالفعل عن الجهاد فى سبيل الله، وإنكار على من يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، لأن ذلك لا يليق بالمسلم.

﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هو التلذذ بما فيها من النعم ووسائل الراحة، مع أن كل ما فى الدنيا من متع وملذات لا قيمة له إذا قيس بما فى الآخرة، لكثرة ما فى الآخرة من نعم ومن عمق التلذذ بها واستمرارها، فإن متع الآخرة لا تفوت المؤمنين فتتحول عنهم، ولا

يفوتونها هم بالتحول عنها ـ كما يحدث لمتع الحياة الدنيا ـ وغافلٌ ذلك الذى يؤثر القليل على الكثير!!! أو الزائل على الدائم!!!

* ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذه الآية الكريمة وعيد وتهديد، بعد اللوم والتأنيب على التثاقل الذى حدث.

والمعنى: إن عدتم إلى مثل هذا التثاقل ليكونَنَّ لكم عند الله جزاءٌ شديد هو:

ـ عذاب أليم فى الآخرة على هذا التناقص والتثاقل والقعود، أو عذاب فى الدنيا بمصائب تترتب على إهمالكم وقعودكم وترككم لأسباب النجاح التى يجب أن تأخذوا بها من استعداد وإعداد وسرعة إجابة، وحسبكم فى وقوع هذا العذاب عليكم أنكم تركتم نَصَائح النبى ﷺ.

ـ فهم مهددون بأنهم إذا قعدوا عن الجهاد هاجمهم عدوهم فى ديارهم فاستأصلهم، وتلك سنة فى القاعدين عن الجهاد سنَّها الله تعالى فى كل زمان ومكان.

ـ وتغيير هؤلاء القاعدين المتباطئين بقوم غيرهم أحسن منهم يسرعون فى الاستجابة لداعى الجهاد، ولا يؤثرون متع الحياة الدنيا.

﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾.

ـ وهذا تهديد آخر، أى أنكم إذا قعدتم عن الجهاد وعصيتم الله ورسوله، فلن يكون فى عملكم هذا ضرر لله ورسوله، وإنما هو ضرر لأنفسكم، لأن الله لا يضره أحد ولا شيء فهو سبحانه على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ...﴾.

أى إن قعدتم فلم تنصروه فى هذه المعركة فإن الله تعالى ينصره بدونكم، فقد نصره الله من قبل وكان المسلمون قلة ضعافًا.

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...﴾ الآية.

هذا تأكيد للمؤمنين بأنهم إن قعدوا عن نصر رسول الله ﷺ فإن الله تعالى قد يحقق له النصر دون نصير من الناس، بدليل أنه نصره فى الغار حين لم يكن معه إلا صاحبه

أبو بكر الصديق وكان المشركون على باب الغار، ولا جيش معه ولا قبل له بمواجهة هؤلاء الأعداء ولكن الله نصره وأيده وقوى قلبه وجعله يقول لصاحبه: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ليطمئنه على أن الله تعالى لن يتخلى عنهما.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ. . .﴾.

السكينة: الاطمئنان والثقة والشعور بالأمن بعد زوال الخوف وأسبابه.

وقيل: السكينة: مَلَك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه، وعموما؛ هى مظهر من مظاهر نصر الله تعالى وتأييده.

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

التأييد: المناصرة والتقوية.

والجنود: الجيش.

والمعنى: أن الله تعالى نصر رسوله ﷺ فى أحوال وظروف ما كان النصر ليحصل فى أمثالها لغيره، لكن عناية الله تعالى أدركته ورعايته أحاطت به فنصره أولا: بإنزال السكينة عليه، ثم نصره بجنود لم تروها من مخلوقاته كالملائكة ونحوهم.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ . . .﴾.

الكلمة تعنى هنا: الشأن والأمر، والمقصود بها: كيد الكافرين للرسول ﷺ وما دبروه له من أنواع المكر والأذى كالسجن والإخراج والقتل، وقد جعل الله كل ذلك باطلاً غير مُجْدٍ ولانافع لهم، وإنما جعل شأنهم حقيرًا وكيدهم باطلاً وجعلهم مغلوبين مع أنهم أصحاب عَدَد وقوة، وفيهم أهل الرأى والذكاء، وذلك هو معنى أن كلمتهم هى السفلى.

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

كلمة الله هى إرادته وأمره ودينه ومنهجه.

والمعنى: أن الله تعالى جعل كلمة الذين كفروا السفلى، وجعل كلمته هى العليا المستقرة الثابتة الرفيعة الشأن، فتلك سنته سبحانه وتعالى فى نصر الحق وتأييد أصحابه ورعايته مهما كانوا فى قلة عَدد وعُدد، ومن سنته قهر الباطل وأهله مهما كانوا فى

عديد وعدة. تلك سنته التى لا تتخلف أبدا، وقد طبقها الله على رسوله وصاحبه إذ هما فى الغار وطبقها فى معركة بدر الكبرى وطبقها فى معركة حنين، ويطبقها فى كل معركة يتوجه المسلمون فيها بجادهم إلى طاعة الله وامتثالهم لأمره.

﴿واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

عزيز: لا يغلب، ولا يغلب له ولى أو مطيع أو مجاهد فى سبيله.

حكيم: لا يفوته مقصد ولا تخفى عليه خافية، ويدبر كل أمر على أحسن ما يكون التدبير، فلا جرم أن تكون كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، بل كلمة كل عدو لله ولمنهجه ونظامه هى السفلى دائما.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

- النفير المأمور به فى هذه الآية الكريمة هو ما يستقبل من الجهاد فى سبيل الله. وقد جاء بصيغة الأمر الموجه للمؤمنين في كل مكان وزمان، وقد أوضح ذلك رسول الله ﷺ، فيما رواه البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية [(1)] وإذا استنفرتم فانفروا».

﴿خِفَافًا وَثِقَالاً﴾.

أى فى كل حال، لأن أمر المجاهد لا يخلو من أن يكون أحد هاتين الحالتين أن يكون خفيفا أو ثقيلا، مشاة وركبانا.

وقيل: الخفاف: السراع إلى القتال، والثقال: الثابتون أمام العدو، أو المجاهدون على الخيول فهم أخف فى الحركة، والرجَّالة أى الماشون على أرجلهم فهم أثقل.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

- الجهاد: بذل الوسع والطاقة فى مغالبة العدو، والعدوُّ: عدو الله ورسوله ودينه ومنهجه ونظامه.

---

(1) أى نية الجهاد التى يجب أن تصاحب المسلم فى كل عمره إذا لم يكن هناك جهاد فعلى، وما تصاحب نية الجهاد المسلم مات - والعياذ بالله - على شعبة من النفاق أو أصابه الله بقارعة يوم القيامة - كما جاء ذلك فى أحاديث الرسول ﷺ.

ـ والجهـاد بالمال: أى إنفاقه على الجـهاد فى سبـيل الله ومتطلباته من إعـداد الجيش وتسليحه، وتأمين كافة احتياجاته، وهو من الأهمية بمكان لا يقل عن الجهاد بالنفس.

ـ والجهاد بالنفس: القتال والالتحام مع العدو، ومحاولة قتله أو أسره.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ذلكم: إشارة إلى الجهاد بالمال والنفس.

خير لكم: خير عام لكم فى الدنيا بالنصر على عدوكم، أو الاستشهاد فى سبيل الله وكل من النصر والشهادة فى سبيل الله حُسْنَى، كما سماها الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥٢].

وخيـر لكم فى الآخرة، إذ يثـيبكم الله على طاعـتكم أجزل الثـواب وأحسنه، وهو جزاء المجاهدين فى سبيل الله.

أى ابذلوا المال والنفس فى الجـهاد لإعـلان كلمة الله، فـفى ذلك العز لكم والخـير العمـيم، إن كنتم من أهل العلم الصحيح والمعـرفة الحقـة التى تدرك ببصيرتهـا ما وراء الجهاد فى سبيل الله من خير.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا وعبرا تحيى فى نفوسهم حب الجهاد فى سبيل الله، وتوقفهم على أثره الكبير فى حاضر المسلمين ومستقبلهم، ومن تلك الدروس ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من الآية الكريمة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾** الآية ما يلى:

أ - أن ترك قتال الأعداء من الكفار الذين يتحدون الله ورسوله ومنهجه، ودعوته، ترك قتالهم منكر يبغضه الله تعالى، مهما كانت مبررات الإنسان فى تركه، وعلى سبيل المثال:

ففى غزوة تبوك تجمع من الأسباب ما يمكن أن يتذرع به المتثاقلون من:

- كثافة جيش العدو - الروم - وقوته.

- وشدة الحر والقيظ فى ذلك الوقت.

- وأن الثمر قد أدرك فى المدينة، وأن الناس يحبون البقاء فى بساتينهم فى الثمار والظلال والمياه.

ولكن هذه الأسباب جميعا لا تبيح للمسلم أن يقعد عن الجهاد فى سبيل الله أو يتثاقل عنه.

ومعنى ذلك أن الجهاد فى سبيل الله لا يتوقف لسبب من الأسباب ما دام النفير طالبا الناس ليجاهدوا.

ب - وأنه لا ينبغى لأمور الدنيا ومتعها وملذاتها ومشاغلها أن تحول بين المسلمين والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، لأن هذه المتع إلى زوال، وفى الوقت نفسه هى متع حافلة بالآفات والبليات، ولا وجه للمقارنة بين متع الدنيا ومتع الآخرة فهى متع نبيلة خالية من الشوائب والآفات، ومستمرة دائما، فمهما كان متاع الدنيا فهو

قليل إذا قورن بمتاع الآخرة.

على أن ترك الجهاد فى سبيل الله أو التثاقل عنه فيه ضرر بالغ بالأمة الإسلامية كلها فى حاضرها ومستقبلها، إذ مع ترك الجهاد يكون الضعف والذل والضياع.

حـ ـ ويتعلمون من الآية الكريمة أن حكم الجهاد فى سبيل الله هو الوجوب، وبخاصة إذا استنفر المسلمون له، ودليل الوجوب أن الله تعالى استنكر على المتثاقلين تثاقلهم فضلاً عن القعود عن الجهاد فلو لم يكن الجهاد واجبا ما استنكر الله تعالى التثاقل عنه.

ومن أجل الجهاد ووجوب النفر وتحمل أعباء الجهاد استنكر الله على من ترك الجهاد ورضى بمتاع الحياة الدنيا.

٢ ـ ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما يلى:

أ ـ أنّ أحكام الجهاد كثيرة، أو المتخلف عنه يقع فى محاذير ثلاثة كلها تعود عليه بالضرر فى الدنيا والآخرة، وهى:

ـ أن يتعرض لعذاب الله الأليم فى الآخرة لأنه خالف أمره. أو لعذاب الدنيا بالهزيمة والانكسار أمام العدو، كما يفهم ذلك مباشرة من قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ـ واستبدال الله تعالى بالقاعدين من هم خير منهم وأقرب إلى الله وأطوع له وأسرع استجابة إلى ندائه، ومن يستبدل الله تعالى به غيره، فقد طرحه ونفاه عن معيته ورضاه، وهو بذلك فى أسوأ حالات الخسران.

ب ـ وحدوث الخيبة والخزى والهوان للقاعدين، وذلك أنهم عندما قعدوا عن الجهاد تصور بعض الغافلين أن قعود هؤلاء عن الجهاد قد ألحق ضررا بالله ورسوله ودينه ومنهجه ونظامه، إذ الحق الذى لا مِرْيَةَ فيه أن أى عمل من الأعمال كبر أو صغر، وجل عامله أو حَقُر، لا يمكن أن يتسبب فى إلحاق أدنى ضرر بالله ورسوله ودينه ومنهجه ونظامه وأوليائه، لأن الله تعالى وعد بنصر رسوله وأوليائه والمؤمنين فى كل زمان ومكان، ولن يتوقف نصره على قعود أحد أو جهاده.

فما هو إلا الخزى لمن ظنوا هذه الظنون.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الآية ما يلى:

أ - أن نصر الله لرسوله وأوليائه وللمؤمنين فى كل مكان لن يتوقف على تأييد أحد أو مناصرته أو دعمه المادى أو المعنوى، وإنما يجعل الله لنصره من الأسباب ما يهيئه الله لعباده مما يتصورون ومما لا يخطر لهم على بال، ومما لا تراه عين ولا تسمعه أذن.

والدليل على ذلك أن الله تعالى نصر رسوله وهو ثانى اثنين فى الغار، وكل القوى المرعبة الحاقدة المنتوية أقسى أنواع الشر محيطة به.

ونصره فى بدر الكبرى بتلك القوة القليلة العَدَد البسيطة العُدَد على أعداء يفوقونهم عددا وعدة لأن الله تعالى أراد للحق أن ينتصر على الباطل فى بدر فلا تشق على نفسك بالبحث عن الأسباب!!!

ونصره فى حنين وفى مواطن كثيرة فى غزواته وسراياه وبعوثه بأسباب لايدركها إلا البصراء من ذوى الإيمان الراسخ واليقين المكين بنصر الله.

ب - وأنه تعالى إذا أراد أن ينصر أولياءه فإنه يختار لهم جنودا لا يراها الناس، وقد يحس بها المؤمنون ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة كما هو ثابت معروف فى كتب السيرة النبوية، ودائما يكون هدف نصر الله تعالى للمؤمنين أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وما أسعد المؤمنين المجاهدين الذين يجعلهم الله سببا فى أن تكون كلمته هى العليا!!! وما أتعس الذين لا يفقهون ذلك ويتخلون عن الجهاد فى سبيل الله!!! إنهم أخيب عباد الله وأبعدهم عن التوفيق!!!

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يلى:

أ - أن الجهاد فى سبيل الله عند النفير العام واجب على كل قادر عليه، ولا يستثنى من المجاهدين إلا أصحاب الأعذار التى تحول بينهم وبين الجهاد كالعمى والعرج

ونحوهما من المعوقات.

ويرى بعض العلماء أنه واجب على الجميع حتى أصحاب الأعذار ويستدلون على ذلك بمواقف لبعض الصحابة فى المعارك وكانوا أصحاب أعذار كالعرج ونحوه، وقالوا: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ هى التى أوجبت ذلك لأن الإنسان كائنا من كان وما كان لا يخلو من واحدة من هاتين الصفتين. خفيف أو ثقيل.

ولا يستثنى من ذلك إلا من سمح الرسول ﷺ له بالبقاء فى المدينة فى غزوة تبوك أو غيرها لأن أمر الرسول ﷺ مطاع سواء أكان بالنفر أم بالقعود، ولن يأمر الرسول ﷺ أحدًا إلا بما يصلح له ويعود بالنفع عليه وعلى المسلمين.

ب ـ وأن الجهاد فى سبيل الله يكون بالمال فى تجهيز الجيش والسلاح والعتاد والطعام وكل ما يلزم الجيش أن يتزود به والجهاد بالمال لا يقل أثره فى القتال عن الجهاد بالنفس.

وأن الجهاد بالنفس يكون بمواجهة العدو والالتحام معه والحرص على قتله أو أسره دون خوف أو تراجع أو تردد فضلاً عن الفرار. والجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله تضحية، ولا جهاد بغير تضحية.

ومهما كانت التضحية خطيرة عندما تكون بالنفس فيستشهد المجاهد، فإن الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا يستحق ذلك بكل جدارة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات

يتعلم الدعاة إلى الله من هذه الآيات الكريمة كيف يشقون طريق الدعوة، وكيف يمضون فى الحركة إلى أن تعم الناس والآفاق، ويتلقون منها دروسا فى الصبر والجهاد والتحمُّل ويتعلمون منها عميق الإيمان وقوى التوكل على الله.

وسوف نشير إلى بعض تلك الدروس فيما يلى:

١ ـ يتعلم الدعاة والحركيون من الآيتين الاوليين من هذه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما يلى:

أ - أن الاستجابة لنداء الله تعالى وأمره فى أى شيء يأمر به لا يجوز أن تقوم دونها المعاذير والتّعلات.

فلا تثاقل عن تنفيذ الأمر فضلاً عن تركه، وأياما كان مبعث التثاقل أهو الخوف من الموت أو القتل، أم هو الخوف على المال والأهل والولد - كما يوسوس بذلك شياطين الإنس والجن، أم هو الخوف على فوت ملذات ومباهج من متاع الحياة الدنيا - كل ذلك لا يبرر التثاقل عن أداء أمر الله تعالى.

* إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس حقيقة الدنيا ومتاعها تلك التى تجعل المسلمين يتثاقلون عن الجهاد فى سبيل الله، وأوضح ما تكون قيمة الدنيا فى أحاديث رسول الله ﷺ فقد روى أحمد بسنده عن المستورد أخى بنى فهر [1] رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع؟ وأشار بالسبابة، وأخرجه مسلم فى صحيحه.

وروى مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوق والناس كَنَفَتَيْه - أى عن جانبيه - فمرَّ بجَدْى أسكّ - أى صغير الأذن - ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم»؟ فقالوا: ما نحب أن يكون لنا بشيء وما نصنع به؟ ثم قال: «أتحبون أنه لكم»؟ قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا أنه أسَك فكيف وهو ميت! فقال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

وروى الترمذى بسنده عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء».

* إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس حقيقة هذه الدنيا التى قد تصرف بعض الغافلين عن الجهاد فى سبيل الله تعالى.

ب - وأن ترك الجهاد فى سبيل الله دون عذر مقبول، دليل على ضعف فى العقيدة إذ العقيدة الصحيحة السليمة تدعو صاحبها إلى طاعة الله تعالى.

---

(١) هو المستورد بن شداد الفهرى صحابى من أهل مكة قرشى سكن الكوفة وتوفى سنة ٤٥هـ بالإسكندرية بع أن شهد فتح مصر، له سبعة أحاديث.

ودليل على ضعف التدين إذ التدين الصحيح يجعل الأولوية دائما لما يطلب الله وما يأمر به أو ينهى عنه، فمن ترك الجهاد فى سبيل الله من أجل الدنيا فقد ضلت منه الأولويات وتزعزع تدينه وغامت أمامه الرؤى.

وترك الجهاد دليل على أن تاركه يؤثر الباطل على الحق، ويستجيب لوساوس الشياطين، ويرضى بالدنيا عن الآخرة.

حـ ـ وأن الذين يتثاقلون عن الجهاد فى سبيل الله مهددون بخطرين عظيمين فى حاضرهم ومستقبلهم.

ـ أما خطر الحاضر فربما كان هزيمة لهم على أيدى أعدائهم، ما داموا قعدوا عن الجهاد فى سبيل الله ولم ينفروا خفافا وثقالا، وفى ذلك ما فيه من الذل والانكسار وخسران الدنيا التى ألهتهم عن الجهاد فى سبيل الله!!!

ـ وأما الخطر فى مستقبلهم فذو شقين:

أحدهما أن الله تعالى يغضب عليهم فيستبدل بهم قوما غيرهم يجاهدون فى سبيله ويمتثلون أمره.

والآخر: أن يَصْلَوا العذاب الأليم يوم القيامة.

* إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا ذلك للناس وأن يبصروهم بعواقب القعود عن الجهاد أو التثاقل عنه.

وفى هذا المجال على الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بما رواه أبو داود بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ، قال: «مَنْ لم يَغْزُ أو يجهز غازيًا أو يخلف غازيًا فى أهله بخير أصابه الله بقارعة يوم القيامة».

وبما رواه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة».

وفى رواية لما يرى من فضل الشهادة.

٢ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿إلاَّ

تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ الآية ما يلى:

أ ـ أن من قعد عن نصر الله ورسوله فلن يكون قعوده سببًا فى هزيمة المسلمين، فإن الله تعالى ناصر نبيه وأولياءه المؤمنين ومؤيدهم وكافيهم، وتلك سنته لا تتخلف بقعود قاعد أو بتثاقل متثاقل، فقد نصر نبيه وكفاه فى عام الهجرة إلى المدينة عندما أجمع المشركون على قتله وتفريق دمه فى القبائل حتى يعجز أهله عن الثأر له، أو على حبسه أو على إخراجه ونفيه.

وكان نصر الله لرسوله ﷺ فى قصة الغار جديرًا بالتأمل والتدبر وأخذ العظة.

وحسب الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس فى هذه القصة بما كان عليه الرسول ﷺ من ثبات على الرغم من اشتداد المحنة، وذلك أن أبا بكر الصديق قال: قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال النبى ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

هذا درس عظيم لكل داعية إلى الله، إذ عليه أن يملأ قلبه يقينًا بأن الله معه ناصره ومؤيده مهما استبد الطغاة بالدعاة إلى الله.

ب ـ وعليهم أن يذكروا الناس بضرورة أن يوقنوا بأن لله تعالى جنودًا ينصر بهم من كانوا على الحق من المؤمنين، وينصر الإسلام دائما.

وهؤلاء الجنود يختارهم الله من بين مخلوقاته ويكلفهم بتأييد أوليائه وعونهم، فقد يكونون ملائكة وقد يكونون أىّ خلق، آخر، والجنود هنا: رمز للأسباب التى يهيئها الله لأوليائه لتدعم تأييدهم ونصرهم على أعدائهم.

وجنود الله حقيقة لا يشكك فيها إلا المبطلون، فقد كانوا فى بدر ملائكة مسومين، وكانوا ريحا قلعت خيام الأحزاب وقلبت قدورهم فى غزوة الخندق، وكانت جبريل عليه السلام يخبر النبى ﷺ بما يدبره له المشركون حينًا واليهود أحيانًا كثيرة.

ـ ولقد أكدت هذا آيات القرآن الكريم، ومنها:

قوله تبارك وتعالى: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين (٢٨)

إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ [يس: ٢٨ ـ ٢٩].

وقوله جل وعلا: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وقوله عز وجل: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾ [الفتح: ٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ [المدثر: ٣١].

كما تأكد أن لله جنودًا ينصرون أولياءه فى عدد من الأحاديث النبوية الشريفة:

فقد روى أحمد بسنده عن عياض بن حمار رضى الله عنه أنَّ النبى ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: «إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا؛ كل مال نحلته عبادى حلال، وإنى خلقتُ عبادى ضعفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانًا، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجميهم وعربيهم إلا بقايا من أهل الكتاب، قال: إنى بعثتك لأبتليك، وأبتلى بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا «ثم إن الله عز وجل أمرنى أن أحرق قريشا، فقلت يارب إذن يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، فاغزهم نُغْزِك، أنفق عليهم فسننفق عليك، وابعث جندًا نبعث خمسة مثله، قاتل بمن أطاعك من عصاك».

فلله تعالى جنود لا يعلمها إلا هو ينصر بها أولياءه على أعدائه، كما دلت على ذلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والقرآن والحديث هما زاد الدعاة إلى الله فى كل قضية من قضايا الدعوة والحركة، وهما المرجعية الصحيحة الموثقة لكل العاملين من أجل الإسلام، فى الدعوة أو فى الحركة أو فى التربية أو فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو فى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

٣ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ما يلى:

أ ـ أن المسلم يجب أن يكون دائما على استعـداد لأن يجاهد فى سبيل الله تعالى إذا استنفر، وأنه يجب أن يوظف نفسه وماله وكل إمكاناته لهذا الجهاد، فلا يبخل بجهد أو وقت أو مال أو نفس فى سبيل الله، لأن هذا الاستعداد وتـلك الرغبة فى التضحية هى التى تمكن لدين الله فى الأرض، وهى التى تمهد الطريق للدعوة إلى الله، وللحركة بهذا الدين، ولتربية الناس تربية إسلامية، ولتنظيم العمل من أجل الإسلام.

وهذا هو الخير للمسلم ولأسرته ولمجتمعه وللأمة الإسلامية وللعالم الإسلامى كله.

ب ـ وأن التمسك بالجهاد والنفر له على كل حال لأن فى ذلك الخير، ليس معناه أن الدعاة إلى الله والحركيين والتربويين يعيشـون فى ظل هذه الخيرية لا يصيبهم نصب ولا وصب، وإنما معناه أنهم طالما يعمـلون فى هذه المجالات فلابد أن تعترضهم العـقبات، ولابد أن يتحداهم الطغاة ولابد أن يتعرضوا للسـجن والتعذيب والتشريد والقتل أحيانًا، لكن ذلك خير لهم إن كانوا يعلمون.

وعلى الدعاة إلى الله أن يتـذكروا وأن يذكروا الناس بأن كل ما يصـيب الإنسـان من محنة أو عذاب أو تعب أو أذى فهو عند الله تعالى ـ ما دام فى سـبيل ـ فرصة لمضاعفة ثوابه أو لتكفير خطاياه، وعليهم أن يذكـروا المدعويين بالأحاديث النبوية التى جاءت فى ذلك، ومنها.

ـ روى الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخـدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقـول: «ما يصيب المؤمن من وصب ـ وجع ـ ولا نصب ـ تعب، ولا سقم ولا حزن حتى الهمّ يُهمه إلا كفر به من سيئاته».

ـ وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شىء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة».

ـ وروى مسلم بسنده عن أبى هـريرة رضى الله عنه قال: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، ففى كل ما يصب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها».

ـ وروى مسلم بسنـده عن صهيب رضى الله عنه عن النـبى ﷺ قال: «عجبًا لأمر

المؤمن، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا لـلمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

* إن الدعــاة إلى الله يدركون تمامــا هذه الحقــائق، ويعرفــون هذه السُّنن فى تاريخ الدعوات والدعاة، وهم أدرى بأن المحنة تنضج المؤمن إذا هو احتسب عند الله ما يلاقيه وصبر على مــا يصيبه، لأن الله تعالى يريد بهذه المحن والشـدائد أن يعلم الذين صدقوا ويعلم الكافرين (١).

* وإن الدعاة إلى الله قد خـاضوا تجارب هذه المحن ولا يزالون يخوضــونها مع كل حاكم طاغية، وهم من أهل الصبر والاحتساب، ولكن لهم أن يطمئنوا تماما ـ وهم أهل العلم والعقل ـ أن العاقبة للمتـقين، وأن التوكل على الله هو الربح الحقيقى، وأن جولة الظالم مهما امتـدت واتسعت فإلى انتهاء، لأن الله تعالى منفذ أمره ومشـيئته، وقد شاء بل كتب على نفسه ووعد بنصر المؤمنين، والآية الكريمة تنادى على المؤمنين: ﴿. . .وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

والمعنى: أن من يفوض أمره لله فيما أصابه فإن الله تعـالى يكفيه ويمنعه فهو سبحانه بالغ مرادَهُ ومنفـذ مشيـئته، وقـد جعل لكل شىء وقـتًا لا يعدوه ومدىً لا يتـجاوزه، فالمعركة إذن معركة صبر واحتساب، وتوكل على الله واعتماد عليه، والله من وراء أعداء الإسلام والمسلمين الذين يعيـشون فى كفر وفى تكذيب؛ محـيط بهم وقادر عليهم، إن هذا أكبر رصيد وأنفعه لتحمل الشدائد وللصبر على طغيان الطغاة حتى يحيط الله بهم، وينصر الدعاة إليه ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

---

(٢) جاء ذلك المعنى فى قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

٨ ـ الآيات الكريمة من الآية الثانية والأربعين إلى الآية الثانية والسبعين

صورة مفصلة لصفات المنافقين وأعمالهم

ومقارنة بين جزائهم وجزاء المؤمنين عند الله تعالى.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾.

تفسير هذه الآيات الكريمة وشرحها:

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن صفات المنافقين وأعمالهم فتكشف عنها وعنهم، وتفضح ما هم عليه من شر وحسد وحقد على الإسلام والمسلمين، وتذكر في وضوح ما عابوا به رسول الله ﷺ من تهم باطلة وادعاءات كاذبة ضالة مضللة.

وتحدد الآيات أعمالهم الخسيسة الدنيئة واعتذاراتهم الواهية وبخلهم وتربصهم بالمؤمنين وتشوقهم إلى أن تقع بالمسلمين أية هزيمة، وتقارن الآيات بين جزاء المنافقين عند الله وجزاء المؤمنين وإلى تفسير الآيات الكريمة وشرحها.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

ـ العَرَض القريب هو: ما كان قريبًا من منافع الدنيا، وفي أمثال العرب: «الدنيا

عرَض حاضر يأكل منه البر والفاجر».

- والسفر القاصد هو: السفر الهيِّن القريب الذى له قصد قريب سهل ميسور.

- ﴿لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

والمعنى: لو دعوتهم إلى عرض قريب وسفر ميسور؛ لا تبعوك وجاءوا معك مرحبين لما يحقق لهم ذلك من منافع دون أن يكلفهم مشقات أو تضحيات، ولكنها غزوة إلى تبوك فى الحر الشديد والقيظ والمشقة والتعب والتضحيات.

وفى مثل هذه الغزوات لا يتبعك إلا المؤمنون الخُلَّص، أما هؤلاء المنافقون فلن يستجيبوا، وكيف يستجيبون وليس لهم فى هذه الغزوة منافع دنيوية قريبة؟ وكيف يستجيبون لغزو الروم وهم منهم فى خوف؟

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

بعد عودة الرسول ﷺ وأصحابه من تلك الغزوة أخذ المنافقون يحلفون قائلين: لو استطعنا لخرجنا معكم، ولكننا لم نستطع، ويحلفون على ذلك أيمانا وأيمانا، ولكنها اليمين التى يتعمد حالفها الكذب ولذلك سماها المسلمون: اليمين الغَمُوس لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم، أو اليمين التى تدع الديار بلاقع كما جاء فى الحديث الشريف.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بامتناعهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ وقد ندبهم للخروج، ويهلكون أنفسهم بحلفهم كذبًا أنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج، فيهلكون أنفسهم بالنفاق والكذب.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى يعلم كذبهم عندما اعتذروا وكذبهم عندما حلفوا، ولكن لم يفضحهم فى حينها إنما فضحهم الآن بعد العودة من الغزوة.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾: قدم الله تعالى عفوه عن النبى ﷺ على عتابه له فى إذنه لهم بالقعود والتخلف.

وذلك تكريم للرسول ﷺ، إذ قد كان أذن لهم من غير وحى نزل عليه فى هذا الإذن.

﴿ لمَ أذنتَ لَهُمْ ﴾ وإذنه ﷺ لهم هو قبـوله أعذارهم الكاذبة وسماحه لـهم بالقعود دون وحى من الله تعالى.

قال قتادة وعمرو بن ميمون [1]: «ثنتان فعلهما النبى ﷺ ولم يؤمر بهما:

- إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه، ولم يكن له أن يمضى شيئا إلا بوحى.

- وأخذه الفدية من أسارى بدر.

فعاتبه الله كما تسمعون».

وقال بعض العلماء: إنما بدر منه ترك الأولى، فقدم الله له العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

أى ليتـبين لك مَنْ صدق ممَّن نـافق، قال ابن عبـاس رضى الله عنهـما: وذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن يومئذ يعرف المنافقين، وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة.

وقال قـتادة: هؤلاء قـوم قالوا: نسـتأذن رسول الله ﷺ فى الجلـوس، فإن أذن لنا جلسنا وإن لم يأذن لنا جلسنا!!!

﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

والمعنى أن المؤمنين بالله واليوم الآخـر لا يستأذنونك فى خروج أو قـعود، لأنهم إذا أمروا بشىء امتثلوا، لأنه قد كان الاستئذان والاعتذار عن الخروج فى ذلك الوقت علامة من علامات النفاق.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة تذكر الأسباب التى جعلت هؤلاء المنافقين يستأذنون فى القعود عن

(1) هو عمرو بن ميمون الأودى أبو عبد الله أدرك الجاهلية وأسلم لكن لا صحبة له، عده العلماء من الثقات فى كتب تاريخ الثقات مات سنة أربع أو خمس وسبعين من الهجرة فهو مخضرم مُعَمَّر عاش ما يقرب من مائة عام.

الخروج وهى:

- أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولو آمنوا لخرجوا.

- وأنهم فى شك من الدين، ولو كانوا على ثقة ويقين منه لخرجوا.

- وأنهم مترددون فى شكهم يذهبون فيه ويرجعون عنه، ولو لم يكونوا كذلك لخرجوا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

أى: لو أرادوا الجهاد والخروج إلى الغزوة لاستعدوا لذلك وأخذوا عدة المسافر المجاهد، ولكن تركوا ذلك الاستعداد فدلَّ ذلك على أنهم يريدون القعود والتخلف.

ولأن خروجهم - وهم على تلك الحال - لا يرضى الله تبارك وتعالى **﴿كَرِهَ اللَّهُ﴾** أى خروجهم معك.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أى حبسهم عنك وخذلهم لأنهم قالوا: إن أذن لنا جلسنا وإن لم يأذن لناجلسنا - وقد علم الله ما قالوا - فثبطهم.

وقيل: إنهم قالوا: إذا أذن لناجلسنا، وإن لم يأذن لنا فى الجلوس فخرجنا أفسدْنا وحرضنا على المؤمنين.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

هذه مقولة لرسول الله ﷺ قال لهم: اقعدوا مع القاعدين إذنًا لهم أو غضبا عليهم.

أو هى مقولة بعضهم لبعض.

فكانوا مع القاعدين من أصحاب الأعذار كالزَّمْنَى والعميان والنساء والصبيان، وفى هذا تحقير لهم إذ ألحقوا بأصحاب الأعذار دون أن تكون لهم أعذار.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾.

هذه تسلية للمؤمنين عن تخلف هؤلاء عن القتال معهم ومشاركتهم أعباء هذه الغزوة.

ـ والخبال: الفساد والنميمة والأراجيف، أى أن خروجهم شر من كل وجه.

ـ ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾، أى أسرعوا فيما بينكم بالإفساد فهذا شأن المنافقين ـ والإيضاع سرعة السير ـ.

يفعلون ذلك طالبين لكم الفتنة أى الإفساد والشر.

﴿وفيكم سماعون لهم﴾

أى منكم ـ بلا قصد ـ عيون لهم وآذان ينقلون إليهم الأخبار لأنهم لا يعلمون بنفاقهم.

وقيل للمعنى: فيكم من يقبل قولهم ويطيعهم، منخدعا فيهم غير عارف بنفاقهم.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فمجازيهم على ظلمهم فى الدنيا حينا وفى الآخرة حيث العذاب الأليم.

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾.

أى طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يفضح الله نفاقهم.

قال ابن جريج: المقصود بهؤلاء اثنا عشر رجلا من المنافقين وقفوا على ثنية الوداع ـ مكان بمكة ـ ليلة العقبة ـ أى بيعة الأنصار للرسول ﷺ فى العقبة ـ ليفتكوا بالنبى ﷺ، وصرفوا الأمور وأجالوا الرأى فى إبطال ما جاء به محمد ﷺ.

وقيل: المراد ما فعله عبد الله بن أُبَىّ يوم أُحُد عندما انصرف مع أصحابه المنافقين عن النبى ﷺ.

وقيل: المراد بذلك أى بابتغائهم الفتنة وتقليبهم للأمور؛ هو صد أصحاب النبى ﷺ عن الدين.

﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أى صرفوها وأجالوا الرأى بحثا عن إبطال ما جئتَ به.

﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾ أى: ثابر هؤلاء المنافقون على الكيد للإسلام ورسوله وللمسلمين حتى أظهر الله القرآن، وأيَّد الدعوة إليه. وظهر بذلك أمره سبحانه وتعالى.

﴿وهم كارهون﴾ لهذه الدعوة ولهذا الدين ولظهور الإسلام وأمر الله تبارك وتعالى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي﴾.

تلك من مقولات المنافقين وهى قـولهم للنبى ﷺ أى قول بعضهم له: ائذن لى فى القعود، ولا تفتنى بسبب الأمر بالخروج، فـتعرضنى للشدة والحر، وما لا طاقة لى به، من ترك المال والعيال.

يقولون ذلك زاعمين أنهم عندما يأذن لهم النبى ﷺ يحترزون عن الوقوع فى الفتنة، وفى الحق إنهم بهذا الموقف قد سقطوا فى أكبر فتنة وأسوئها وهى النفاق والكفر.

وقيل: المستأذن هو الجَدُّ بن قيس ـ وكان منافقا ـ وكان قد أخذ يذكر عللاً يتعلل بها للقعود عن الغزوة فيقول للنبى ﷺ: أُعِينك بمالى ولا أخرج معك، أو قوله للنبى ﷺ: إنه يخشى على نفسه من بنات بنى الأصـفر!!! أى بنات الروم فلا يريد أن يخرج إليهن حتى لا يفتتن بهن!!!

﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى أنهم بهذه المقولات سقطوا فيما هو أشد وأنكى من الفتنة التى يتخوفون منها، وهى السقوط فى حمأة الكفر والنفاق.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

قال العلماء: هذا الختم لهذه الآية الكريمة، يعنى: أنهم بـنفاقهم كانوا محرومين من السعادة بالإيمان بالله والتصـديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومـا كانوا يعرفون سوى متع الدنيا من مال وجاه ونساء، وهم فى الوقت نفسه منافقون يطعنون فى الدنيا، ويقصدون النبى ﷺ بكل سوء، وكانوا مع ذلك فى أشد الخوف على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، فـعبر الله تعالى عن هـذه المشاعر فيـهم وعن أحوالهم التى كانوا عليـها بأن جهنم محيطة ـ أى محاصرة ـ بالكافرين أى بهم وبأمثالهم.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيـــبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

وتلك من صفاتهم ومن خبيث أعمالهم، وهذا الموقف منهم دليل قاطع على نفاقهم وكفرهم، وخبث نواياهم، وإضمارهم الشر للإسلام والمسلمين.

والمعنى ـ والله أعلم ـ والخطاب موجه فى الآيـة الكريمة للرسول ﷺ: إن تصبك فى

بعض الغزوات حسنة؛ من ظفر بعدوّ أو غنيمة أو غيرها يسؤهم ذلك، وإن تصبك مصيبة أو شدة أو مكروه أو نكبة يفرحوا لهذه المصائب ويقولوا مُدلِّين بقعودهم: قد أخذنا أمرنا مِنْ قبل وهو الحَذَر بعدم المشاركة فى الغزوة، أى يبررون لأنفسهم قعودهم وتقصيرهم، وتلك صفات المنافقين فى كل زمان.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

والمعنى: ـ وهى مقولة الرسول ﷺ والمؤمنين ـ أنه لن يصيبنا خير ولا شر، ولا نصر ولا هزيمة، ولا رجاء ولا خوف، ولا رخاء ولا شدة إلا وذلك مقدورٌ لنا مكتوب عند الله تعالى.

وهذه المقولة مما يؤكد وجوب الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم بأن ماكتبه الله تعالى لابد أن يقع بمن كتب له.

﴿هُوَ مَوْلانَا﴾

من مقولة المؤمنين أيضًا: أى يتصرف فينا و فى خلقه كما يشاء، وقد كتب على نفسه نصر المؤمنين وتأييدهم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

أى هذا هو شأن المؤمنين فى التوكل على الله تعالى وحده دون سواه، أما المنافقون وغيرهم من الكفار والمشركين فهم لا يتوكلون على الله وإنما يعتمدون على الأسباب الدنيوية مؤثرين اللذات العاجلة والمَسرَّات الزائلة الفانية على ما عند الله إن هم توكلوا عليه بعد أن آمنوا به!!!

أما المؤمنون فمن المحرَّم عليهم ترك التوكل على الله، وكذلك مِنْ واجبهم الأخذ بالأسباب على أنها من الوسائل والوسائط، مع اليقين بأن النصر والتأييد والتوفيق أصلا من عند الله تعالى.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾.

ـ التربُّص: انتظار حصول شىء مرغوب فى حصوله.

والمعنى: أنكم أيها المنافقون لا تنتظرون من حالنا إلا إحدى حسنيين تصيبنا: حسنة

عاجلة بالنصر على العدو أو الغنيمة، وحسنة آجلة وهى ثواب الله وحسن جزائه لنا على طاعتنا وامتثالنا.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

أى: نحن ننتظر من حالكم أحد أمرين.

- أن يعذبكم الله فى الآخرة على كفركم ونفاقكم.

- أو أن يعذبكم الله فى الدنيا بجوع أو خوف،

- أو أن يعذبكم الله فى الدنيا بأيدينا إن أذن لنا فى حربكم. وهو فرق كبير بين تربصكم بنا وتربصنا بكم!!!

﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

هذا تهديد للمنافقين بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

وتلك النفقة التى أنفقوها طوعا ليكتفوا بها عن الخروج فى الحرب، أو كرها خشية أن يكشف نفاقهم، كل تلك النفقة لن يقبلها الله تعالى فهو أعلم بسوء نواياكم، وفيها إشارة إلى المال الذى عرضه الجدّ بن قيس على النبى ﷺ ليعفيه من الخروج إلى المعركة - وكان الجدّ بخيلا منافقا كما وصفه قومه لرسول الله ﷺ.

والمعنى: أنفقوا أولا تنفقوا، فلن يتقبل منكم الله هذا الإنفاق، سواء أكان إنفاقكم إياه طوعاً أو كان كرهًا، لنفاقكم وإضماركم الشر للإسلام والمسلمين.

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى خارجين على دين الله ونظامه وهذا فسق معناه الكفر، وهو تعليل لعدم قبول الله تعالى نفقاتهم.

وقد أجمع العلماء على أن أفعال الكافر إذا كانت برًا كصلة القربى وإغاثة اللهيف لايثاب عليها فى الآخرة، لأن ثواب الآخرة لابد أن يكون معه إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، لكن هذه الأعمال البارّة مع الكفر قد يُطعم بها صاحبها فى الدنيا.

ودليل العلماء على هذا الرأى ما رواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» ومعروف أنه لا يستغفر الله إلا المؤمن به سبحانه وتعالى.

وما رواه مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مُؤْمنًا حسنة، يعطى بها فى الدنيا، ويجزى بها فى الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها».

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

فى هذه الآية الكريمة صفات ثلاثة للمنافقين حالت بينهم وبين قبول نفقاتهم وهى:

- صفة الكفر.
- وصفة الكسل والتراخى عن الإقبال على الصلاة، وعند أدائها.
- وصفة الإنفاق وهم كارهون.

وفى الآية الكريمة دليل على تمكن صفات الكفر والنفاق فيهم لأنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى لاعتقادهم بأنها غير واجبة ولا يمارسون عملاً ظاهره أنه طيب إلا وهم فى الحقيقة كارهون له يودون ألا يفعلوه لاعتقادهم أيضا فى عدم وجوبه، وإنما الإنفاق عندهم مغرم والصلوات حركات بدن يغنى عنها سواها.

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

أى لا تستحسن ما أعطيناهم من مال وولد، ولا تَمِل إليه فإنه استدراج يعذبون عليه فى الآخرة.

والمعنى أن الله تعالى يريد أن يعذبهم بأموالهم وأولادهم فى الدنيا بإخراج الزكاة وإنفاق الأموال فى سبيل الله وبموت الأولاد.

أو: لا تعجبك أموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة.

وقيل: يعذبهم بتعبهم فى جمع الأموال.

وقال الفخر الرازى: بيَّن الله فى هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو فى الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم. وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدين والدنيا، ومبطل لجميع الخيرات فى الدين والدنيا.

* والخطاب فى الآية الكريمة وإن كان موجها إلى النبى ﷺ، إلا أنَّه موجَّه كذلك إلى كل المؤمنين فى كل العصور.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: إنهم يموتون على الكفر والنفاق وعلى هذه الصفات، فمن كانت هذه صفاته عَلِمَ الله أنه سيموت على الكفر، فأخبر أن أنفسهم تزهق وهم على الكفر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ هذه الآية الكريمة تكشف كذبهم وما يموهون به على المؤمنين من تأكيدهم أنهم مؤمنون بالأيمان التى يحلفونها كذبا.

- والفَرَق: الخوف الشديد.

وهذه الآية الكريمة توضح أن الأيْمان الكاذبة من صفات المنافقين.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

- الملجأ: الحصن أو الحرز.

- والمغارة: كهف فى الجبل.

- والمدخل: السرداب تحت الأرض.

- ويجمحون: يسرعون.

والمعنى: لو وجد هؤلاء المنافقون شيئًا من هذه الأشياء يهربون فيه من المسلمين لولَّوا إليه سراعًا.

أو: إنهم من شدة كراهيتهم وتأذيهم من الرسول ﷺ والمسلمين صاروا بهذه الحالة.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

- يلمزك: يعيبك ويطعن عليك.

- والصدقات: أموال الصدقات وتوزيعها، وقد اتهموا الرسول ﷺ بعدم العدل فى توزيعها.

* وفى سبب نزول هذه الآية:

روى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بينا النبى ﷺ يُقَسِّم مالاً، إذ جاء «المقداد بن ذى الخويصرة التميمى - وهو حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج - فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك، ومَنْ يعدل إذا لم أعدل»؟ فنزلت هذه الآية، عندها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: دعنى يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية».

- وقال الكلبى: جاء رجل من المنافقين يقال له: أبو الجَّواظ، لرسول الله ﷺ فقال له: أتزعم أن الله أَمَرك أن تضع الصدقات فى الفقراء والمساكين؟ ولم تضعها فى رعاءِ الشاء؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أبالك!!! أما كان موسى راعيا، أما كان داود راعيا»؟ فلما ذهب قال رسول الله ﷺ: «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون».

- وقال قتادة فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ ذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابيّة أتى النبى ﷺ وهو يقسم ذهبًا وفضة فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلتَ، فقال النبى ﷺ: «ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى؟ ثم قال ﷺ: احذروا هذا وأشباهه، فإن فى أمتى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم. ثم إذا خرجوا فاقتلوهم».

- وقال أبو بكر الأصَمُّ فى تفسيره: إن النبى ﷺ قال لرجل من أصحابه: «ما علمك بفلان»؟ فقال: مالى به علم إلا أنك تدنيه فى المجلس، وتجزل له العطاء، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه منافق أدارى نفاقه، وأخاف أن يُفْسِد علىَّ غيره» فقال: لو أعطيت

فلانا بعض مـا تعطيه؟ فقـال ﷺ: «إنه مؤمن أكله إلى إيمانه، وأمـا هذا فمنافق أداريه خوف إفسـاده».

* ومن نفاقهم أنهم إذا أعطوا من الصدقات رضوا، وإذا لم يعطوا منها سخطوا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

أى: لو أنهم رضوا ذلك واحتسبوا عند الله لكان ذلك خيرا لهم فى دينهم ودنياهم، ولكنهم لم يرضوا، وتلك صفة من صفات المنافقين.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

حصرت هذه الآية الكريمة أنواع الذين يستحقون الصدقات فى أصناف ثمانية.

- والصدقـة هى: ما يخرجـه الإنسـان من ماله عـلى وجه التقـرب به إلى الله تعالى كالزكاة المفروضة.

وكلمة الصدقة فى الأصل تطلق على كل ما يتطوع به، وتطلق على الزكاة الواجبة، وتطلق على غيرها مما يتطوع به.

والصدقة إذا أطلقت فى القرآن الكريم فهى صدقة الفرض.

* وقـد خص الله سبـحانه بعض الناس بالأمـوال دون بعض؛ نعـمةً منه عليـهم، وأوجب شكر هذه النعمة بأن يخرجوا من أمـوالهم سهمًا يؤدونه إلى من لا مال له نيابة عن الله تعالى الذى ضمن لكل أحد من خلقه رزقا، وجـعل لهذه الأرزاق أسبابا، كما يفهم هذا الضـمان من قـوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ [هود:٦].

وهؤلاء الثمانية الأصناف المذكورون فى هذه الآية الكريمة، قد حدَّدهم الله تعالى فى كتابه فلا سبيل إلى مخالفة ذلك بالزيادة عليهم أو النقص منهم.

روى أبو داود والدارقطنى بـسنديهـما عـن زياد بن الحـارث الصُّدائى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسـول الله ﷺ يسأله عن الصدقات فـقال له رسول الله ﷺ: «إن

الله لم يرصد فى الصدقات بحكم ولا غيره، حتى جزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك» ولفظ الحديث للدارقطنى.

ـ وقال الأسلاف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء رحمهم الله تعالى: يجوز للمتصدق أن يدفع صدقته إلى الأصناف الثمانية؛ ويجوز له أن يدفعها إلى أى صنف منهم.

وهؤلاء الأصناف الثمانية هم:

ـ الفقراء: جمع فقير وهو الذى له بعض ما يكفيه.

ـ والمسكين: هو الذى لا شيء له، أى أنه أشد حاجة من الفقير وفى التفريق بين الفقراء والمساكين آراء عديدة لم أجد حاجة إلى ذكرها هنا [1].

ـ والعاملين عليها: وهم السعاة والجباة المكلفون بتحصيل الزكاة. فلهم فيها حق يعطون قدر كفايتهم، وهم فى ذلك كغيرهم من العمال. الذين يتفرغون للعمل بتكليف الإمام أو من ينيبه، كالأجر الذى يأخذه القضاة والأئمة على الصلوات ونحو ذلك.

ـ والمؤلفة قلوبهم: وهم من الكفار يعطون تأليفًا لهم حتى يكفوا شرهم عن المسلمين، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين.

وهؤلاء كانوا لا يدخلون الإسلام إلا بالعطاء والإحسان إليهم وقيل: هم قوم مسلمون فى الظاهر ولكن لم يستيقن الإيمان فى قلوبهم، فيعطون ليتمكن الإيمان فى قلوبهم.

* وقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم، كما ثبت ذلك فى السنة النبوية المطهرة، فقد روى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شيء؛ وَجِدَ ـ أى حزن ـ هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم... فقال لهم رسول الله ﷺ: أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لَعَاعَة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم...» [2].

---

(١) من أراد معرفة هذه الفروق فليقرأ فى تفسير الفخر الرازى، أو تفسير السيوطى، وغيرهما.

(٢) الحديث بطوله فى مسند أحمد الجزء الثالث: ٧٦ ـ ٧٧ ط بيروت.

* وقد أبطل عمر بن الخطاب رضى الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم، لمّا رأى من إعزاز الدين، وكان إبطال عمر رضى الله عنه لسهمهم برأى الصحابة أجمعين.

- وقال القاضى أبو بكر بن العربى (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) الإشبيلى المالكى من حفاظ الحديث، مجتهد فى علوم الدين، صاحب الكتاب المشهور: «العواصم من القواصم»[1] قال: «الذى عندى أنه إن قوى الإسلام زالوا وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم، كما كان رسول الله ﷺ يعطيهم، فإن فى الصحيح: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ».

وتكملة الحديث: «فطوبى للغرباء» قيل يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس...»

رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

- وفى الرقاب: أى فى فك رقاب الأرقاء، كما قال ذلك ابن عباس رضى الله عنهما، وابن عمر أيضا. فيجوز للإمام أو لصاحب المال الذى وجبت عليه صدقة أن يشترى بزكاة ماله رقابا فى الرق ويعتقهم لوجه الله تعالى.

ومعنى ذلك أن الأرقّاء المسلمين أصحاب حق فى الزكاة لينالوا حريتهم، ويكون ولاء هذه الرقبة للمسلمين لا لصاحب المال.

- والغارمين: وهم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم لهذا الدين، ويستثنى من هؤلاء الغارمين من استدان فى سفاهة، فإنه لا يعطى من الزكاة ولا من غيرها حتى يتوب.

* ويعتبر من الغارمين من له مال ولكن عليه دين محيط به.

* ويجوز أن يعطى من الصدقة من تحمَّل دية أو غرامة عن غيره، ما دام ذلك التحمل يجحف بماله وهو يشبه الغارم، وذلك لما رواه مسلم بسنده عن قبيصة بن مخارق الهلالى رضى الله عنه قال: تحملتُ حمَالة فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقِمْ حتى تأتينا الصدقة فنأ مرلك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تَحمَّل حِمالة فحلت المسألة له حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل

(١) هو غير محيى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) الفيلسوف المتكلم صاحب الشطحات.

أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّتْ له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سدادا من عيش -.

ورجل أصابته فاقة، حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه - يقولون لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلَّتْ له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش - أو قال سدادًا من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتٌ يأكلها صاحبها سحتا».

ورواه أحمد بسنده عن قبيصة أيضًا رضى الله عنه.

- وفى سبيل الله: وهم الغزاة، ومن فى موضع الرباط، يعطون ما ينفقون فى غزوهم، أغنياء أو فقراء.

* ويروى بعض العلماء أن «فى سبيل الله»: يشمل أعمال الخير والبرِّ التى تعود على المسلمين بالنفع، كبناء المشافى والملاجئ والمدارس ونحوها.

والصدقة بهذا الوصف يؤديها الإمام إن كان يجمع من الناس الزكاة، أو يؤدى هذه الصدقة أصحاب المال الذين وجبت عليهم الزكاة.

- وابن السبيل: وهو من انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره وماله، فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غَنيًا فى بلده.

* وهناك أحكام كثيرة تتعلق بالزكاة [1] نذكر منها ما يلى:

١ - لا يجوز لمن وجبت عليه الزكاة أن يعطيها لمن تلزمه نفقته وهم: الوالدان والولد والزوجة، وكذلك ولد الابن وولد بنت المزكى، فإن وصلت زكاة رجل إلى أحد ممن تلزمه نفقته عن طريق الإمام، جاز ذلك وسقطت عنه الزكاة.

٢ - ويجوز للمزكى أن يعطى زكاته لقرابته ممن لا تلزمه نفقتهم، بل له فى ذلك أجران، أجر الصدقة وأجر القرابة، والدليل على ذلك ما رواه مسلم بسنده عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قالت قال رسول الله ﷺ: «تصدقن يا معشر النساء ولو من حُليِّكن، قالت فرجعتُ إلى عبد الله فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد - أى فقير - وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله فإن كان ذلك يجزى

---

(١) لمعرفة تفاصيل ذلك انظر أى كتاب من كتب الفقه الإسلامى - باب الزكاة.

عنى، وإلا صرفتها إلى غيركم، قالت: فقال لى عبد الله: بل ائتيه أنت قالت: فانطلقتُ فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ، حاجتى حاجتها، قالت: وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيتْ عليه المهابة، قالت: فخرج علينا بلال فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما؟ ولا تخبره من نحن، قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ من هما قال: امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ: أى الزيانب؟ قال: امرأة عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: لهما أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة».

٣ - ويرى العلماء أن الصدقات لا تنقل من مكانها الذى وجبت فيه إلى بلدة أخرى إلا لضرورة يراها إمام المسلمين لحاجة شديدة نزلت ببعض المسلمين فى ذلك البلد الذى تنقل إليه.

٤ - ويرى العلماء أنه يجوز أخذ قيمة الزكاة.

٥ - وقال العلماء: إذا كان الإمام يعدل فى الأخذ والصرف لم يجز للمالك أن يتولى الصرف بنفسه.

ويجوز للمالك أن يعطى الفقراء والمساكين، أما غيرهما من باقى الأصناف الثمانية، فإنَّ إعطاءهم والتفريق عليهم يكون للإمام وحده.

٦ - ومن أعطى فقيرًا ثم تبين له أنه غَنِىّ أو كافر أو عبد، فإن ذلك يجزئ عنه ولا حرج عليه، والدليل على ذلك ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «قال رجل لأتصدقنّ الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على زانية! قال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على غنى! قال: اللهم لك الحمد على غنى، لأتصدقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد قُبلتْ، أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله، وأما السارق فلعله يستعف بها عن سرقته».

٧ ـ وفى قدر ما يعطيه من الزكاة للغارم، آراء للعلماء :

ـ فبعضهم يرى أن يُعْطَى الغارم قدر النصاب وهو مائتا درهم.

ـ وبعضهم يقول: يُعْطَى دون النصاب أى أقل من مائتى درهم.

ـ وبعضهم يقول: يُعطَى الغارم قدر دَيْنِه مهما بلغ.

إلى غير ذلك من الأحكام التى تتعلق بالزكاة، وأنواعها وشروط وجوبها ووقت إخراجها ونحو ذلك.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ـ هذا وصف آخر للمنافقين ـ بعد وصفهم بأنهم يلمزون النبى ﷺ فى الصدقات ـ وهو أنهم يتهمون النبى ﷺ بأنه «أُذُن» أى يسمع لكل ما يقال له ويصدقه، وبخاصة إذا حلف له من يحدثه.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: إن جماعة من المنافقين ذكروا النبى ﷺ بما لا ينبغى من القول، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما نقول، فقال الجلاس بن سُويد: بل نقول ما شئنا ثم نذهب إليه فنحلف أنَّا ما قلنا، فيقبل قولنا وإنما محمد أُذن سامعة، فنزلت هذه الآية.

ـ وقال السُّدِّى: اجتمع ناس من المنافقين فيهم جُلاَس بن سويد بن الصامت، ووديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا فى النبى ﷺ ـ وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ـ فحقروا النبى ﷺ فقالوا: لئن كان ما يقوله محمد حقًا لنحن أشر من الحمير.

ثم أتى النبى ﷺ الغلام فأخبره، فدعاهم رسول الله ﷺ فسألهم، فحلفوا أنَّ عامراً كاذب، وحلف عامر أنهم هم الكَذَبَة... فنزلت هذه الآية.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أى يستمع الخير ولا يستمع الشر، أى هو رحمة ومستمع خير لا مستمع شر، وهذا خير لكم من أن يستمع شراً.

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وكل من كان يؤمن بالله فإنه يخاف منه سبحانه وتعالى، فلا يقوم

على شر أو باطل أو أذى أو إيذاء.

﴿ويؤمن للمؤمنين﴾.

أى يسلم للمؤمنين فيما يقولون ويصدقه لأنهم صادقون، أى أنه مَحْضٌ للخير بعيد عن الشر.

﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾.

أى هو وكلامه وأفعاله وأخلاقه ومعاملته رحمة للذين آمنوا منكم، يهديهم ويتسبب لهم فى رحمة الله تعالى.

﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ فى الآخرة على وجه اليقين لأن ذلك جزاء الكافرين والمنافقين والمشركين وكل من لا يؤمنون بالله تعالى ما داموا قد ماتوا على كفرهم ونفاقهم وشركهم، ولهم عذاب أليم فى الدنيا بانتصارات المؤمنين عليهم.

﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾.

ـ هذا إخبار من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين بصفة من صفات المنافقين ليعرفوها ويكونوا منها على حذر، وتلك الصفة هى أنهم يحلفون كذبا أنهم برءاء مما بلغ الرسول ﷺ والمؤمنين من أقوالهم المؤذية لرسول الله ﷺ.

قال بعض علماء تفسير القرآن الكريم: إنها نزلت فى قوم من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من تلك الغزاة قافلاً إلى المدينة المنورة أتوه واعتذروا وجعلوا يحلفون، فنزلت هذه الآية الكريمة.

والمعنى: أنهم حلفوا على أنهم ما قالوا ما حكى عنهم ليرضوا المؤمنين بيمينهم، وكان الواجب أن يرضوا الله تعالى بالإخلاص والتوبة، لا بإظهار ما يضمرون خلافه، كان عليهم أن يفعلوا ذلك إن كانوا مؤمنين على ما يدعون، ولكنهم لم يفعلوا.

* وفى الآية الكريمة دلالة على أن رضا الله تعالى لا يحصل بمجرد إظهار الإيمان، مالم يقترن به التصديق بالقلب.

﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزى العظيم﴾.

ـ هذه الآية الكريمة توبيخ للمنافقين على طول ما علّمهم الرسول ﷺ، وطول

انصرافـهم عن التعلُّم، وهذا تـشنيع على موقـفهم ذاك، وتجاهلهـم أن من يحارب الله ورسوله فأن له نار جـهنم خالدا فيها، وذلك الجـزاء هو الخزى والندم العظيم فى الدار الآخرة.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

قال السّدّى فى سبب نزولها:

قال بـعض المنافقين: والله وددت لو أنّى قُدِّمتُ فـجلدتُ مائة، ولا ينزل فـينا شىء يفضحنا، فنزلت هذه الآية تفضحهم وتكشف عن دخائلهم.

وقال مـجاهد: كانوا يقـولون القول فيـما بينهم ثم يقولون: عـسى اللهُ أن لا يفشى سرنا.

وقال الحسن: اجتمع اثنا عشر رجلا من المنافـقين على أمرٍ من النفاق، فأخبر جبريل عليه السـلام رسول الله ﷺ بـأسمائهم، فقال النبى ﷺ: «إنّ أُناسًا اجتـمعوا على كيت وكيت، فليقوموا وليعـترفوا وليستغفروا ربهم حتى أشفع لهم» فلـم يقوموا، فقال عليه الصلاة والسلام بعد ذلك: «فقمْ يا فلان ويا فـلان، حتى أتى عليهم» ثم قالوا: نعترف ونستغفـر فقال ﷺ: «آلآن؟ أنا كنتُ أوَّل الأمر أطيب نفسا بالشفـاعة، والله كان أسرع فى الإجابة، اخرجوا عنى، اخرجوا عنى» فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية.

وقال الأصَمّ [1]: عند رجوع الرسول ﷺ مـن تبوك وقف له على العقبـة اثنا عشر رجلا ليفـتكوا به، فأخبره جبـريل عليه السـلام ـ وكانوا ملثـمين فى ليلة مظلمة ـ وأمره جبريل أن يرسل إليـهم من يضرب وجوه رواحلهم، فأمـر حذيفة رضى الله عنه بذلك فضربها حتى نَحَّاهم، ثم قال ﷺ لحذيفة: مَنْ عرفتَ من القوم؟ فقال: لم أعرف منهم أحدا. فذكـر النبى ﷺ أسماءهم وعَدَّهم له، وقـال: «إن جبريل أخبرنى بـذلك» فقال حذيفة: ألا تبـعث إليهم ليقتلوا؟ فقال: «أكـره أن تقول العرب: قاتل محمـد بأصحابه حتى إذا ظفر صار يقتلهم، بل يكفينا اللهُ ذلك».

(١) هو محـمد بن يعـقوب بن يوسف أبو العبـاس الأصم ولد سنة ٢٤٧ هـ من أهل نيـسـابور ورحل رحلة واسعة وأخذ الحديث من رجاله بمكة ومصر ودمـشق والموصل والكوفة وبغداد، وحدَّث ستًا وسبعين سنة وأخذ عنه الآباء والأبناء والأحفاد، وكان ثقة أمينا وتوفى بنيسابور سنة ٣٤٦ هـ.

وقال فخر الدين الرازى: واعلم أنهم كانوا يسمون هذه السورة «الحافرة» لأنها حفرت عما فى قلوب المنافقين.

﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

فقد كان الكفار والمنافقون يستهزئون بالدين وبمحمد ﷺ بالتقليل من شأنه، والكذب عليه، ونحو ذلك.

﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا﴾.

تهديد لهم ووعيد، أى فلن تبلغوا غايتكم فى أعمالكم الشائنة، وإن الله تعالى سوف يظهر للنبى ﷺ والمؤمنين ما تضمرون من شر وحقد.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ذكر عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً من المنافقين قال فى غزوة تبوك: ما رأيت مثل هؤلاء القوم أرغب قلوبا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء - يقصد رسول الله ﷺ والمؤمنين، فقال له واحد من الصحابة رضى الله عنهم: كذبتَ ولأنت منافق، ثم ذهب الصحابى رضى الله عنه ليخبر رسول الله ﷺ، فوجد القرآن قد سبقه.

فجاء ذلك الرجل القائل - وهو وديعة بن ثابت - إلى رسول الله ﷺ يعتذر عن قوله ذاك، قائلا: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث للرَّكْب نقطع به الطريق، ورسول الله ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون» يقول رسول الله ﷺ ذلك ولا يلتفت إليه وما يزيده عليه.

- وقال الحسن وقتادة: لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك؛ قال المنافقون فيما بينهم: أتراه يظهر على الشام ويأخذ حصونها وقصورها: هيهات هيهات!

فعند رجوعه من تبوك دعاهم وقال: أنتم القائلون بكذا بكذا؟ فقال: ما كان ذلك بالجدّ فى قلوبنا وإنما كنا نخوض ونلعب.

والمعنى الذى تدل عليه الآية الكريمة هو: أنهم ذكروا كلامًا فاسدًا على سبيل الطعن والاستهزاء، فلما أخبرهم الرسول ﷺ بأنهم قالوا ذلك؛ خافوا واعتذروا عنه بقولهم: إنما قلنا ذلك على وجه اللعب لا على سبيل الجدّ، فأجابهم رسول الله ﷺ بقوله:

«أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟».

﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

توبيخ لهم، أى لا تفعلوا ما لا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر وبعدم قبول الاعتذار عن هذا الذنب الكبير.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ قال المفسرون: الطائفتان كانوا ثلاثة أفراد، استهزأ منهم اثنان وضحك الثالث.

فالطائفة الأولى؛ الضاحك وقد عفا الله عنه لتوبته.

والطائفة الثانية: المستهزئان، فقرر الله عذابهما، لعلمه بأنهما لن يتوبا، وسيموتان على النفاق والكفر.

أو أن يكون المعنى عامًا: أى أن الله تعالى يعفو عَمَّنْ تاب، ويعذب من أصرّ على النفاق والكفر.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ـ ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾.

أى ذكورهم وإناثهم سواء فى صفة النفاق، وتفصيل هذه الصفة يتضح فى ثلاثة أعمال يقومون بها وهى:

ـ أنهم يأمرون بالمنكر أى بالشر وبكل قبيح وأعظمه تكذيب الله ورسوله.

ـ وأنهم ينهون عن المعروف أى عن الخير والبر وكل حسن، ومن صميم المعروف، الإيمان بالله ورسوله... إلخ.

ـ وأنهم يقبضون أيديهم أى يبخلون ويمتنعون عن كل خير واجب من زكاة وصدقة وإنفاق فى سبيل الله تعالى.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

أى تركوا أمره ونهيه حتى صار بمنزلة المَنْسىّ.

﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]

أى جازاهم على نسيانهم أمر الله ونهيه بأن صيَّرهم بمنزلة المَنْسِيّ من ثواب الله تعالى ورحمته.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أى هم الخارجون من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فهم الكاملون فى الفسق والخروج عما أمر الله به ونهى عنه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

الوعد هنا: بمعنى الوعيد والتهديد بمصير سيِّئ بل بأسوأ مصير، وقد وعد الله المنافقين والكفار بعقوبات شديدة هى:

- المصير إلى نار جهنم، وحسبهم به أسوأ مصير.

- والخلود فى هذه النار، وذلك وحده أشد أنواع العذاب.

- واللعن أى الطرد من رحمة الله مع الإهانة والذم.

- والعذاب المقيم، أى عذاب دنيوى عاجل يلازمهم فى الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والخوف من أن يطلع رسول الله ﷺ والمؤمنون على بواطنهم، وما يحذرونه من أنواع الفضائح، فهو عذاب آخر غير الخلود فى جهنم.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

- الخطاب فى الآية الكريمة للمنافقين.

- والمعنى العام للآية الكريمة هو: إنكم أيها المنافقون فعلتم كأفعال الذين من قبلكم من الكافرين، من أمركم بالمنكر ونهيكم عن المعروف وقبض أيديكم عن الخير، مع أن هؤلاء الكفار الذين أشبهتموهم فى هذه الأعمال الشائنة كانوا أشد قوة منكم أيها المنافقون وأكثر أموالاً وأولادًا، فاستمتعوا بذلك مدة الدُّنيا التى عاشوها ثم هلكوا وبادوا

وانقلبوا إلى حيث العقاب الدائم، فأنتم أيها المنافقون مع ضعفكم وقلة خيرات الدنيا عندكم أولى أن تكونوا مثلهم فى العقاب الأخروى.

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾.

أى خضتم أيها المنافقون فيما خاض فيه الكافرون والمنافقون من قبلكم من إعراض عن الله واستخفاف بأنبيائه وممارسة للمنكر والباطل، فلابد أن تكون لكم عاقبة كعاقبتهم وهى النار.

﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

أى بطلت أعمالهم حتى ما كان حسنا منها فى الظاهر فى الدنيا، بسبب موتهم على الكفر والنفاق.

فهم فى الدنيا سينتقلون من العز إلى الذل ومن القوة إلى الضعف، وفى الآخرة بأشد أنواع العقاب، وأنتم أيها المنافقون لكم نفس العقاب فى الدنيا والآخرة.

﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

حيث أتعبوا أنفسهم فى عناد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وتحديهم وتكذيبهم، فما وجدوا من وراء ذلك إلا فوات الخيرات فى الدنيا والآخرة، وحصول العقاب فى الدنيا والآخرة كذلك.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

- والمعنى: ألم تخبروا خبر من كان من قبلكم من الأمم التى كذبت الرسل، وهم ست أُمَم - كما جاء ذكرهم فى هذه الآية الكريمة، وهم:

* قوم نوح عليه السلام:

وما أصابهم من الغرق العام لجميعهم إلا من آمن بالله وبرسوله نوح عليه السلام. وفى ذلك عبرة لكم.

* وقوم هود عليه السلام وهم: عاد.

وقد أهلكوا بالريح العقيم عندما كذبوا نبيَّهم عليه السلام.

* وقوم صالح عليه السلام وهم: ثمود.

وقد أهلكوا بالصيحة فيهم لما كذبوا رسولهم عليه السلام وعقروا الناقة.

* وقوم إبراهيم عليه السلام.

وكان ملكهم نمرود بن كنعان، وقد أهلكهم الله لكفرهم وتحديهم لنبيهم عليه السلام.

* وقوم شعيب عليه السلام وهم: أصحاب مدين.

وقد أهلكهم الله تعالى بالرجفة وعذاب يوم الظلمة، لمّا كذبوا نبيهم عليه السلام.

* وقوم لوط عليه السلام وهم أصحاب القرى المؤتفكات وأهم قراهم سدوم، وقد أهلكهم الله بأن قلب عليهم مدينتهم أو مدنهم، لما كذبوا نبيهم واستمروا على إتيان الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

هؤلاء جميعا كذبوا أنبياءهم فعوقبوا عقابًا شديدًا.

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾.

أى جاءوهم بالحجج الساطعة والدلائل القاطعة، فكذبوا وعاندوا فعوقبوا، جزاءً عادلاً على كفرهم وتكذيبهم لله ورسله.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾.

أى ما كان ليهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسله بالبينات، وقد أرسل إليهم رسله عليهم السلام.

﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أى ظلموا أنفسهم بتكذيب أنبيائهم بعد أن جاءوهم بالبينات وقامت عليهم الحجج والبراهين.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ـ هذه الآية الكريمة في بيـان صفات المؤمنـين، وحسن جزائهم عند الله تـعالى، فى مقابل الآيات الكريمة السابقة التى وصفت المنافقين وبينت سوء عاقبتهم وخزيهم.

ـ وأهم صفات المؤمنين والمؤمنات التى أوضحتها هذه الآية الكريمـة ما نشير إليه فيما يلى:

* الولاء فيـما بينهم، أى أن بعضـهم يوالى بعضـا، ذلك الولاء الذى يعززه الإيمان والمشاركة فى الاستدلال على الحق والهدى والتوفيق.

* وأمرهم بالمعروف والخير والبر، والمنافقون يأمرون بالمنكر.

* ونهيهم عن المنكر والشر، والمنافقون يأمرون بالمنكر.

* وأنهم يعرفون حق الله تعالـى فيؤدون فروضه وأهمها الصـلاة، بينما المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالى يراءون الناس.

* وأنهم يؤتون الزكـاة وهى حق الله وحق بعض خلقـه فى المال فى حين المنافقـون يقبضون أيديهم عن أداء أى واجب أو إنفاق فى سبيل الله.

* وأنهم يطيعـون الله ورسوله، إذا أُمِروا بأمر أو نُهُوا عنه، وبخاصـة فى الجهاد فى سبيل الله ونحوه مما من شأنه أن يشق على الناس التضحية من أجله بالمال والنفس.

أما المنافقون فينسون أوامر الله ونواهيه أو يتجاهلونها عن عمدٍ وإصرار.

تلك أهم صفـات المؤمنين والمؤمنات أوضحـتها هذه الآية الكريمة بعـد أن أوضحت الآية السابقة أهم صفات المنافقين.

﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾

أى أولئك المؤمنون الذين اتصـفوا بهـذه الصفات سـيرحـمهم الله بغفـران ذنوبهم، وإدخالهم فى رحمته ورضوانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذا الجزء من الآية الكريمة يحمل الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب:

ـ الوعد والترغيب للمؤمنين والمؤمنات، إذ هم فى رحمة الله وجنته.

ـ والوعيد والترهيب للمنافقين والمنافقات، إذ هم فى عقابه ونار جهنم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ـ فى هذه الآية الكريمة تفصيل لما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات من رحمة وذلك مما يلى:

* جنات تجرى من تحتها الأنهار ـ والجنات البساتين ـ وجرى الأنهار تحتها متعة للعين تضاف إلى متعة الوجود فى الجنة وللمنافقين جهنم.

* والخلود فى هذه الجنات أى الحياة فيها بلا موت فى مقابل خلود المنافقين فى النار.

* والمساكن الطيبة فى جنات عدن، أى دور فى هذه الجنات يقيمون فيها إقامة طيبة فى جنات عدن أى إقامة.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: إنها دار المقربين إلى الله، وهى المدينة التى فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى.

وفى الجنة وصفاتها وما فيها من نعيم مقيم وردت عشرات الأحاديث النبوية الشريفة[1].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أى أن رضا الله تعالى عن المؤمنين والمؤمنات أكبر وأجل مما هم فيه من هذا النعيم الخالد.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أى ليس الذى يطلبه المنافقون والكفار من التنعم بما فى الدنيا من لذائذ، وقد دلَّت على ذلك السنة النبوية، فقد روى البزَّار فى مسنده من حديث الثورى ـ بسنده عن جابر

---

(١) تجد ذلك فى كتب السنة النبوية المطهرة: ففى صحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، الجنة وصفة نعيمها وأهلها، وفى غيره من كتب السنة النبوية المطهرة، وفى كتاب شعب الإيمان للبيهقى وكتاب الترغيب والترهيب للمنذرى.

رضى الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل:** هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟ قالوا: **يا ربنا ما خير مِمَّا أعطيتنا؟ قال: رضوانى أكبر**».

وفى هذا الحديث قال الحافظ الضياء المقـدسى - **فى كتابه: صفة الجنة: هذا الحديث** عندى على شرط الصحيح.

هذه الآيات الكريمة حافلة بالمواقف التربوية التى يحتاج المسلمون إلى دروسها وعبرها فى حياتهم الدنيا، ولا يستغنون عن هديها العظيم لحياتهم الأخرى، شأنها فى ذلك شأن القرآن الكريم كله.

غير أن هذه الآيات الكريمة تفيد المسلمين فى تعرف صفات المنافقين وطبيعة أعمالهم، ليكونوا منهم ومن صفاتهم على حذر.

ونستطيع توضيح هذه الدروس والعبر فيما يلى:

أولا:

يتعلم المسلمون من قوله تعالى: **﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ...﴾** الآيات إلى قوله تعالى: **﴿... فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾** ما يلى:

١ ـ أن من الصفات المرذولة التى يجب أن يتجنبها كل مسلم تلك الصفات التى يعرف بها المنافقون وهى: التعلل بالأعداء التى تعفيهم من القيام بالواجبات التى يفرضها عليهم الدين ومنهجه... قائلين: إن هذا الأمر شاق علينا أو يكلفنا ماليس فى طاقتنا!!! وكذبوا والله، فإن الله تعالى لا يكلف أحدًا من خلقه بما يشق عليه ولا بماليس فى وسعه.

أما إذا كانت للمنافقين مصلحة دنيوية فى شىء فإنهم يهرعون إليه مثل أن يكون عرضًا قريبًا، أو سفرًا قاصدًا، عندئذ يتبعون ما يكلفون به، ومثل هذه الآية فى المعنى ما رواه الإمام مالك فى موطئه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظمًا سمينًا أو مرماتين [1] حسنتين لشهد العشاء».

٢ ـ وأن الإسراع إلى الحَلِف صفة من صفات المنافقين حتى لو كان الحالف غير متعمد للكذب لوقوعه تحت النهى القرآنى.

(١) واحدها مرماة وهى ما بين ظلف الشاة من اللحم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. فما بالنا بمن يسرع إلى الحلف وهو يكذب كالمنافقين، إنها صفة تهلك صاحبها وتفقده وقاره وهيبته عند الناس، وما يليق بمسلم أن يعرض نفسه لذلك.

٣ ـ وأن الاستئذان فى عدم القيام بالواجب لغير عذر حقيقى مقبول من صفات المنافقين، لأن المنافق يتحايل لكى لا يقوم بالواجب والإنسان الذى لا يؤدى واجبه عضو فاسد فى المجتمع، فكيف إن كان مسلمًا يعلم أنه محاسب على التقصير فى أداء واجباته فضلا عن إهمالها نهائيا.

ومن الصفات التى يجب أن يفر المسلم من الاتصاف بها أن يتعذر مرة فيقبل عذره، ثم يعتذر الثانية والثالثة وهكذا كما كان يفعل المنافقون مع رسول الله ﷺ كما أذن لهم استمرءوا الاستئذان، وما كان ذلك مستغربًا منهم لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهم دائما فى ريب من الدين نفسه.

٤ ـ وأن المنافقين معروف عنهم أنهم لو أرادوا الخروج لحرب لأعدوا لها العدة لكنهم لَمَّا لم يستعدوا عُلِم أنهم لا يريدون الخروج.

وعلى المسلمين ألا يحرصوا على أن يشاركهم المنافقون فى حرب أو عمل له أهمية، لأنهم لو خرجوا ما نفعوا المسلمين فى شىء بل ضرُّوهم بما يملئون به الأجواء من دسائس وأراجيف، لأن شأنهم دائما أن يبتغوا الفتنة ويبحثوا عن أسبابها، فهم أهل تآمر وشر، وأهل حقد على الإسلام لا يحبون ظهوره، وحقد على المسلمين لا يريدون لهم أن ينتصروا على عدو.

٥ ـ وأن من أقبح الصفات التخاذل عن المعركة أو من أداء الواجب لأن ذلك يدل على ضعف الإيمان وضعف الانتماء للدين وللوطن أو للجماعة التى يقاتل معها أو يشاركها العمل، وتلك صفة من صفات المنافقين يتعللون بمختلف العلل ليتفلَّتوا من الأعباء الملقاة عليهم، حتى أنهم لا يستحون من ذكر علل يُستَحى منها كمقالة الجد بن قيس وهو يعتذر عن غزوة تبوك إنه يخشى على نفسه من الفتنة ببنات الروم!!!

٦ ـ ويتعلم المسلمون أن من تمام الإيمان وكماله ومن صميم الانتماء لهذا الدين العظيم أن يرجو المؤمن النصر للمسلمين فى كل معركة وفى كل موقع، مع يقينه أن النصر من عند الله، وليس لمسلم أن يكون موقفه متسببا فى هزيمة أو إضعاف لشوكة

المسلمين، لأن تلك هى صفات المنافقين، وهذه من أبرز أعمالهم فقد كانوا يفرحون لهزيمة المسلمين ويغتمون لانتصارهم.

وما أجدى على المنافقين تربصهم بالمسلمين ولن يجدى على أى متخاذل فى أى وقت أن يتربص بالمسلمين أو يتسبب لهم فى هزيمة، لأن الأمر كله لله والنصر من عنده، والقتال فى سبيله ولعمل من أجل دعوته ودينه ومنهجه ونظامه.

والمؤمنون رابحون فى كل معركة إذ لابد لهم من إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، والمنافقون خاسرون على كل حال إما بهزيمة فى الدنيا على أيدى المسلمين، وإما بعذاب وهزيمة من الله تعالى لهم فى الآخرة.

ثانيًا:

ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾ دروسًا عظيمة نذكر منها:

١ - أن خلوص النيَّة وتوجهها إلى الله تعالى فى كل عمل هو الأساس الذى يجعل العمل مقبولاً عند الله، إذ لو لم تخلص النية لله تعالى لكان شركًا فى العمل والله تعالى لا يقبل شريكًا.

وفساد النية أو عدم خلوصها هو شأن الكافرين والمنافقين والذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وهذا يتسبب لهم فى عدم قبول أعمالهم التى قد تنتمى إلى البر وفائدة الناس كصلة الأرحام وإغاثة اللهيف ونحو ذلك، فالذى قضى الله به ألا يتقبل من قوم كفروا بالله ورسوله، أو نافقوا فكانوا يقومون إلى صلاتهم كُسالى يراءون الناس، ولا ينفقون ما أنفقوا إلاوهم كارهون لهذا الإنفاق.

٢ - وأن العبرة فى أداء كل عبادة من زكاة مال وإنفاق فى سبيل الله هى طاعة الله ورضاه والإقبال عليه.

وما لم تكن العبادات كلها تستهدف طاعته ورضاه فهى غير مقبولة عند الله، بل تنقلب وبالاً على فاعلها، فيخسر ما قام به من عمل وما أنفقه من مال فى الدنيا، بل يلقى من الله تعالى أشد العذاب يوم القيامة، إذ الإخلاص لله بالعبادة هو الأصل.

ويستطيع المسلمون أن يتعلموا من الآية الكريمة: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ الآية أن الإخلاص هو مخ كل عبادة، روى الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان...» الحديث.

وروى النسائى بسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنهما أنه ظن أنَّ له فضلا على مَنْ دونه من أصحاب النبى ﷺ، فقال نبى الله ﷺ: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفائها ـ وفى رواية بضعيفها ـ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم».

وروى الطبرانى بسنده عن سهل بن سعد، وعن أبى نواس بن سمعان رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نيَّة المؤمن خير من عمله، وعمل المنافق خير من نيته، وكل يعمل على نيته، فإذا عمل المؤمن عملاً نَارَ فى قلبه نور».

ثالثا:

ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)﴾ ما يلى:

١ ـ أن ما يتصوره المنافقون منافع لهم فى الدنيا كحرصهم على أموالهم من الإنفاق فى سبيل الله، وإبعادهم أبناءهم عن خوض المعارك خوفا عليهم وضنًّا بهم، هى ليست فى الحقيقة منافع، وإنما هى سبب لعذابهم وإبتلائهم وتشديد المحنة عليهم.

ومعنى ذلك أن المسلم لا ينبغى أن يعجب أو يؤخذ بما يفعل المنافقون من أعمال ظاهرها النفع فى الدنيا وحقيقتها خسران الدنيا والآخرة، وإنما يجعل همه أن يوافق ظاهر عمله نيَّته وأن يرقب الله فى كل أمره، وأن يعتبر أن نعمة المال والبنين ليست دائما نعمة، وإنما قد تكون فتنة حينًا، وقد يكون الأولاد أعداءً فى بعض الأحيان، قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقال جل وعلا: ﴿... إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ...﴾ [التغابن: ١٤].

٢ ـ وأن المنافقين ـ وقد جمعوا على أنفسهم ـ بسبب خبيث أعمالهم خسارة الدنيا إلى خسارة الآخرة وذلك ليس فوقه خسران، هؤلاء المنافقون جبناء مخادعون كذابون يتعمدون الكذب (١) حين يحلفون على ما يعتقدون أنهم كذبة فيه، بدليل أنهم فيه، بدليل أنهم عندما يلقون المسلمين يحلفون لهم أنهم منهم، مع أنهم ـ كما حكت عنهم الآية الكريمة، لو يجدون ملجأ يتحصنون به من المسلمين، أو مغارة يهربون إليها منهم، أو سربًا فى الأرض يختفون فيه لفعلوا ذلك مسرعين متناسين ما أقسموا عليه من أنهم مع المؤمنين!!! إن المسلمين عليهم أن يتعلموا من هذه الآية الكريمة الصدق فى القول وفى العمل وفى المواقف، وأن يصدقوا مع الله ومع أنفسهم ومع الناس، لأن الإيمان صدق نيَّة والإسلام صدق عمل وحركة، والإحسان صدق موقف، وكل مسلم مطالب بأن يكون من الصادقين لأن الله مع الصادقين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

رابعا:

يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ ما يلى:

١ ـ أن المنافقين يغريهم نفاقهم بتجاوز كل حدٍّ فى حقدهم على الإسلام وعلى رسوله ومبلغه محمد ﷺ. فلقد بلغ بهم الحقد على رسول الله ﷺ أن اتهموه فى ذمته ـ وهو المعصوم ﷺ ـ ورموه بأنه غير عادل فى قسمة الصدقات!!! فلمزوه فيها وحاشا لرسول الله أن يفعل وقد جاء الناس بالعدل والإحسان وسائر القيم الفاضلة!!! ولكنه النفاق وما يفرزه من حقد على الحق وأهله، إن المنافقين فى ذلك الوقت وفى كل وقت كانوا يقرءون قول الله تعالى وهو يخاطب رسوله الخاتم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] لكنه النفاق! لكنه النفاق!.

---

(١) والكاذب يتوهم أنه يخدع الله تعالى!!! وهو على يقين من أنه يخدع نفسه ويخدع غيره من الناس، ولا عجب فالنفاق كله خداع والخداع كثير منه نفاق.

٢ ـ وأن المنافقين فى طباعهم الطمع والشراهة، لأنهم مهما أعطاهم الرسول ﷺ من مال الله ـ وقد كـان يعطيهم كثيرا يتألفـهم لعلهم يرجعون عن نفاقهم وكـفرهم ـ كانوا يرون ما أعطوا قليلا بالنسبة لما يطمعون فيـه، فقد كانت وما تزال أعراض الدنيا تغريهم وتلهيهم عن الآخـرة، وعن الفقه الصحيح للمـال والعَرَض. والمسلمون يعلمون أن الله تعالى لم يحرم عليهم طيبات الحيـاة الدنيا ولكن شرع لهم أن يتناولوها فى غير إسراف ولا مخيلة، وأن يكون طلبهم لها من أجل دينهم أولًا ودنياهم ثانيا. بذلك جاءت آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة.

قال الله تعـالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وروى أحمد والنسائى بسنديهما عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة».

وروى الترمذى بسنده عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته نعمته على عبده».

٣ ـ وأن الله تعالى لم يترك أمرًا من أمور الدين والـدنيا إلاَّ نظمه ووضع له القواعد التى تصلحه وتصلح به، فقد فرض الله فى أمـوال الزكاة أن تصرف لمحاويج محدودين من فقراء ومساكين...

وعند التأمل فـيمن تصرف لهم الزكاة نجـد أن المجتمع إذا التزم بإعطاء الزكـاة لهذه الأصناف من الناس فإنه يقضى علـى الخلل الاجتماعى، ويسد حاجـة المحتاجين، وفى ذلك ما فيه من استـقرار الحياة الاجتماعية واطمـئنان الناس بعضهم إلى بعض، وتبادل الاحترام والتقدير بين الأغنياء والفقراء، وتلك أخطـر القضايا التى ينشب بسببها الصراع بين الطبقات الاجتماعية فى أى مجتمع.

خامسا:

يتعلَّم المسلمـون من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ...﴾ إلى قوله تـعالى:

ما يلى:

١ - أن من خلق النبى ﷺ أنه كان يستمع إلى المسلمين ويصدقهم فيما يقولون، وكان هذا منه ﷺ دليل قلب كبير وأبوة حقيقية حانية، وهو أحسن للمؤمنين من أن يكذبهم أو يسىء الظن بهم وكيف يكذبهم أو يسىء الظن بهم وقد نهى عن ذلك وحظره على المسلمين فيما بينهم؟

وهكذا ينبغى أن يكون خلق المسلم اقتداء بالنبى ﷺ، أى يكون أُذُنَ خير للمسلمين.

٢ - وأن من صفات النبى ﷺ التى تفسر وتعلل لم كان أُذُنَ خير.

- إنه يؤمن بالله.

ومن كان مؤمنًا بالله كان خائفًا منه راجيًا له، ملتزمًا بما أمر منتهيًا عما نهى، وعندئذ يكون أذن خير، من كان بهذه الصفة فإن الكفار والمنافقين يعادونه وينتقصون من قدره ويتهمونه بالباطل. وإنه ﷺ: يؤمن للمؤمنين.

- ومن كان كذلك فهو يطمئن إلى المؤمنين فيستمع إليهم ويصدقهم فيما يقولون، احتراما لهم وحسن ظن بهم، وبخاصة عندما يتوافقون على أمر واحد، وهذا ينافى ما كان يدَّعيه المنافقون من أن النبى ﷺ سريع الاغترار بما يقال له.

- وإنه ﷺ: رحمة للمؤمنين.

ومن كان كذلك أجرى أمر الناس على ظاهره دون أن يفتش عن بواطنهم، أو يبالغ فى معرفة ما يضمرون، ليكشف أسرارهم، وهى صفة من صفات النبوة، وينبغى أن تكون من صفات المسلمين فى كل زمان.

* وهذه الصفات الثلاثة التى ذكرنا ينبغى أن تكون صفات المسلم فى كل حين، لأنها الصفات التى تجعل لمن يتحلى بها قبولا عند الناس، وتجعله محبا للناس محسنا للظن بهم، كما تجعله موضعا لرضا الله تعالى بالتزامه بهذه الأخلاق الفاضلة.

٣ - وأن إيذاء الرسول ﷺ مهما يكن فاعله - ولا يتوقع هذا إلا من كافر أو مشرك أو منافق، يقابله عند الله تعالى عذاب عظيم وأليم، لأنه إيذاء لله تعالى الذى أرسله

وأمر بطاعته وحبه واحترامه.

ويدخل فى إيذائه ﷺ ما يلى:

* اتهامه بأى تهمة لا تليق بمقام النبوة وجلال قدرها عند الله.

* ووصفه بأى صفة لا تليق بأنه ﷺ معصوم لا يصدر منه تعمد الخطأ بحال.

ولهذا الإيذاء أمثلة عديدة، وتهم كثيرة ردَّدها أعداء الإسلام قديما من منحرفى اليهود والنصارى، وكررها وأعادها أولئك الحاقدون من بعض المستشرقين والمبشرين والمتعالمين، ومن لفَّ لفهم من جهلة المسلمين وجرءاتهم بالباطل على الله ورسوله ﷺ!!! وعلى المسلمين أن يعلموا أن إيذاء الرسول ﷺ محادَّة ومعاداة لله تعالى ورسوله، والله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ...﴾ [التوبة: ٦٣].

٤ ـ وأن المنافقين ـ مهما تطاولوا ومهما أضمروا من شر ـ فإنهم يعيشون فى قلق ورعب من أن ينكشف نفاقهم، وعندما ينكشف نفاقهم تلازمهم صفة التنصل من كل ما قالوا أو فعلوا أو أساءوا باعتذار مخزٍ وأيمان كاذبة.

والله تبارك وتعالى عفا عن الذين تابوا منهم، ولكنه يُعِدُّ العذاب الأليم لمن لم يتب.

وفى الحديث الشريف روى الضياء المقدسى بسنده عن أنس رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إيَّاك وكل ما يُعْتَذَر منه».

٥ ـ وأن المنافقين يتصفون بأسوأ الصفات وأبلغها ضررا بالمجتمع الذى يعيشون فيه، فليس أسوأ للمجتمع من أن يكون فيه منافقون آمرون بالمنكر ناهون عن المعروف، يبخلون بما فى أيديهم على الحق وعلى الناس أصحاب هذا الحق فى الأموال. ويعاندون ما أمر الله به وما نهى عنه فسقًا منهم وخروجًا على دين الله ومنهجه ونظامه.

ومن أجل هذا أوعد الله تعالى الكافرين والمنافقين نار جنهم خالدين فيها، مع لعنهم وخلودهم فى النار، ومن كانوا كذلك فقد خسروا الدنيا والآخرة، كما جاء فى الآية الكريمة.

٦ ـ وأن من طبائع الناس أن يقلد بعضهم بعضا فى الخير حينًا وفى الشر أحيانا كثيرة ولكن المؤمنين يتميزون على غيرهم بأن الله تعالى جعلهم يجتنبون تقليد غيرهم فى

الشر.

وهذه الطبائع في الناس قررتها السنة النبوية المطهرة، فقد روى مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سُنَن الذين من قبلكم، شبْرًا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضبّ لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول: آليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ».

ورواه البخاري وابن ماجة وأحمد.

وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه قال: وإن شئتم فاقرءوا القرآن: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا...﴾ الآية حتى فرغ من الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل شُبِّهْنَا بهم.

وعلى المسلمين أن يدركوا أن وجه الشبه بينهم وبين اليهود والنصارى في أمرين:

الاستمتاع بحظوظ الدنيا والإعراض عن ذكر الله وتقواه.

والخوض في الباطل والمنكر.

وذلك على ما رآه ابن عباس رضي الله عنهما، وما يوحي به حديث الرسول ﷺ الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه.

سادسا:

يتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾ ما يلي:

١ - أنَّ الاتعاظ وأخذا العبرة من أخبار السابقين هو المنهج الصحيح للتفكير السليم، وهو نداء العقل الراشد والقلب الواعي؛ ففي أخبار المكذبين برسلهم، وهم:

قوم نوح، وقوم عاد، وقوم هود، وقوم إبراهيم، وقوم شعيب - على أنبيائهم ورسلهم الصلاة والسلام - هؤلاء الأقوام الذين كذبوا رسلهم فعاقبهم الله تعالى بتلك العقوبات التي ذكرنا آنفا، هؤلاء يجب أن تكون سِيَرُهم عِبْرة وعظة لكل من يجيء

بعدهم من الناس فيفكر فى معصية الله تعالى أو فى تكذيب خاتم رسله محمد ﷺ.

والمكذِّبون جميعا قدماؤهم ومحدثوهم أذنبوا وعـصوا الله ورسوله فمهما عوقبوا فى الدنيا أو فى الدنيا والآخرة فما ظلمهم الله تعالى شيئا ولكنهم كانوا أنفسهم يظلمون.

٢ ـ وأن إيمان المؤمنين لا يكمل ولا يتم حتى يحدث ولاء بين المؤمنين جـميعا رجالا ونسـاءً، لان الله تعالى أخـبر بذلك وقـرره فى قوله تعـالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. ﴾ وأن تمام إيمان المؤمن وكمـاله لا يحدث إلا مـصاحبًا لصـفات فاضلة يتحلى بها المؤمن، ذكرها الله تعالى فى الآية الكريمة، وتلك الصفات هى:

ـ أنهم يأمرون بكل معروف كل أحد فى كل مكان وفى كل وقت.

ـ وأنهم ينهون عن كل منكر كل أحد فى كل زمان ومكان يعيشون فيه.

ـ وأنهم يقيمون الصلاة وهى عمود الدين، التى تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

ـ وأنهم يؤتون الزكـاة وهى حق الله، وحق الذين ذكرهم الله تعـالى فى كتـابه وهم الأصناف الثمانية المعروفة.

ـ وأنهم يطيعون الله ورسوله فى اتباع منهج الحق.

بمعنى أن التقـصير فى الاتصاف بأى صـفة من هذه الصفات الخـمس إخلال بالدين وبكمال الإيمان، وتعرض لعقاب الله لمخالفة منهجه، وليس لأحد المؤمنين أن يخالف فى شيئ من ذلك فى ظل أى دعوًى يدعيهـا أو علة يتعلل بها، إلا أن يكون صاحب عذر يسقط عنه بعض التكاليف.

إن على المسلمين أن يتعلموا ذلك ويتمسكوا بأخـلاقه، وآدابه متخذين من رسول الله ﷺ القدوة والأسوة.

٣ ـ وأن الله تعالى ـ من رحمته بالمؤمنين ـ أن وعـدهم على القيام بهذه التكاليف فى الدنيا والتزامـهم بأدائها على الوجه الذى شرعه سبـحانه، وعدهم على ذلك بأربع نعم هي:

ـ دخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار.

ـ والخلود فى هذه الجنات.

ـ ومساكن طيبة فى جنات عدن.

ـ وأكثر وأجل من ذلك كله؛ رضوان الله تعالى.

وبهذه النعم الأربع يكون لهم الفوز العظيم.

* وكل مسلم يستطيع أن ينال هذه المكانة، إن اتصف بصفات المؤمنين التى تحدثت عنها الآية الكريمة السابقة: ﴿.. أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ...﴾ الآية.

وإن المؤمنين الذين يتصفون بتلك الصفات ويحظون بتلك الدرجات عند الله، إنما يسهمون بجدية فى تنقية المجتمع من العيوب، ليعيش الناس فى أمن وأمان، فيحققون المصالح لأنفسهم ولغيرهم، فى الدنيا والآخرة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

تتضمن هذه الآيات الكريمة وهى إحدى وثلاثون آية فيضامن المواقف التربوية التى يتعلم منها الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية دروسا لا غنى عنها فى مسيرتهم فى الدعوة والحركة والتربية والتنظيم فى مجالات العمل من أجل الإسلام. ومن تلك الدروس ما نشير إلى بعض فيما يلى:

أولا:

يتعلمون من الآيات الكريمة، من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ ما يلى:

١ ـ أنَّ المنافقين ومن إليهم من ضعاف الإيمان مُزَعْزَعى العقيدة ومنهارى العزائم من شأنهم أن يُقْبلوا على مكاسب الحياة الدنيا وأعراضها مهما تكن هيِّنة قليلة، ويهرعوا إلى شهواتها مهما تكن ضئيلة يغريهم بذلك نفاقهم وصفاتهم التى لا تفارقهم، تلك الصفات التى تجعل منهم أنانيين بخلاء أشحاء، يعتبرون أعراض الحياة الدنيا هى الربح الحقيقى.

وتلك صفات فيهم يجب أن يُحَذِّر منها الدعاة إلى الله كل من يدعونهم ويتحركون

فيهم ويحاولون تربيتهم على المنهج الإسلامى فى تربية الإنسان.

المنافقون كانوا وما زالوا وسيظلون كذلك بينما المؤمنون أقوياء الإيمان ثابتو العقيدة، متماسكو العزائم، من شأنهم أن يفكروا وأن يتدبروا فى كل عرض من أعراض الدنيا وفى كل شهوة من شهواتها، فإن كانت مما أحلَّ الله أقبلوا عليها دون سرف أو مخيلة، ودون انكباب عليها قد يدخلهم فى الإسراف فى تناولها فتصبح حراما بعد أن كانت حلالا.

إن المؤمنين يؤثرون العمل الذى يرضى الله تعالى مهما كلفهم من جهد أووقت أو مال، ما دام ذلك فى سبيل الله وابتغاء مرضاته، وشتان - فى هذا المجال - بيَن من يصر على طاعته وإرضائه!!! وبين غيرهم.

* وعلى الدعاة إلى الله فى هذه المقارنة بين المؤمنين والمنافقين أن ينبهوا الناس إلى أمرين هامَّين:

أحدهما:

أن الذين يتخلفون عن ركب الدعوة أو عن التضحيات من أجلها، عليهم أن يراجعوا إيمانهم ليدعموه بأسباب القوة من الإقبال على الله بعمل الطاعات واجتناب المعاصى ليزول عن قلوبهم التردد والتخوف من المضى فى طريق الدعوة فيقبلوا عليها وعلى أعمالها، وتضحياتها مؤمنين بأنهم لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم.

والآخر:

أن تخلف بعض المسلمين عن المضى فى موكب الدعوة إلى الله والحركة بدينه فى الناس والآفاق، هذا الموقف على خطئه ودلالته على ضعف الإيمان ما ينبغى أن يفت في عزائم المؤمنين الصادقين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يتنبهوا إلى سنة من سنن الله تعالى ماضية من أول ما كانت دعوة إلى الله ودعاة إليه، هذه السنة هى: أن المؤمنين قلة مضحية صابرة محتسبة عقدت العزم على المضى فى الطريق إلى الله مهما كثرت العقبات والعراقيل. وأن المنافقين كثرة نفعية أنانية جزوعة هاربة من أول مواجهة مولية الادبار لكل عدو، وأن

يضعـوا أمام أعين المدعوين قـوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ ليتدبروا فى مـحكم كلماتها وعميق دلالاتهـا، والدعاة إلى الله أدرى الناس بتدبر آيات القرآن وأعرفهم بما تذخر به من دلالات ومضامين.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله من هذه الآية الكريمة أن الكذب من خلق الضعفاء الجبناء مهما حاولوا إظهار القوة والشجاعة، وتلك قاعدة فى معرفة النفس الإنسانية فى مواجهة المواقف وهى: أنه لا يكذب إلا الضعفاء.

والصدق له أعـباؤه وتكاليفـه ولكن له مكانته عند الله ثم عند الناس، فـما أروع أن يكتب الإنسان عند الله صِدِّيقًا.

فقد روى مسـلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق بِرّ وإن البِرّ يهـدى إلى الجنة، وإن العبد ليتحـرّى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا. وإن الكذب فـجور وإن الفجور يهـدى إلى النار، وإن العبد ليـتحرى الكذب حتى يكتب كذابا».

وإن المنافقين كـثيرا مـا يحاولون إخفـاء كذبهم بالحلف، فمـا يزيدهم ذلك فى نظر المؤمنين بل فى نظر عامة الناس إلا احتـقارا؛ وذلك أن المؤمن ينظر بنور الله ولن تخفى عليه أكاذيب المنافقين ولا أيمانهم الخادعة.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يعلمـوا المدعوِّين أن يكون كل منهم قويا شجاعـا رافضا للكذب - إلا فى المواطن الشـرعيـة - [1] مهـما كـان فى الكذب مهـرب من عبء أو تضحية. ومعنى ذلك أن يكون المؤمن دائمـا مع الحق، ومع منهج الله تعالى وما أمر به وما نهى عنه، لأنه منهج الحق الذى ارتضاه الله تعالى للبشرية كلها دينا ونظاما.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يذكـروا الناس بأن الإسلام بل سـائر الأديان التى جاءت من عند الله تحرم الكذب وتجرمه، والإسلام يعتبره كبيرة من الكبائر، واعتبره من أعمال الكافرين والمنافقين والمشركين والظالمين والفاسـقين، وجعل للكذاب عقابا شديدا بل من

---

(١) هذه المواقف التى أبيح فيهـا الكذب كما جاء فى السنة ثلاثة: الحرب - لأن الحـرب خدعة - فيجوز فـيها الكذب.

والصلح بين المتخاصمين، لأن الصلح مطلب شرعى يباح فيه ذلك.

وكذب الرجل على زوجه فى وعده إياها بشىء وفى نيته الا يفعل.

أقسى أنواع العذاب، يفهم ذلك كله من آيات القرآن الكريم:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الانعام: ٢١] فالآية تصف الكاذب بأنه ظالم بل من أظلم الناس، وتخبر بأنه لن يفلح لان الله تعالى كتب: أن الظالمين لا يفلحون.

وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

فقد وصفت الآية الكريمة الكذاب بأنه من أظلم الناس، وجعلته كافرا مثواه فى جهنم.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يبصروا المدعوين بأنّ الكذابين أو المكذبين لله ولرسوله ﷺ، أغبياء مهما ادعوا الذكاء، لأنهم بهذا الكذب والتكذيب يهلكون أنفسهم فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإن الناس معظهم يعرفون الكاذب من لحن قوله فيحتقرونه وينصرفون عنه وربما ندَّدوا به فى مجالسهم أو واجهوه، وفى ذلك خزى أى خزى؟ وأما فى الآخرة فإن الكذابين فى أشد العقاب عند الله، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وقد وصفوا بالكفر والظلم والفسق.

وهل يعد على أى قدر من الذكاء من يهلك نفسه فى الدنيا والآخرة؟

٣ - وأن هناك أمورا فى حياة المؤمنين ينبغى أن يبادروا إلى عملها دون توانٍ، كالجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس، ومثل الجهاد فى سبيل الله العمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض، وهذا العمل منظومة تشمل الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، فكلها جهاد أو كالجهاد فى تطلبها الصبر والتضحية بالوقت والجهد والمال والنفس.

- وليس لمؤمن قادرٍ على الجهاد فى مجالاته كلها أن يعتذر عنه إلا بعذر يقبله الله والإضاع الإيمان والإسلام والمسلمون.

أما أولئك الذين يبحثون عن الذرائع لترك الجهاد فهؤلاء على وجه الحقيقة غير مؤمنين بالله ولا باليوم الآخر، وهم على وجه اليقين شاكُّون مترددون، أبعد ما يكونون عن الإيمان وأخلاقه وآدابه، وهؤلاء من أهم عوامل الهزيمة عند حدوث معركة.

* ومن المعروف أن العـمل فى الدعوة إلى الله وفى الحركة بدينه ومنهـجه فى الناس والآفاق، وفى تربية الناس تربية قرآنية وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبـيل الله لتكون كلمة الله هى العليـا، كل ذلك جهاد من أجل التـمكين لدين الله فى الأرض، وكل ذلك مما لا يجوز أن يقعد المسلمون عـن القيام به على الوجه الذى يحقق للمسـلمين مصالحـهم فى المعاش حـيث السعى ومـواجهـة الأعداء ـ وفى المعـاد حيث الحساب والجزاء، ذلك الأداء لهذه الأعمـال هو التجاوب مع قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ .

* إن على الدعاة إلى الله أن يوضـحوا للناس أن الدعـوة إلى الله وكل أنواع العمل من أجل دينه والتمكين لمنهجه فى الناس، طريق واضحة المعالم بيِّنَةُ الخطوات، مستقيمة المسالك لا عـوج فيها ولا الـتواء، وأن الذين يختارون السـعى فى هذه الطريق هم من السعـداء الذين اصطفاهم الله تعالى ليـحملوا أعبـاء الدعوة إليه، فـهم فى عملهم هذا امتداد لعمل الأنبياء عليهم السلام، ومن كانوا كذلك لا يعرفون التباطؤ ولا التردد فضلا عن التـراجع والقعـود، فـضلا عن البـحث عن الأعـذار والتـعلاَّت التى يبرِّرون بهـا قعودهم.

٤ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يوضـحوا للناس أن مشاركة المنافـقين للمؤمنين فى أى معـركة من مـعاركـهم فى السلم أو فى الحرب، لا يمكن أن تكون فى صـالح المؤمنين لجملة أسباب لا لسبب واحد:

ـ فهم أولاً منافقون لعنهم الله وغضب عليهم ولا يتقبل منهم عملا.

ـ وهم بنفاقهـم هذا خبيثو النيـة فاسدو الطوية، ومشـاركتهم للمسلمين فى مـعركة جديرة بألا يتحقق فيها نصر.

ـ وهم مترددون شاكُّون، والجندى فى المعركة إنما يكون له وزنه وأثره إذا كان شجاعًا مقدامًا غير متردد.

ـ وأنهم بوصفهم منافـقين يعملون على إفساد المقـاتلين بإيقاع الرعب فى قلوبهم من أعدائهم، هذا تخذيل يضر بالمسلمين أبلغ الضرر.

ـ وأنهم قد ينحازون للعـدو فى المعركة فيحدثـون بذلك خللاً فى صفوف المسلمين،

وفى نفوسهم.

وصدق الله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

* إن على الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن شأن المنافقين منذ عهد رسول الله ﷺ، وإلى يوم الناس هذا، بل وإلى يوم الدين شأن واحد لا يتغير، عبرت عنه الآية الكريمة التى يجب أن يحفظها المسلمون وأن يتدبروها، هو قوله تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)﴾ إنها تقرير دقيق يوضح برنامج عمل المنافقين، ويشير إلى أن بعض المسلمين قد يستمعون إلى ما يزوقه المنافقون من قول أو عمل فيظلمون أنفسهم ويظلمون الحق بهذا الاستماع إلى المنافقين أهل الفتنة الكارهين للحق ولظهور دين الله ومنهجه.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للمسلمين ولكل من يعمل من أجل الإسلام أن يدققوا فى اختيار من يشاركونهم فى هذا العمل، بحيث تُتَخَيَّر العناصر الصالحة لذلك البعيدة عن النفاق وصفاته، ومن صفات هذه العناصر:

- الإخلاص لله فى العمل.
- والمبادرة إلى طاعة الله وطاعة القيادة.
- والالتزام بأوامر الله ونواهيه.
- والرغبة فى التضحية فى سبيل الله.

إن هذه العناصر التى تختار وفق هذه المعايير لتشارك فى معارك المسلمين هى التى يتحقق النصر الذى كتبه الله للمؤمنين بمشاركتها، ليوصد طريق المشاركة فى المعارك فى وجوه الذين ارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون.

ثانيا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿. . . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾ ما يلى:

١ ـ أنّ للمنافقين أعذار واهية تنتمى إلى الكذب والتضليل، وأن الله تعالى قد كشف عن نواياهم السيئة فى هذه المعاذير. وأوضح مثال لهذه الأعذار الواهية هو عذر الجدّ بن قيس عن المشركة فى غزوة تبوك بقوله: إنه يخشى على نفسه أن تفتنه نساء الروم!!! وقد أذن النبى ﷺ له فى القعود. فهل هناك عذر أوهى من ذلك العذر؟

وهل هناك دليل على فساد النية أوضح من هذا الموقف؟

بل هل هناك وقاحة وصفاقة أكبر من مواجهة الرسول ﷺ بمثل هذا العذر؟ كيف كان يزعم أنه مسلم ثم يقول هذا الكلام؟

٢ ـ وأن المنافقين من شأنهم أن يتربصوا بالمسلمين كل شر، فيفرحون بما يصيب المسلمين من شر هزيمة أو نحوها، ويحزنون لما يحققه المسلمون من خير نصر أو غنيمة أو نحوها، شأنهم فى ذلك شأن المشركين والكافرين فى حبهم الشر للمسلمين وكراهيتهم الخير لهم.

وفى الحق إن المسلمين ما يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، ولن يغير هذا المكتوبَ شىءٌ، وقد كتب الله على نفسه نصر المؤمنين.

٣ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للمسلمين أن تربص المنافقين الدائم للمسلمين إنما هو غفلة من عقلائهم وحقد من سائرهم، لأن أمر المؤمنين كله خير لهم فى السراء يشكر الله وفى الضراء يصبر ويحتسب، فالمؤمنون على وجه الحقيقة لا يتربص بهم إلا إحدى الحسنين: النصر على الأعداء والغنيمة، أو الشهادة فى سبيل الله، وكل منهما خير لما فيها من عز الدنيا والآخرة.

أما ما يتربص به المؤمنون للكافرين والمنافقين فهو عذاب لاحقٌ بهم، إما فى الدنيا على أيدى المؤمنين بأن يهزموهم ويغنموا أموالهم، وإما فى الآخرة بعذاب الله وما أعده للمنافقين من خزى وهوان.

٤ ـ وأن الله تعالى أخبـر عن المنافقين أنهم لن تقبل منهم نفقـاتهم فى سبيل الله لو أنفقوا، وذلك لأسباب منها:

ـ أنهم كفروا بالله ورسوله.

ـ وأنهم لا يأتون الصـلاة إلا وهم كسـالى، فصـلاتهم مظهر وحـركات لا خـشوعُ وابتهالات.

ـ ونفقاتهم يؤدونها وهم كارهون لهذا الأداء رافـضون له من داخلهم، وإنما ينفقونها خوفا وجبنا أو حرجا من المسلمين.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للمسلمين أن الأساس المتين الذى يقوم عليه قبول أى عمل عند الله تعالى هو: الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وأن الصلاة وهى عماد الدين إنما تكون بإقبال عليها ورغبة فيها دون تكاسل أو تباطؤ أو انشغال عنها.

وأن النفقات فى سبيل الله يجب أن تصحبها رغبة وترحيب لأنها المال الباقى عند الله الذى يثيب عليه أجزل الثواب.

وأن كل ما يبذله المؤمن فى سبـيل الله من مال أو وقت أو جهد أو نفس، يجب أن يكون نابعا من قلبـه، تدفعه إليه رغـبه فى التقرب إلى الله، وهذا فـرق ما بين المؤمنين والمنافقين.

٥ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الله تعـالى قد يعطى المنافقين أموالا وأولاد أو ظروفا يراها بعض الناس جـيدة، ومع ذلك ينهى الله النبى ﷺ والمؤمنين عن أن يعجبوا بهذه النعم الزائلة التى فى أيدى المنافقين، ويخبرهم بأن تلك النعم فى أيديهم ما هى إلا وبال عليهم.

فهل يُغَرُّ الإنسان أو يعجب بما هو وبال على صاحبه؟

إن هذه الأمـوال التى لا تنفق فى سـبـيل الله، وإن هؤلاء الأولاد الذين لا يكونون جنوداً للحق وأعوانًا، إنما هى سبب فى تعذيب المنافقين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

فهل يعـتبر الناس بهـذا الدرس العظيم فلا يضنون بأموالـهم وأولادهم على مناصرة

الحق، والعمل على أن يسود منهج الله ونظامه؟ أم لا يستفيدون من الدرس حتى يكون حالهم كحال المنافقين، ومآلهم كمآلهم؟

* إن التبصير بهذه الحقيقة هى من صميم عمل الدعاة إلى الله، والمتحركين بالإسلام فى الناس والآفاق.

٦ - والآيات الكريمة توضح أهم صفات المنافقين، فتتحدث عن أسوئها فيهم وألصقها بهم حتى لتصبح عندهم طباعًا لاتفارقهم ولا يفارقونها، فكلما كان منافق كانت هذه صفاته.

وهذه الصفات هى:

- الجُبْن: وهو تهيُّب الإقدام على ما لا ينبغى أن يخاف. وهو فى حقيقته قصور فى العقل وضعف فى القلب ونقص فى الإيمان.

- والخوف: وهو توقع حلول مكروه، أو توقع فوت محبوب، وهو أيضا دليل على قصور العقل وخلل الفكر، لأن هذا التوقع لن يغير من الحقيقة شيئا، وليس عملا إيجابيا يجابه به الإنسان مخاوفه وإنما هو انكماش وسلبية وضياع.

- والطمع: وهو نزوع النفس إلى الشىء شهوة له، وهو طبع لا يفارق صاحبه، وهو دليل فقد الإيمان بالله وبالقدر، كما هو أنانية مفرطة لما فيه من الاستئثار بهذه الشهوات.

* وهذه الصفات الثلاث؛ بسبب إجماع الناس على قبحها، فإن أصحابها يحاولون أن يخفوا اتصافهم بها عن الناس وربما عززوا ذلك بأيمان كاذبة يؤكدون بها أنهم مع المؤمنين، ولو وجدوا أى مهرب يبعدهم من المؤمنين للتجاوا إليه.

* والدعاة إلى الله عليهم أن ينفروا الناس من تلك الصفات الذميمة الجُبْن والخوْف والطمع فإنها ليست من صفات المؤمنين ولا يجوز لمسلم أن يتصف بها، فإن فعل فقد دَلَفَ إلى النفاق من باب واسع ومهيع فسيح.

٧ - وأن من المنافقين من بلغ به كفره وفسقه حداً اتهام رسول الله ﷺ بعدم العدل فى توزيع الصدقات، وتلك من أكبر الكبائر، لأن الرسول ﷺ جاء يأمر الناس بالعدل والإحسان فكيف يأمرهم بشىء ولا يفعله؟ ومن يعدل إذا لم يعدل محمد ﷺ؟

ولم يحرك المنافقين إلى هذه التهمة الشنعاء للرسول ﷺ إلا الطمع الذى سيطر عليهم وملأ نفوسهم بالرغبة فى الأموال التى تقسم فى الصدقات، مع أنها توزع فى مستحقيها وحدهم، ولو أنهم كانوا من مستحقيها لأعطوا منها، ولكنه الطمع، الذى أسخطهم حينما لم يُعطوا منها.

ولقد أوضحت الآية الكريمة موقفهم بوضوح: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس الرضا بما يؤتيهم الله من فضله، وأن يقولوا حسبنا الله واثقين بأن الله تعالى سوف يؤتيهم من فضله، لأن ذلك هو خلق المؤمن، وليس لمؤمن أن يتخلى عن أخلاق المؤمنين.

والرضا بما أقره الله ورسوله وبما جاء به هذا الدين الخاتم وهذا المنهج المتكامل هو من صميم الإيمان، وهو الحق الذى لا يجوز العدول عنه، ثم هو باب الدخول فى طاعة الله تعالى ورضاه، ولقد قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ لكان خيراً لهم ولكنهم لم يرضوا لنفاقهم.

* أفلا يتعلم المؤمنون من هذا الدرس ما ينبغى أن يملأ قلوبهم رضا بالله ورسوله ومنهجه ونظامه؟

٨ - وأن الله تعالى - من أجل تكامل المنهج - حدَّد مصارف الزكاة وحصرها فى الأصناف الثمانية التى اشتملت عليها الآية الكريمة، وعند التأمل فى هذه الأصناف نجدها قد شملت كل محتاج فى المجتمع، فعالجت حاجته أو سدَّتْ خُلَّته، فى عمل سنوى مستمر كلما حال الحول على أموال الزكاة، حتى تُجْتَثَّ الحاجة فى المجتمع المسلم، ويأمن المجتمع من الحاجة ونتائجها الوخيمة، ويحال بين أصحاب الحاجات - إذا تركوا فلم يعطوا - وبين الحسد والحقد على إخوانهم أصحاب الأموال، وهذا أنفع للمجتمع فى حاضره ومستقبله وأدعى إلى أن يسود الأمن والطمأنينة فيه.

* وأن من رحمة الله بأصحاب الحاجات، ومن رحمته بأصحاب الأموال أن جعل هذه الزكاة فريضة على أصحاب المال تؤدى إلى أصحاب الحاجات، فهى ليست تبرعا

ولا صدقة تطوع، وإنما هى فريضة مفروضة كالصلاة والصوم وغيرهما من الفرائض، وهى حق لهؤلاء الأصناف الثمانية ليس لأحد أن ينكره أو يهضمه.

وهذا النظام من أقوى الأدلة على أن المجتمع المسلم مجتمع متراحم إذا التزم فيه كل واحد بما يجب عليه.

٩ ـ وأن من المنافقين من يعمون عن الحق، أو تغيم عليهم الرؤية فى الأدب الرفيع الذى كان يتصف به رسول الله ﷺ عندما كان يستمع إلى الناس، فيقبل عليهم فى سماحة، ويقبل منهم ما يقولون غير مكذب لهم لحسن ظنه فيهم، يرى هؤلاء المنافقون فى ذلك الأدب النبوى الرفيع صفة رذيلة فيقولون عنه ﷺ: هو أُذن أى سمَّاع لكل ما يقال، أو ضعيف عن أن يجابه الناس بتكذيبهم ورفضه ما يقولون.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الأدب النبوى فى تصديق الناس وعدم مجابهتهم خلق يجب أن يحتذى، وأن المؤمن ليس له أن يجابه الناس أو يكشف عن عوراتهم، حتى لو كان يعرف أنهم يكذبون، لأن الإيمان سماحة وصبر فى التعامل مع الناس جميعا، كما جاء ذلك فى الحديث الشريف، فقد روى أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: إن رجلا أتى النبى ﷺ، فقال يا نبى الله أى العمل أفضل؟ قال: «الإيمان بالله وتصديق به وجهاد فى سبيله» قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله ﷺ قال: «السماحة والصبر» قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله، قال: «لا تتهم الله تعالى فى شىء قضى لك به».

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا أن كل أنواع السلوك الإنسانى يجب أن تتجه إلى إرضاء الله تعالى، قبل أن تتجه إلى إرضاء الناس، فمن قصد إرضاء الله بعمله هيأ الله له رضا الناس عنه، وعليهم أن يؤكدوا للناس أن الانحراف عن هذا الهدف وهو إرضاء الله تعالى معاداة لله ورسوله ولمنهج هذا الدين الخاتم، ومعنى ذلك أن يعاقب اللهُ على هذا الانحراف عقابا شديدا.

ثالثا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾ الآيات إلى قوله

تعالى: ﴿. . . بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ ما يلى:

١ ـ أن المنافقين عندما يكونون ضعافا، فإنهم يتزلفون إلى المؤمنين ليرضوهم فيحلفوا الأيمان المغلظة ليرضى عنهم المؤمنون، وهذا من الباطل ومن الضلال المبين، إذ كان الأولى بهم أن يتجهوا إلى إرضاء الله تعالى بالإيمان به وبرسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وإلا اعتبروا محادين لله ورسوله واستحقوا عقاب الله وعذابه.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الفارق بين الإيمان والكفر، وبين موالاة الله ورسوله أو محادتهما هو العمل على إرضاء الله تعالى بالتزام منهجه ونظامه.

٢ ـ وأن سور القرآن الكريم كانت تنزل على رسول الله لتكشف نفاق المنافقين، وتطلع عليهم المؤمنين، فكان المنافقون فى ذلك الوقت فى خوف دائم وحذر مستمر من أن تنزل عليهم سورة توالى كشف نفاقهم للرسول ﷺ وللمؤمنين، وقد كان ذلك يحدث فعلا حتى كانت هذه السورة آخر ما نزل فى كشف نفاقهم.

ثم حدثنا رسول الله ﷺ فى عدد من أحاديثه النبوية ليعلمنا كيف نعرف المنافقين وما هى أهم صفاتهم من مثل ما رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها؛ إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر».

وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من علامة المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفى رواية أخرى لأبى هريرة رضى الله، زاد: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» [1].

٣ ـ وأن المنافقين أسرع الناس إلى الاعتذار ولو كان اعتذارا باردا غير مقبول كقولهم عندما ينكشف نفاقهم وثبت عليهم مقالة السوء التى قالوها: ﴿. . . إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ولقد نهاهم الله تعالى عن الاعتذار، إذ ماذا يجدى على الكافر ـ وهم كفرة ـ

---

(١) وانظر لمعرفة المزيد من هذه الأحاديث النبوية الشريفة: صحيح مسلم: باب خصال المنافق، وكتاب: صفات المنافقين وأحكامهم فى صحيحه أيضا.

اعتذاره، وإذا كان الله تعالى قد قبل عذر بعضهم لتوبتهم، فإنه سبحانه سوف يعذب بعضهم لإجرامهم في ممارسة النفاق، ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

* وفي ذلك كله دروس وعبر يفقه بها الدعاة إلى الله من يدعونهم من الناس، حتى لا يقعوا في النفاق ولا يتصفوا بصفاته.

رابعا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ... ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾ ما يلي:

١ - أن المنافقين والمنافقات جميعا هم كالشيء الواحد في الخروج على الدين، إذ هم أصحاب طبيعة واحدة، ومثلهم في هذه الطبيعة الكفارُ.

وهي طبيعة ترتكز على حب الشر وإيثاره، وتعتمد على إقرار الباطل واختياره، وتتمثل هذه الطبيعة في أنماط من السلوك أهمها:

- أنهم يأمرون غيرهم بالمنكر، ولا حُبَّ للشر أكبر من ذلك!!!

- وأنهم ينهون الآخرين عن المعروف، ولا كراهية للخير أكبر من ذلك!!!

- وأنهم يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أوجب الله، ولا توجيه للمال أسوأ من ذلك!!!

- وأنهم ينسون الله وما أمر به وما نهى عنه، وما وعد على الخير، وما أوعد على الشر.

- وأنهم فاسقون - خارجون - عن أمر ربهم ونهيه.

* وقد وعد الله تعالى المنافقين والمنافقات والكفار؛ نار جهنم، وأمر بأن يخلدوا فيها، وجعلها مثوى ومأوى لهم يكفيهم ما هم فيه من العذاب.

وكتب تعالى عليهم أن يكون عذابهم مقيمًا دائمًا لا ينفعك عنهم.

* إن على الدعـاة إلى الله أن يتدبـروا هاتين الآيتين الكريمتين ليـضعـوا أيدى الناس وأعينهم وسائر حواسهم على صفات المنافقين والمنافقات، ليدركوا كم هى منفرة وضالة ومضلة، وليعرفـوا معرفة اليقين ماذا ينتظر هؤلاء المنافقين والمنافقـات من عذاب مقيم، ليكون المسلمون أبعد الناس عن هذه الصفات وعن العذاب الذى ينتظر أصحابها.

٢ ـ وأن الله تعالى يضرب الأمثال للمنافقين وللمنافقات من أمم كانوا قبلهم ليتعظوا ولينخلعوا عن تلك الـصفات وما يتـرتب عليها من عـقاب، يضرب لهم الأمثـال حتى يبطل حججهم فى التمسك بما هم فيه.

* وإن فى تاريخ هذه الأمم التى عصت الله ورسله فـعوقبت على هذه المعـصية فى الدنيا وأُعدَّ لهم عقاب فى الآخـرة، إن فى تاريخ تلك الأمم عظة وعبرة لكل ذى بصر وبصيرة وذلك كى لا يخوض المنافقون والمنافقات فيما خاض فيه الذين كانوا من قبلهم ـ مع أن الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قـوة وأكثر أموالا وأولادا فلم تغنهم عن عذاب الله شيئا ولم تحل بينهم وبينه، فهل يريدون أن يكونوا مثلهم؟

إنهم قد حـبطت أعمـالهم فى الدنيا والآخرة وذلك هو الخـسران المبين، فـهل يقبل عاقل أن يحبط عمله فى الدنيا والآخرة؟

* إن على الدعاة إلى الله أن ينـبهوا الناس إلى وجـوب الوقوف أمام التـاريخ لأخذ العبرة، دون أى تجاهل إلى ما كان عليـه من سبقونا من الأمم المكذبة لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام، كقوم نوح وقوم عاد وقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم شعيب أصحاب مدين، وقوم لوط أصحاب القرى التى قلبت على ساكنيها. كل هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم فعاقبهم الله فى الدنيا بما قـصه علينا القرآن الكريم من أنواع العقاب، وما ظلمهم الله بهذا العقاب ولكن كانوا أنفـسهم يظلمون بما كذبوا وعصوا الله ورسوله، وما عاقبهم سبحانه إلا بعد أن أرسل رسله بالبينات.

هذا عن المنافقين والمنافقات وما ينتظرهم ويـنتظر أمثالهم من الكافرين والمشركين فى ذلك الماضى البعـيد مع أنبيائهم ورسلهم وفى عـهد الرسول الخاتم ﷺ وفى كـل عهد وكل مكان يوجد فيه المنافقون.

٣ ـ وأما المؤمنون والمؤمنات فبـعضهم أولياء بعض، وهم جميـعا أولياء لله ولرسوله

وللحق الذى ينادون به ويدعون إليه ويتحركـون به فى الناس، ويربون الناس على قيمه ومبادئه.

* هؤلاء المؤمنون لهم صفات يتميزون بها وهى:

- أنهم يأمرون بالمعروف كل أحد.

- وينهون عن المنكر كل ضال أو فاسق.

- ويلتزمون بإقامة الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

- ويؤتون الزكاة بنوعيها المفروضة والمتطوع بها فيعرفون فيها حق الله وحق الناس.

- ويطيعون الله ورسوله فى كل أمر وكل نهى.

* هؤلاء المؤمنون والمؤمنات وهذه صفاتهم، سيـرحمهم الله، ولن يحول بينهم وبين رحمته أحد ولا حائل لأن الله تعالى عزيز قـوى قادر له حكمة عالية فى عقاب المنافقين وإثابة المؤمن.

* ولقد أوضحت الآية الكريمة التالية معنى رحمة الله تعالى للمؤمنين، وهو وعدهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وبمساكن طيبة فى جنات عدن، وبرضوان من الله أكـبر من ذلك كله، لأنه سـبحـان وقد علم مـنهم الإيمان والطاعه أراد لهم الفـوز العظيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

* وفى هذا الفوز العظيم وفى الجنة وردت أحاديث نبوية شريفة كثيرة نذكر منها[1]:

- ما أخرجه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمن بالله ورسـوله وأقام الصـلاة وصام رمـضان، فـإنَّ حَقًّا على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله أو حُبس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة

---

(١) من أراد معرفة المزيد من أحـاديث النبى ﷺ فى الجنة فلينظر: صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفـة نعيمها وأهلها، ففيه ثلاثة وثلاثون حديثا نبويًا، ولينظر إلى غيره من كتب السنة ففيها الكثير.

وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، فوق عرش الرحمن».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: قال الله عز وجل: «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك فى كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وروى الإمام مالك بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك!!! فيقول: أُحِلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»؛ هكذا يرقق الدعاة إلى الله قلوب المدعوِّين ويشوِّقونهم إلى ما أعد الله لعباده الصالحين.

٩ ـ الآيات الكريمة من الآية الثالثة والسبعين إلى الآية التاسعة والثمانين

نداء على الرسول ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين

وبيان لصفاتهم وجزائهم، ومقارنة ذلك الجزاء بجزاء المؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)﴾.

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها:

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن عدد من الموضوعات:

أولها:

أمْر النبى ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم، وتبرر له تلك المعاملة.

وثانيها:

أنها تصف المنافقين بعدة صفات هى:

- أنهم يتهمـون الرسول ﷺ بالباطل ويقعـون فيه وفى سيرته، ثم يـحلفون أنهم ما قالوا شيئا ولم يعملوا شيئا مع أنهم قالوا وعملوا ما حلفوا على إنكاره.

- وأنهم يعاهدون الله على الصدقة إن آتاهم من فضله، ثم ينكصون عندما يؤتهم الله من فضله ويبخلون ويعرضون.

- وأنهم يعيبون المؤمنين عندما يتصدقون بالقليل أو بالكثير فيسخرون من المؤمن الذى تصدق بالقليل ويتهمون الذى تصدق بالكثير.

- وأنهم يفرحون بقعـودهم عن الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفـسهم متعللين بأن الوقت وقت حَرٌ شديد.

وثالثها:

- نهى الرسول ﷺ عن أن يسمح لهم بالخروج معه للقتال.

- ونهيه ﷺ عـن الصلاة على ميتـهم أو الوقوف على قبره، لكفـرهم وموتهم على الفسـق.

- ونهيه عن أن يعجب بما أعطاهم الله من مال وولد.

ورابعها:

الحديث عن نوع من المنـافقين، إذا طولبوا بالجـهاد فى سبـيل الله وكانوا أولى طول وحـول استـأذنوا فى أن يقـعدوا عن الجـهاد راضين بأن يكـونوا مع الخوالف مع بيـان جزائهم.

وخامسها:

مقارنة موقف النبى ﷺ والمؤمنين من الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بموقف المنافقين، وبيان لجزاء النبى ﷺ والمؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

- الخطاب للنبى ﷺ وتدخل فيه أمته.

والمعنى: جاهد الكفار والمنافقين بنفسك وبالمؤمنين الذين معك وإذا كانت القاعدة الشرعية هى الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر؛ فكيف يجاهد المنافقين وهم يظهرون الإسلام؟

قال ابن عباس رضى الله عنهما: أمر الرسول ﷺ بجهاد الكفار بالسيف، وبجهاد المنافقين باللسان وإظهار الحجة، مع الشدة والتغليظ عليهم.

وقال كثير من العلماء: هذه الآية الكريمة نسخت كل شىء من العفو والصلح والصفح.

ويرى بعض العلماء أن قتالهم واجب لأنهم صرحوا بكلمات الكفر وسمع منهم ذلك، بل عهد منهم عداء الله ورسوله، والاستخفاف بالدين وبمن دعا إليه، فهم كالكفار.

وكلمة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه توضح هذا الأمر أجلى توضيح، وهى قوله:

بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف:

- سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾.

- وسيف للكفار أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

- وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

- وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾،

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

هذا جزاؤهم عند الله تعالى يوم القيامة ومصيرهم، وهو أقسى جزاء وأسوأ مصير.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾.

المعنى: أن أقواما من المنافقين قالوا أقوالا سيئة فى حق الرسول ﷺ، فلما قيل لهم: إنكم قلتم هذه الأقوال، خافوا وحلفوا أنهم ما قالوا.

قال قتادة: نزلت فى عبد الله بن أُبيّ بن سلول: وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى وأنصارى، فعلا الجهنى على الأنصارى، فقال عبد الله بن أُبى للأنصار: ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل، فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه الرسول ﷺ فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية.

* وقد روى فى سبب نزولها: أن النبى ﷺ أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن الكريم يعيب على المنافقين المتخلفين عن هذه الغزوة، فقال الجُلاس بن سويد: والله لئن كان ما يقوله محمد فى إخواننا الذين خلفناهم حقًا مع أنهم أشرافنا، فنحن شرٌّ من الحمير. فقال عامر بن قيس - ابن امرأة الجلاس -: أجل والله، إن محمدا لصادق وأنتَ شرٌّ من الحمار.

وبلغ ذلك النبي ﷺ فاستحضر الجلاس، فحلف بالله إنه ما قال، فرفع عامر يده وقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب، فنزلتْ هذه الآية.

فقال الجُلاس: لقد ذكر الله التوبة فى هذه الآية، ولقد قلتُ هذا الكلام وصدق عامر، فتاب الجلاس وحسنتْ توبته.

﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ هى كل كلمة فيها تكذيب للنبى ﷺ. أو أعلن بها صاحبها أنه كافر.

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾.

وهم المنافقون الذين دخلوا فى الإسلام ظاهرا ثم كفروا بما قاموا به من أعمال تناقض

الإيمان والإسلام.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

أى همـوا بعمل لم يحـصلوا عليه، وهو الفـتك برسول الله ﷺ عنـد مرجعـه من تبوك، حيث تواثق خمسة عشر رجلا من المنافقين على أن يترصدوا للنبى ﷺ فى عقبة بالطريق، تحتها واد، فإذا اعتلاها ليلا يدفعونه عن راحلته إلى الوادى، وكان رسول الله ﷺ سائرًا وقـد أخذ عمـار بن ياسر بخطام راحلتـه يقودها، وكان حـذيفة بن اليـمان يسوقها، فـأحسَّ حذيفة بهم فصاح بهم فهربوا، ولم ينالوا مـا كانوا يأملونه من الفتك برسول الله ﷺ.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾

أى لم يكن لديهم من الأسباب مـا يجعلهم ينقمون شيئـا على دخولهم فى الإسلام إلا أن تكون نقمتهم وامتعاضـهم بسبب ما أحاط الله تعالى به المؤمنين بحلول النبى ﷺ فيهم، من الرزق والغنيمة والأمن الذى أدخله عليهم دخولهم فى الإسلام، وكان الأمن أكبـر نعم الله عليـهم فقـد جعلهم الإسـلام إخوة فى الله فـزالت من بينهم الضغـائن والثارات، بعـد أن كانت متفـشية فيهم، وكـان أقربها ما كـان بين الأوس والخزرج من حروب ضارية يؤرثها اليـهود، وكان من أشهرها قبيل هجـرة الرسول ﷺ إليهم حربُ بُعاث [1].

وهذا بالطبع ليس سببا فى نقمتهم على المؤمنين لأن الله أغناهم، ولكنه تهكم بهم.

﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أى إذا تاب المنافقون عن نفاقهم فإن فى تلك الـتوبة خيرًا لهم حيث يكف المسلمون عن قتالهم، بل يعتبرونهم إخوة لهم.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

أى إذا لم يتوبوا وتولوا عن التـوبة عذبوا فى الدنيا عذاب القتل والأسـر وللحصار،

---

(1) بُعاث: موضع قـرب المدنية المنورة كانت فيه آخر مـوقعة بين الأوس والخزرج فـسميت الموقعة باسم هذا المكان.

وعذبوا فى الآخرة بالنار.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾

أى لن يجدوا فى هذه الأرض وليًا لهم من القبائل يواليهم وينصرهم، فقد كان الناس قد دخلوا فى دين الله أفواجا، فلم يكن منهم على غَيْر الإسلام إلا من لا يعبأ به عددًا وعُدَّة، فمن يستطيع أن يواليهم أو ينصرهم؟

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أى: من المنافقين من كانوا عاهدوا الله على أن يتصدقوا من أموالهم ويحسنوا: إذا آتاهم الله من فضله مالا ونعمة، وعاهدوه على أن يكونوا من الصالحين وأن يكفوا عن أعمالهم الشائنة.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

فلما آتاهم الله من فضله ومنحهم المال والنعم نقضوا عهدهم مع الله وبخلوا بما فى أيديهم، وولوا عن الحق معرضين عنه.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

أى: كان عاقبة بخلهم أن تمكن النفاق من قلوبهم فعاشوا منافقين حتى ماتوا ولقوا الله على النفاق، وكان ذلك بسبب إخلافهم عهدهم ماتوا ولقوا الله على النفاق، وكان ذلك بسبب إخلافهم عهدهم مع الله تعالى، بسبب كذبهم فى أيمانهم.

قال علماء أسباب النزول: نزلت هاتان الآيتان فى ثعلبة بن حاطب من المنافقين، وكان ثعلبة هذا قد سأل الرسول ﷺ أن يدعو له بسعة الرزق، فدعا له فأثرى ثراءً كثيرًا، فلما جاء المصدِّقون ليأخذوا زكاة أمواله - وكانت أنعاما - امتنع، ثم ندم فجاء بصدقته للنبى ﷺ، فأبىَ رسول الله ﷺ أن يقبلها منه.

وذكر العلماء من قصة ثعلبة أنه تاب، ولكن لم تقبل صدقته فى زمن النبى ﷺ ولا فى زمن الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم عقوبة له وإظهارًا للاستغناء عنه حتى مات فى خلافة عثمان رضى الله عنه

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ الآيتان. فقيل

له: قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فأتى الرسول ﷺ ليقبل صدقته فقال له: «إن الله منعنى من قبول ذلك» فجعل يحثى التراب على رأسه، فقال له رسول الله ﷺ: «قد قلت لك فما أطعتنى» فرجع إلى منزله.

* وفى منع الله تعالى للنبى ﷺ من قبول صدقة ثعلبة، قال العلماء: إن ذلك المنع جار على سبيل الإهانة لثعلبة ليعتبر به غيره فلا يمتنع عن أداء صدقاته.

- وقال بعض العلماء: لما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبة مع نفاقه، امتنع رسول الله ﷺ عن قبول صدقته وتابعه على ذلك الخلفاء الثلاثة رضى الله عنهم حتى مات ثعلبة.

- وذُكِرَ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة، فقد كان أبطأ عنه ماله بالشام فحلف فى مجلس من الأنصار: إنْ سَلِمَ ذلك لأتصدقنَّ منه ولأصِلَنَّ منه، فلما سَلِم بخل بذلك، فنزلت الآية.

* وقال بعض العلماء: ثعلبة بدرى أنصارى، وحاطب شهد بدرا، وقد شهد رسول الله ﷺ لأهل بدر بالإيمان، فكيف يمتنع ثعلبة عن أداء الزكاة؟ وكيف يمتنع حاطب عن الوفاء بما وعد به وكلاهما من المؤمنين المشهود لهم.

والجواب عن ذلك ذكره الضَّحَّاك [1] فقال: إن الآية نزلت فى رجال من المنافقين هم:

نبتل بن الحارث، والجد بن قيس، ومعتِّبُ بن قشير.

وهؤلاء كانوا منافقين، فزادهم منع الزكاة نفاقا ثبتوا عليه إلى الممات، وهو قوله تعالى: ﴿... فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

هذا توبيخ لهم، ومعناه: كيف يتجاهلون أن الله مطلع عليهم لا يخفى عليه ما يضمرونه فى السر من نقض العهد، وما يتناجون به فى الخفاء من الطعن فى الدين

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم البلخى الخراسانى أبو القاسم، مُفَسِّر للقرآن الكريم له كتاب فى التفسير، وكان يؤدب الأطفال وكان فى مدرسته ثلاثة آلاف صبى. ذكره ابن حبيب تحت عنوان: «أشراف المعلمين وفقهاؤهم». توفى سنة ١٠٥ هـ ولا يعرف تاريخ مولده.

وتدبير المكايد للمسلمين، كيف يتجاهلون ذلك؟ وكيف يجهلون أن الله محاسبهم على ذلك ومعاقبهم.

وفى عبارة: «وأن الله علام الغيوب» تهديد لهم ووعيد. ﴿الذين يلمزون المطوعين. . . أليم﴾.

وهذا اللمز من أعمال المنافقين التى لا ينفكُّون عنها، وهو عيبهم على من يأتى بالصدقات طوعًا وطبعًا.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: إن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم، وحثَّ على أن يجمعوا الصدقات؛ فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عمر بنحو ذلك، وجاء عاصم بن عدى الأنصارى بسبعين وَسْقًا [1] من تمر الصدقة، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، وقال آجَرْتُ الليلة الماضية نفسى من رجل لإرسال الماء إلى نخيله، فأخذت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما لعيالى وأقرضتُ الآخر ربى، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه فى الصدقات. فقال المنافقون ـ على وجه اللمز والطعن ـ ما جاءوا بصدقاتهم إلا رياء وسمعة، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر مع الأكابر، والله غنى عن صاعه، فأنزل الله هذه الآية.

ـ والمقصود بالمطوعين فى الصدقات أولئك الأغنياء الذين أتَوْا بالصدقات الكثيرة، والمقصود بالذين لا يجدون إلا جهدهم أبو عقيل الذى جاء بصاع من التمر.

فقد سخر المنافقون من أغنياء المسلمين ومن فقرائهم فطعنوا فى أعمال هؤلاء وأولئك، فسخر الله من المنافقين بأن فضح نفاقهم أمام المسلمين، ثم احتقرهم وأعدَّ لهم العذاب الأليم.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ـ قال ابن عباس رضى الله عنهما: عند نزول الآية الأولى فى المنافقين، قالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فقال رسول الله ﷺ سأستغفر لكم، وانشغل بالاستغفار لهم،

---

(١) الوسق مكيال معلوم وهو ستون صاعا والصاع خمسة أرطال وثلث الرطل، وقدره أهل العراق بثمانية أرطال.

فنزلت هذه الآية فترك رسول الله ﷺ الاستغفار.

وقال الحسن: كانوا يأتون رسول الله ﷺ فيعتذرون إليه، ويقولون: إن أردنا إلا الحسنى، وما أردنا إلا إحسانا وتوفيقا، فنزلت هذه الآية.

- وروى الأصمّ [1] قال: كان عبد الله بن أُبَيّ بن سلول إذا خطب رسول الله ﷺ قام وقال: هذا رسول الله أكرمه الله وأعزه ونصره، فلما قام ذلك المقام بعد أُحُد؛ قال له عمر رضى الله عنه: اجلس يا عدو الله، فقد ظهر كفرك، وجبهه الناس من كل جهة، فخرج من المسجد ولم يصلّ، فلقيه رجل من قومه فقال له: ما صرفك؟ فحكى القصة فقال: ارجع إلى رسول الله يستغفر لك فقال: ما أبالى أستغفر لى أو لم يستغفر، فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥].

وجاء المنافقون بعد أحد يعتذرون ويتعللون بالباطل ويطلبون من النبى ﷺ أن يستغفر لهم فنزل: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . . .﴾.

- وكان رسول الله ﷺ يصلى صلاة الجنازة على من مات من المنافقين لأن صلاة الجنازة من الاستغفار، ولما مات عبد الله بن أُبىّ بن سلول رأس المنافقين بعد نزول هذه الآية سأل ابنه عبدُ الله بن عبد الله بن أبى - وكان مسلما - رسولَ الله ﷺ أن يصلى عليه، فصلى عليه كرامة لابنه، فقال عمر للنبى ﷺ: قد نهاك ربك أن تصلى عليه فقال النبى ﷺ - على سبيل الرد على عمر -: «إنما خيرنى ربى، وسأزيد على السبعين» ومعنى هذا أن الآية الكريمة ليس فيها نهى عن الاستغفار للمنافقين، فكان لصلاته عليهم واستغفاره لهم حكمة غير حصول المغفرة، بل لمصالح أخرى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هذا الجزء من الآية الكريمة يبين السبب الذى من أجله لا ينفعهم الاستغفار، ولو واستغفر لهم الرسول ﷺ سبعين مرة، ذلك السبب هو كفرهم بالله ورسوله، ذلك الكفر الذى فسقوا به، والله لا يهدى القوم الفاسقين.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي

---

(١) هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالاصم، زاهد ورع متقشف من أهل بلخ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل، وكان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة، توفى ببلدة «بواشجرد» سنة ٢٣٧هـ.

سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

ـ المخَلَّفون هم: الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين، وهم الذين خلفهم رسول الله ﷺ أى أذن لهم بالعقود لعلمه بفساد قلوبهم، وأنهم بخروجهم مع المسلمين لن يغنوا عنهم شيئا، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ. . . ﴾.

* وفرحهم بالقعود عن المشاركة فى الغزوة دليل على نفاقهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين لكان تخلفهم منغصا عليهم ومؤلمًا لهم وجالبًا للندم كما حدث من الثلاثة الذين تخلفوا من المؤمنين فتاب الله عليهم.

والذى جعل المنافقين يفرحون بتخلفهم عن رسول الله ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ كان قدا استغفر لهم كما طلبوا منه، فظنوا أنهم قد استغفلوه فقضوا مآربهم ثم حصلوا على الاستغفار، ظنًا منهم أنه معاملة الله تعالى معهم تجرى على ظواهر أمورهم كما كان يعاملهم الرسول ﷺ.

﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وذلك من علامات نفاقهم التى تضاف إلى سائر ما ذكرته الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة من علامات.

﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

أى قال بعضهم لبعض ذلك يبررون به قعودهم وتخلفهم، وقد كانت غزوة تبوك فى شدة الحر، وكانت حين آن للناس أن يستظلوا فلا ينفروا للحرب، فاستجاب بعضهم لبعض ولم يشاركوا فى المعركة.

أما المؤمنون الصادقون فلم يفعلوا ذلك بل نفروا وتحملوا الحر والقيظ مؤثرين طاعة الله ورسوله.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

وهذا الجزء من الآية الكريمة ردٌّ على قول بعضهم لبعض: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

والمعنى أنكم إن كنتم قعدتم عن الجهاد في سبيل الله خشية الحر، فإن دارًا أخرى هى

الدار الآخرة - التى يردها جميع الناس - أشد حراً من هذه الدار التى تعيشون فيها، وأن مشقة هذه الدار الدنيا منقضية حتما، ومشقة الدار الآخرة غير منقضية.

وفى هذا كناية عن أنهم بسبب هذا القعود صائرون إلى نار جهنم وبئس المصير يصيرون إليه.

﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

أى أن استيعاب هذه الحقائق لا يدركها إلا الذين يفقهون - والفقه: الفهم والفطنة والعلم - غير أن هؤلاء المنافقين لا يفقهون، لذلك قعدوا عن الغزو والجهاد فى سبيل الله وأوردوا أنفسهم جهنم.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

هذا خبر عن المنافقين جاء على صيغة الأمر، بمعنى أنهم سوف يضحكون فى دنياهم وهى قصيرة منقطعة مهما طالت واتصلت أسبابها، ثم يبكون فى أخراهم كثيرا فهناك الحياة سرمدية لا تنقطع. يحدث منهم ذلك ويحدث لهم هذا الجزاء لأنهم ما كسبوا فى حياتهم الدنيا إلا النفاق والخداع وتكذيب الله ورسوله.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً﴾.

هذه الآية الكريمة تقرر للمنافقين عقابا دنيويًا آخر - فوق ما سيجدون من عقاب أخروى - وهو: إبعادهم عن مشاركة المسلمين فى جهادهم.

وهذا توجيه للرسول ﷺ بأن لا يستعين فى غزواته بالمنافقين، لما فى مشاركتهم من فساد وإفساد وتأريث للفتنة فلو أنهم استأذنوك للخرج معك فقل لهم: «لن تخرجوا معى أبدًا ولن تقاتلوا معى عدوًا» وهذا طرد لهم من ساحة الجهاد وهى ساحة التقرب إلى الله بالأموال والأنفس والساحة التى ينال المشارك فيها إحدى الحسنيين.

وهم بهذا الطرد والمنع لم يظلمهم أحد، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بأن وضعوها فى هذا الموضع المهين إذ رضوا بالقعود أول مرة فى غزوة تبوك فكتب عليهم ألا يخرجوا مع المسلمين أبدا.

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أى إنكم اخترتم لأنفسكم القعود فيما مضى فاقعدوا . .الآية، لأنكم وضعتم أنفسكم مع النساء والأطفال والعاجزين عن القتال وكل من لا غناء له فى الحرب.

وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن استصحاب المخذِّل فى الحرب لا يجوز.

﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ . . . ﴾.

قال العلماء: إن سبب نزول هذه الآية الكريمة ما رواه البخارى والترمذى بسنديهما عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن عمر دُعِىَ له رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه فقلتُ: يا رسول الله أتصلى على ابن أُبى وقد قال يوم كذا وكذا، كذا وكذا، أعدّد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أخِّر عنى يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إنى خُيِّرتُ فاخترت، ولو أعلم أنى لوزدت على السبعين يغفر له لزدت عليها» قال عمر رضى الله عنه: فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث كثيرا حتى نزلت الآية من براءة: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ قال عمر رضى الله عنه، فعجبتُ بَعْدُ من جرأتى على رسول الله ﷺ» [1].

والله ورسوله أعلم.

وفى رواية أخرى: فلم يصل رسول الله على أحد منهم بعد هذه الآية حتى قُبض ﷺ.

وإنما صلى عليه رسول الله وأعطى ولده قميصه ليكفن فيه إكرامًا لولده عبد الله، وتأليفًا للخزرج إذ كان عبد الله بن أُبى سيدهم. وكانت كنيته أبو الحباب، فغير رسول الله اسم ولده الحباب إلى عبد الله وقال له: الحباب: الشيطان.

وقد كانت الرحمة والشفقة والرأفة من الصفات الملازمة للنبى ﷺ.

---

(١) هذه من مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذلك أن الوحى كان ينزل وفق قوله فى أحيان كثيرة منها هذه الآية.

وآية أخذ الفداء من الأسرى يوم بدر، وآية تحريم الخمر، وآية تحويل القبلة، وآية أمر النساء بالحجاب، لذلك جاء فيما رواه الترمذى بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب».

﴿ ولا تقم على قبره ﴾

قال العلماء: كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره، ودعا له، فمُنِعَ من ذلك.

أى لا تقف عليه عند دفنه، لأن المشاركة فى دفن المسلم واجب على الكفاية على المسلمين.

﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

هذا الجزء من الآية تعليل للنهى عن الصلاة على المنافقين وعن الوقوف على قبورهم، وهو كفرهم بالله ورسوله، واستمرارهم على أنواع من الفسق، كالكذب والنفاق والخداع والمكر والكيد، والحلف بأيمان حانثة، وكل ذلك من الأمور المستقبحة فى كل دين من الأديان، لذلك وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

الخطاب فى هذه الآية الكريمة للرسول ﷺ، والمقصود به المسلمون فى كل زمان ومكان، وهى معطوفة على نهيه ﷺ عن الصلاة عليهم والوقوف على قبورهم، فهنا نهى عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم، مهما كانت أموالهم كثيرة ومهما كان أولادهم قرة أعين لذويهم.

وقد تحدثت الآية السابقة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا. . . ﴾ الآية عن خسران المنافقين لحياتهم الأخرى، فربما كان تمتعهم بالأموال والأولاد فى الدنيا ـ مع أنهم أعداء الله ورسوله ـ مثار تساؤل بين بعض المسلمين، كيف يكون هذا؟ بل ربما كان موضع استغراب وتعجب!!! فجاءت هذه الآية: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ. . . ﴾ الآية، تنهى عن الإعجاب بهذه النعم الزائلة عنهم لا محالة من مال وولد، لأن الله تعالى إنما أراد أن يعذبهم بها فى الدنيا، عذاب مَنْ يخاف على نعمة أن تزول عنه أو يزول عنها وهو عذاب مشوب بالقلق والتوجُّس وتعب الأعصاب.

وربما كان خوفهم على تلك النعم مبعثه أنهم يخافون أن يجتثهم المؤمنون يوما فيضيع كل شىء، وهذا عذاب من نوع آخر، وثالث ورابع من العذاب حتى تزهق أنفسهم وهم

على الكفر والنفاق.

* وقـد ذُكِرَتْ هذه الآية الكريمة بمعناها وبمعظم ألفـاظهـا من قبل فى هذه السـورة الكريمة عند الحديث عن بخل المنافقين بأموالهم أن ينـفقوها فى سـبيل الله، وذلك فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾، فأُنـيد فى الآيتين الكريمتين عـدم انتفاعـهم بأموالهم وأولادهم على الرغم من بخلهم بها أن تكون فى سبيل الله تعالى، وأنها عذاب لهم فى الدنيا، ثم أعيدتْ فى هذه الآية الكريمة تأكيدا للمعنى الذى اشتملت عليه، إبلاغا وبيانا للناس لنفى الإعجاب والدهشة أو الفـتنة بأموال المنافقين وأولادهم، إذ هى عذاب لهم فى الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)﴾.

هاتان الآيتان الكريمتـان فيهـما توضيح لموقف المنافـقين عندما تترك سـورة من سور القرآن الكريم تأمـر بالإيمان وبالجهاد مع الرسول ﷺ وهو مـوقف غاية فى الدلالة على نفاق المنافقين، ذلك أن المستأذنين فى القعـود عن المشاركة فى المعركة هم القادرون على المشاركة فيها.

﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾.

أى ادخلوا أيها المنافـقون فى الإيمان بالله وما يتـرتب عليه من الإيمان بملائكته وكتـبه ورسله واليوم الآخر والقـدر خيره وشره، وما يتطلبه الإيمان من إسـلام وعدل وإحسان وأمر بالمعـروف ونهى عن المنكر. فإذا وُجِّه فعل الأمـر: آمنوا للمؤمنين فعلا، كـما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...﴾ [النساء: ١٣٦]. كان المعنى: استديموا واستـمروا على إيمانكم، ولا تزعزعوا عنه ولا تضعفـوه بالذنوب ولا بمحقرات الذنوب [(١)].

(١) تحدثنا عن هذا بتوسع فى كتابنا: التربية الإسلامية من سورة النساء وهى الحلقة السادسة من سلسلة التربية فى القرآن الكريم نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٩ هـ ١٩٩٩م.

﴿ أُولُوا الطَّوْلِ ﴾ أى أصحاب السعة والقدرة على الجهاد.

وهؤلاء الذين يملكون الأسباب والقدرات يستأذنون النبى ﷺ فى القعود عن الجهاد مع قدرتهم!!!

قال بعض المفسرين:

المقصود بأولى الطول أعيان المنافقين وكبرائهم، كعبد الله بن أُبىُّ، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس.

وقال بعض العلماء: هو عام فى كل منافق قادر على الجهاد، فتلك من طبائع المنافقين، لا يحبون فى دخائل أنفسهم أن يشاركوا المسلمين فى معركة حتى إذا انخذلوا عن المسلمين انهزم المسلمون كما فعلوا فى أُحُد مثلا!!! وحتى لا يكونوا هم سببا فى نصر المسلمين على أعدائهم.

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾.

والخوالف: جمع خالفة وهى عمود الخيمة المتأخر ويكنى بها عن المرأة لتخلفها عن المرتحلين.

والخوالف هنا هم المتخلفون عن الجهاد فى سبيل الله المتأخرون عنه لقصور فيهم أو نقصان أو عجز عن المشاركة فيه كالنساء والأطفال والشيوخ وكل عاجز عن القتال.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

والطبع هنا يعنى الخَتْم والنقش الثابت على النفس حتى يصبح كالسجية، وهذا الطبع أو الختم على قلوب المنافقين يعنى: أن خلقتهم وعادتهم أصبحت هكذا، لا يعرفون ما ينفعهم مما يضرهم فقد طبعوا على الخلل فى الإدرك وانعدام العلم بالأمور التى يدركها أهل الأفهام.

أى أنهم بهذا الاستئذان قد آثروا نعمة الدَّعَة على سمعة الشجاعة، وعلى ثواب الجهاد وتلك ضلة فى العقول وفساد فى الأفهام، وبعد شديد عن الفقه وحسن الإدراك.

وبهذا وقعوا فى مَضَارّ الدنيا والآخرة.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

والمعنى العام لهذه الآية الكريمة هو: لَمَّا كان قعود المنافقين عن الجهاد فى سبيل الله سببه الرئيسى كفرهم بالله ورسوله، كان المؤمنون على الضد من ذلك، وعطف المؤمنين فى هذه الآية الكريمة على الرسول ﷺ تشريف لهم وإلحاق لهم به فى الرغبة فى الجهاد فى سبيل الله تقربا إلى الله وامتثالا لأمره، فحال المؤمنين كحال الرسول ﷺ لأن تعلقهم وحبهم إياه واتباعهم لأمره ونهيه هو أصل كمال إيمانهم وهو سبب كمال إسلامهم، الكمال النسبى الذى تطيقه بشريتهم.

فالمؤمنون كالرسول ﷺ جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله.

﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ .

أى منافع الدنيا بالنصر والغنائم وإعلاء كلمة الله والتمكين لدينه ومنافع الآخرة أى الثواب الجزيل من الرب الكريم.

ومنافع الدنيا والآخرة جعلهم من المفلحين الذين تخلصوا بعملهم الطيب من العقاب والعذاب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

أى فى الآخرة، مع ما نالوا من ثواب الدنيا إذ شاركوا فى الغزو وتحقيق الكرامة، والنصر والثروة والغلبة على أعداء الله، وكل ذلك هو الفوز العظيم أى المرتبة الرفيعة العالية.

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا وعبرًا، لا يستطيعون أن يشقوا طريقهم فى الحياة مؤمنين طائعين إلا بها، بل لا يستطيعون أن يحققوا لأنفسهم الخير فى الدنيا والآخرة إلا إذا أخذوا منها العظة والعبرة.

ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

أولا:

يتعلم المسلمون من قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾** ما يلى:

١ ـ أن المنافقين كالكافرين فى عداوتهم للإسلام والمسلمين، ولذلك وجب جهادهم جميعا، غير أن جهاد كل منهم مختلف:

ـ فجهاد الكفار حرب وقتال وقتل وأسر وحصار.

ـ وجهاد المنافقين يكون بإلقاء الرعب فى قلوبهم وتخويفهم وتهديدهم بافتضاح نفاقهم وما يترتب على هذا الافتضاح من جعلهم مع الكافرين فى صف واحد يعادى الله ورسوله، ولا مندوحة فى جهاد المنافقين عن تبصيرهم وتوعيتهم بسوء مصيرهم لعل ذلك كله يدعوهم إلى الدخول فى الإيمان الصحيح والتدينّ السليم.

ومعنى ذلك أن يباعد كل مسلم بين نفسه وبين أى صفة من صفات المنافقين وقد عرفها تفصيلا فى هذه السورة الكريمة وإلا نافق من حيث لا يدرى، وتلك مصيبة كبرى فى الدين والدنيا معا.

٢ ـ وأن المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانت آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة تكشفهم وتوضح صفاتهم، حتى شاع أمرهم وعرف نفاقهم للمؤمن

والكافر وعند أنفسهم، فكانت المصلحة العامة للمسلمين أن يواجهوا وأن يجاهدوا وأن يغلظ لهم، وأن تتخذ معهم كافة الوسائل التى تجعلهم يفكرون بجدية فى دخول الإيمان الصحيح.

وأن البديل هو قتالهم إن أصروا على الكفر والفسوق.

وعلى المسلمين ألا يسارعوا فى تصنيف أحد بأنه من المنافقين، وإنما يجب أن تتضح فيه صفات المنافقين وأقوالهم وأعمالهم قبل أن يقال عنه إنه منافق، لأن الإسراع فى إطلاق هذه التهمة على أحد وهو منها برىء كارثة كبرى إذ يبوء بها أحدهما إذا قال له: يا منافق!!! ذلك خلق المسلم وهذا أدبه فى التعامل مع الناس جميعا.

٣ ـ وأن الذى أوجب قتال المنافقين هو ظهور علامات النفاق عليهم، فهم يصرحون بكلمات الكفر، ويسمعها بعضهم راضين عنها، مستخفين بالدين والديان، معلنين عدم احترامهم لقيم الدين وأحكامه، يودُّون لو غيروا وبدلوا فيها لتوافق أهواءهم، زاعمين أن قيم الدين يجب أن يعاد النظر فيها كأنها من وضع الناس تقبل التغيير والتبديل، واهمين بأن لديهم من المناهج والبرامج ما يغنى عن منهج الإسلام وبرنامجه، ويتطاول بعضهم على القرآن الكريم فيتهم محتواه بأنه كان ملائما لزمن بعينه ومكانٍ بذاته وأناسٍ فى وعاء هذا الزمان والمكان!!! ويتطاول بعضهم على السنَّة النبوية المطهرة فيرميها بوهن التوثيق حينًا، وببشرية المحتوى حينا، ويدعو إلى التخلى عنها والاكتفاء بالقرآن!!!

أما شخصية الرسول ﷺ فتنال منهم قدرًا كبيرًا من التجريح والاتهام لا يقل فحشًا وبذاءة عما كان يردِّدُه المنافقون على عهده ﷺ!!!

فكان الأمر بجهاد هؤلاء توطئة لقتال من ينقضون عرى الإسلام عروة عروة ويزعمون أنهم مسلمون!!!

* وهل يختلف هؤلاء المتهجمون على الإسلام كتابه وسنة نبيه ﷺ وشخصه المعصوم، هل يختلف هؤلاء عن مانعى الزكاة فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه؟ إن الذين منعوا الزكاة لم يهاجموا الإسلام ورسوله بتلك الضراوة التى يهاجم بها هؤلاء المعاصرون باسم الحداثة والإبداع وغيره من الانحرافات الفكرية المستوردة من خارج الفكر الإسلامى، من أعداء ألدَّاء تاريخيين للإسلام والمسلمين من بعض اليهود

وبعض المستشرقين وبعض المبشرين ومن كل الصهانية وكل الصليبيين المحدثين وكل أصحاب الهوى والترهات وكل المخدوعين بكلام أعداء الإسلام.

* إن منافقى اليوم لم يختلفوا عن منافقى الأمس، وإن مصير المحدثين منهم يجب أن يكون كمصير السالفين.

* وإن جريمة مانعى الزكاة انحصرت أول الأمر فى قولهم: كنا نؤدى الزكاة لمحمد، أما إلى أبى بكر فلا... ثم توالت أخطاؤهم حتى قوتلوا، وقضى على كثير منهم.

أما منافقوا اليوم، فما أكثر جرائمهم، وما أفدح أخطاءهم!!!

٤ - ويتعرف المسلمون من خلال هاتين الآيتين الكريمتين على مجمل صفات المنافقين ليكونوا منها ومنهم على حذر، وأوضح هذه الصفات ما نشير إليه فيما يلى:

- أنهم يحلفون بالله كاذبين متعمدين التضليل والتغرير بكل من يستمع إليهم، وتلك هى اليمين الغموس التى تغمس صاحبها فى نار جهنم.

- وأنهم فيما بينهم ينطقون كلمة الكفر ويعملون أعمال الكفرة فيستهينون بالدين قيمه وأخلاقه، وبكل ما يتصل باليوم الآخر أو الغيبيات كما يسمونها.

- وأنهم يتآمرون ضد الإسلام والمسلمين قديمًا وحديثًا، ففى الماضى حاولوا مرات أن يغتالوا الرسول ﷺ، وحاولا إلصاق التهم الشنيعة به، وفى الحاضر بدأوا بإقصاء الدين عن الحكم وسياسة الناس، وجعلوا فى مكان قانونه وقيمه قوانين وضعية وقيما غير إنسانية مهما زوّقوها وخدعوا بها.

- وأن نفوسهم مليئة بالحقد على كل ما هو إسلامى، فهم فى الماضى كانوا ينقمون على الإسلام أن تسبب فى إغناء الناس وتأمين حياتهم من الظالمين والمعتدين، وفى الحاضر ينقمون على الإسلام أن يحول بينهم وبين شهواتهم ونزواتهم وإصرارهم على حرمان الناس من كثير من حقوقهم فى التدين وفى التعبير وفى الحريات عموما.

- وأنهم تابعون أذلاء ضعاف أمام القوى غير الإسلامية ، فى حين يستأسدون على المسلمين فيحولون بينهم وبين التعبير عن منهجهم فى الحياة، ويرمونهم بالتطرف وينسبون هذا التطرف إلى الإسلام نفسه، فكم صاحت أبواقهم التطرف الإسلامى والإرهاب الإسلامى والعنف الإسلامى!!!

تلك أبرز صفاتهم فيما أوحت به هاتان الآيتان الكريمتان.

ومع ذلك فإن الله تعالى - وقد وسعت رحمته كل شيء - قد جعل لهم ولغيرهم باب التوبة مفتوحا، والتوبة خير لهم على كل حال، أما من أعرض عنها وتولى فقد عرّض نفسه لعذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة، ولن يجد له فى الأرض كلها وليًا أو نصيرًا.

ثانيا:

ويتعلم المسلمون من قول الله تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** الآيات إلى قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** ما يلى:

١ - أنّ من صفة المنافق أن يَعدَ ولا يفى، وأنه يتعهد بفعل الخير ثم ينكص ناقضًا لعهده مخلفًا لوعده، غير مبالٍ بموقفه أمام الله تعالى وغير عابىء بما يقول الناس عنه[1]، وهذا يعمق فى نفسه النفاق.

وماذا يتصور المنافق حين يخيس بعهده ويخلف وعده؟

أيظن أنه يستطيع إخفاء موقفه هذا عن الناس فيسلم من ألسنتهم؟ كذب إن ظن هذا الظن.

وهَبْ أنه استطاع أن يخفى هذا عن بعض الناس بعض الوقت، فماذا يتوقع بعد ذلك؟

وهَبْ أنه استطاع أن يخفى هذا عن الناس فماذا يفعل مع الله تعالى الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؟ إنها غفلة المنافق وغباؤه لتجاهله لهذه الحقائق.

٢ - وأن من النفاق سوء الظن بالناس، والاستهزاء بضعفائهم واتهامهم فى نواياهم والطعن على المنفقين فى سبيل الله أموالا كثيرة واتهامهم بالرياء، والطعن على المنفقين فى سبيل الله عن ضيق يَدٍ واتهامهم بالرغبة فى أن يذكروا مع الكبار.

إن المنافق فى التحليل المناسب لا يعجبه أحد ولا يعجبه شىء، وإنما تعجبه نفسه

(١) قديما قال أحد الجبناء عن خوض المعارك عندما ليم على جبنه: لأن يذمنى الناس وأنا حَىٌّ خير من أن يمدحونى وأنا ميت.

وبخله ورياؤه متصوراً أنه وحده على صواب وأن الصادقين والمخلصين والمنفقين فى سبيل الله هم المخطئون، ولذلك يسمحون لأنفسهم السخرية من كل صادق مخلص ومن كل منفق فى سبيل الله مُضَحٍّ!!!

وهم بذلك يهيئون أنفسهم لسخرية الله تعالى منهم بكشف نفاقهم أمام الناس، ثم يلقون عنده العذاب الأليم.

* إن المنافق أهل - من أجل أعماله - لأن يسخر منه الناس؛ وذلك؛ لأنه جبان لا يستطيع أن يظهر ما يضمر، إذ لو أظهره مانجا من عقاب الناس أو لومهم إياه، ولأنه شرِّير، فلو كان ما يضمره خيرا فلماذا يخفيه؟ ولماذا يخسر ثناء الناس على أعماله؟ وإذا كان حب الثناء من طبائع الناس وقد لا يعاب عليه من فعل الخير للخير أو لامتثال أمر الله ثم جاءه الناس عن غير تطلع منه، أما المنافق وهو من الناس وطبيعته كطبائعهم فإنه يزيد عليهم أنه يحب أن يحمد بما لم يفعل، كما تحدث عنهم القرآن الكريم.

٣ - وكان من نفاق المنافقين على عهد رسول الله ﷺ أن يرتكبوا الخطأ، ثم يذهبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يستغفر لهم، فيستغفر لهم، لأنه ﷺ رحمة للعالمين، وظلوا كذلك لا يستحون من تكرار طلب الاستغفار حتى منع الرسول ﷺ من الاستغفار لهم، لأن الله تعالى قضى ألا يغفر لهم لفسقهم وخروجهم عن دينه ومنهجه وهدى رسوله ﷺ.

فالمنافقون أهل إلحاح فيما يطلبون، وأهل فسق وفجور فيما يعملون، والحذر من صفاتهم كالحذر من أشخاصهم يحقق لصاحبه الأمن والطمأنينة فى الدنيا والآخرة.

ثالثا:

ويتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . .﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿. . . وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ما يلى:

١ - أن المنافقين يفرحون بكل قعود لهم عن الجهاد فى سبيل الله وبكل بخل بمالهم عن الإنفاق فى سبيل الله.

وأن لهم فى ذلك تبريرات لجبنهم وبخلهم، وهى تبريرات غير مقبولة عند الله لأنها

خداع وتزوير، وغير مقبولة عند الناس فى الدنيا لمن تأمل وتدبر.

وعلى سبيل المثال:

كيف يُقبل عذر من قعد عن قتال عدو متربص؟ إن قعوده خطر عليه وعلى الناس فيما لو لم يجد العدوُ مقاومة فاجتاح البلاد والعباد!!!

أى عذر ذلك الذى يقدمه المنافق ليبرر به اجتياح البلاد والعباد؟ ومن ذا الذى يقبل هذا العذر؟

وما قيمة المال إذا لم ينفق فى سبيل الله لتُتقَى به المكاره؟ وتُدْفَع به الهزيمة، وتُسَدّ به الثغور؟

ومن ذا الذى يقول إن المال أهم من الإنسان؟

وهل يجوز فى عقل عاقل أن يخدم الإنسان المال، ولا يخدم المال الإنسان؟

إن المال وسيلة لا غاية، والمجادلة المشروعة للحصول عليه، لا تعنى الحصول عليه لذاته، ولكن لما يحققه من مصالح للإنسان والمنافق البخيل يتجاهل هذا كله، فيجبُن ويبخلَ!!!

٢ ـ وأن المنافقين دائما يؤثرون الراحة والدَّعة، ويرفضون كل أنواع التضحية من أجل أى أهداف كبرى حتى لو كانت قتال الأعداء وردّهم عن الديار. يرفضون التضحية بالوقت والجهد والمال والنفس، مع أن تلك الأنواع من التضحية هى التى تطمئن الأمة معها على حاضرها لتعيش حياة آمنة.

وما يمتنع عن هذه التضحيات إلا الذين لا يفقهون.

فمن قال منهم: إن وقته ضيق وإنه ينفقه فى كسب العيش قالت له الأحداث ها قد بخلت بوقتك فضاع العيش كله لا وقت كسبه فقط.

ومن قال منهم: إن جهده محدود لا يكفى لأكثر من أداء واجباته المعيشية ولا فائض عنده لينفقه فى الجهاد، قيل له إن الجهاد فى سبيل الله أوجب الواجب فبه تكون حمايتك وحماية وقتك وجهدك وكل ما يحيط بك.

ومن قال منهم: إن مالى مستغرق فى واجباتى العائلية فليس فيه فائض ينفق فى غير

أسباب المعيشة، قيل له: إن إنفـاق المال فى الجهاد فى سبيل الله هو الذى يحمى العائلة وأسباب معيشتها فإذا بخلت به تجاه عدو يجتاح الأرض والعِرْض والمال والعيال!!! ومن قـال منهم: إن نفســى ملكى وملك أبنائى وأسـرتى أعيش لأؤمن لهـم أسبـاب الحيـاة وأجنبهم شر الحاجة، قيل له: ومن يضمن لك بقـاء نفسـك ساعة أو يوما أو أكثر حتى تضنَّ بها على عمل هو فى صـميم مصلحتك فى الدنيا والآخرة وهو الجـهاد فى سبيل الله!!!

إنهم بحق عندما يبخلون بأموالهم وأنفسهم فى مـعركة من معارك الحق، فإنهم قوم لا يفقهون حقائق الأمور ولا نتائجها المنطقية على نحو ما أوضحنا.

٣ ـ وأن المسلمين يجب أن ينقُّوا صفوفهم من غير المؤمنين إذا كـانوا متوجهين لقتال عدوّ، فإذا كان لا يجوز لهم أن يستعنيوا بكافر عـلى كافر، فإن استعانتهم بالمنافق حمق وجهل ونظـر غافل، وتفكيـر فائل [1]، فكيف يسـتعـان بالمنافـقين وقد قـال الله فى مشاركتهم للمسلمين فى القتال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ...﴾ [التوبة:٤٧]. إن المنافق يجيد التخذيل فى صفوف المسلمين وتثبيط هممهم وتخويفهم من عدوهم.

والمنافق غير مأمون أن ينسحب فيحدث خللاً فى الصـفوف قد يستغله العدو فيتحقق له النصر على المسلمين.

والمنافق غير مأمون أن ينحاز إلى صفوف العدو فى الوقت الذى يناسبه جريًا وراء أى ربح مادى ولو على حساب وطنه وقومه أليس من طباعه الخيانة؟

فكيف يؤتمن المنافق فى معركة بين الحق والباطل؟

وإذا كـان المنافـق لا يؤتمن على العـرض والمال، فـكيف يؤمن على وطن بـأكـمله ومصالح عليا ومصير؟

٤ ـ وأن المسلمين علماءهم وأفرادهم لا يجـوز لهم أن يصلوا على ميت من المنافقين أو يقوموا على قبره أسوة برسول الله ﷺ، وبخاصة إذا كان أمر نفاقه معروفا فى حياته كأن يسخر من الدين أو يتندر بقيمه ومبادئه أو يطالب بإقصائه عن الحياة وإحلال مناهج

(١) الرأى الفائل هو الضعيف المخطىء، يقال: فَالَ الرأىُ وفال الرجل فى رأيه.

أخرى محله، أو كان ممن يسخرون من القرآن والسنة، أو يتهمون الإسلام بالظلاميات والغيبيات والإرهاب والتطرف والعنف، أو يرددون أن الحدود التى قررها الإسلام لبعض العقوبات فيها قسوة أو وحشية، أو الذين يعطلون النظام الاجتماعى للإسلام فى الزواج والطلاق والميراث وسائر الأحوال الشخصية، أو الذين يعلنون ببجاحة ووقاحة أنهم ضد الدين ونظامه ومنهجه.

هؤلاء جميعا لا تجوز الصلاة على من مات منهم ولا الوقوف على قبره لأنه مات على الكفر والنفاق ولا تجوز الصلاة على كافر، وليس فى هذا تشدد من المسلمين، وليس معناه أن بيدهم مفاتيح أبواب الرحمة يفتحونها أو يغلقونها أمام من يشاءون، وإنما هو اقتداء برسول الله ﷺ الذى منعه الله من الصلاة على موتى المنافقين أو الوقوف على قبورهم فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ...﴾ الآية.

٥ - وأن التربية الإسلامية الخلقية للمسلمين توجب عليهم ألاَّ يُعجبوا بما منح الله بعض المنافقين من نعم الأموال والأولاد أو الجاه أو السلطان والنفوذ، لأنها جميعا نعم لم يشكر الله عليها فهى حتمًا إلى زوال.

والمنافقون لا يشكرون نعم الله، لأن الشكر لله عبادة وأين هم من عبادة الله؟ والشكر من مقامات عباد الله الصالحين، وأين هم من ذلك؟

والشكر لله على نعمه كالصوم والصبر، وأين المنافقون من هذه المعانى العالية وتلك المنازل الرقيقة؟

روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر».

وشكر النعمة حمد لله عليها والشاكرون حامدون، والحامدون شاكرون روى الطبرانى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادى يوم القيامة ليقم الحمَّادون، فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة» قيل: ومَنْ الحمادون؟ قال: «الذين يشكرون الله تعالى على كل حال» وفى لفظ آخر: «الذين يشكرون الله على السراء والضراء».

وأين المنافقون من هذه المنازل كلها؟

فإذا وجد المؤمنون نعـما فى أيدى المنافقين من تلك النعم التى ذكـرنا، فلا ينبغى أن تتعلق بها نفوسهم، لأن الله تعالى نهى عن ذلك رسوله ﷺ والمؤمنين.

وإنما على المؤمنين أن يقولوا عن تلك النعم فى أيدى المنافـقين إنها نعمٌ امتحنهم الله بها ليشكروها فلما لم يفعلوا عذبهم الله بها فى الدنيا، وسيعذبهم على عدم شكرها فى الآخرة.

رابعا:

ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ...**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ ما يلى:

١ ـ أن سور القـرآن الكريم فى معـظمها تدعـو الناس إلى الإيمان بالله والجـهاد فى سبـيله، وهذه السورة مـن تلك السور الكريمة ولكن عندمـا نزلت هذه السورة مطـالبة بالإيمان بالله والجـهاد فى سبـيله وقف منهـا القادرون أولوا الطول من المنافـقين موقـفا عجبًا، إذ كان مقتضى قدراتهـم وإمكاناتهم أن يسرعوا إلى الجهاد فى سبيل الله، ولكنه النفاق؛ إذ ذهب هؤلاء القادرون أولوا الطول والحـول إلى الرسول ﷺ يستأذنونه فى أن يقعدوا عن الجهاد، وهم بالقطع من غير أصحاب الأعذار.

* إنهم بهذا الاعتذار رضوا لأنفسـهم أن يكونوا مع الخوالف ممن لا يستطيعون جهادا ولا قتالا، من النساء والصبيان والشيوخ والمرضى ومن إليهم.

وهكذا يورد النفاق المنافقين شر الموارد بالتخلى عن واجب يقوم عليه نظام الأمن فى حياتهم، لأنهم يواجهون بالجهاد أعداء طامعين متربصين.

ولم يكن ذلك عجـيبا من المنافقين فـهم أصحاب طبائع سـيئة مجـبولة على الدنايا وقبول منازل الجبناء، لأنهم لا يفقهون ما يحـيط بهم عموما، فضلا عن أن يفقهوا دين الله وما يأمر به من خير يعود عليهم وعلى غيرهم بما يصلح دينهم ودنياهم.

٢ ـ وأن المؤمنين من شأنهم أن يكونوا دائما مع ما يقوله رسول الله ﷺ ومع ما يأمر به، فهو القدوة والأسوة، والإمام الذى يؤتم به فى كل شىء.

فكانوا معه فى الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فحازوا بهذه المعية خير الدنيا والآخرة، وذلك هو الفلاح وهو المؤدى إلى الجنة والخلود فيها، وإلى الفوز العظيم.

* والمسلمون فى كل زمان ومكان إن أرادوا لأنفسهم خير الدنيا والآخرة فعليهم أن يقتدوا برسول الله ﷺ ملتزمين ما أمر به وكل ما نهى عنه، وفى كل ما ندب إليه وكل ما كرهه للمسلمين.

إن ذلك هو النجاح والفلاح والفوز العظيم.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية والمشغولون بتربية الناس تربية إسلامية والمهمومون بالتمكين لدين الله فى الأرض. كل أولئك بحاجة مستمرة إلى آيات القرآن الكريم يستلهمونها ما يعينهم على المضى فى طريق الدعوة إلى الله والحركة بدينه فى الناس وفى الآفاق.

* وهذه الآيات الكريمة فيها دروس وعبر يتعلمون منها مالا بُدَّ لهم منه فى مسيرتهم، ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

أولا:

يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون والتربويون من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ما يلى:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله من هذه الآيات الكريمة أن ملاينة المنافقين والإغضاء عن أخطائهم مرحلة من المراحل فى الدعوة والحركة، وربما تكون مرحلة أولية ولكنها ضرورية وواجبة، لعلها تَسْتَلّ من قلوبهم ما ران عليها من نفاق فإذا هم يعودون إلى الإيمان الحق والإسلام الخالص.

ولكن مرحلة أخرى - قد تكون ثانية أو ثالثة - ولكنها تالية لابدّ منها، وهى جهاد هؤلاء المنافقين والإغلاظ لهم ما دام قد قدم اللين والإغضاء فلم يُجْدِ معهم.

إن الدعاة إلى الله وهم يصبرون على المنافقين ويلاينونهم أولا: إنما يدعوهم إلى ذلك قاعدة ذهبية فى الدعوة يعرفها الدعاة إلى الله ويتفقون عليها وهى: «أن هداية الناس خير من تحديهم وإحراجهم فضلاً عن معاداتهم» فإذا اهتدى منافق فعاد إلى الإيمان الخالص فإن ذلك خير للدعوة وللدعاة من أن يظل على نفاقه وكيده للإسلام، وكم صبر رسول الله ﷺ على المنافقين وهو يشعر بنفاقهم حتى أمره الله تعالى فى شأنهم بعدم الصلاة على الميت منهم وعدم القيام على قبره، وخيَّره فى الاستغفار لهم، وللدعاة إلى الله فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

٢ - وأن المنافقين وأمثالهم لهم أحاديثهم الخاصة فيما بينهم التى يصرحون فيها بالكفر أحيانا، وأن لهم أمنياتهم التى من أهمها أن يلحق الضرر بالإسلام والمسلمين، ولقد كادوا لرسول الله ﷺ فى حياته فخذلوه وألَّبوا عليه، وحاولوا قتله يوم رجع من تبوك ولكن الله تعالى سلَّمه وخذلهم.

والمنافقون اليوم كالمنافقين بالأمس يحاولون الإضرار بالمسلمين ويجمعون عليهم الأعداء من هنا وهناك، ويحيكون المؤامرات والدسائس، ويشون بالدعاة إلى الله وبالعاملين فى الحركة الإسلامية إلى الظالمين من الحاكم، وإلى الطغاة من الأعداء فى السلم وفى الحرب، وهم أضرّ على المؤمنين من المشركين والكافرين، لأنهم عدو مستتر وأولئك عدو ظاهر، وأخطر ما يكون العدو إذا كان غير معروف وغير مكشوف.

* إن التنبه إلى هؤلاء المنافقين ضرورة عمل، فضلا عن أنها واجب شرعى إذْ أخْذ الحذر واجب فى كل حال.

والدعاة إلى الله أقدر الناس على معرفة هؤلاء المنافقين من لَحْن قولهم ومن حركاتهم ومن مواقفهم، وواجبهم أن يتنبهوا وأن ينبهوا، وهذا جزء من صميم عملهم، بل مرحلة لابد منها من مراحل عمل الدعاة إلى الله.

* وإذا كان المنافق هو من يظهر الإسلام ويبطن غيره، فما أوسع دائرة المنافقين فى عالمنا اليوم، وما أقدرهم على أن ينالوا ما يهمون به فى الإسلام والمسلمين والدعاة إلى

الله والحركيين من أجل الإسلام وتمكين نظامه فى الأرض.

وقد وهم المنافقون وغيرهم من أعداء الإسلام أو تصوروا أنهم يستطيعون القضاء على الإسلام والعاملين من أجله على الرغم مما يتهدد الإسلام والمسلمين والدعاة إلى الله من أخطار، وما يرجف به المنافقون من أراجيف وما يشيعونه من مقالات سوء تشوه الدعاة إلى الله وكل العاملين من أجل الإسلام.

إن هؤلاء المرجفين المهددين المتوعدين لن يبلغوا أكثر مما بلغ أسلافهم وهم يكيدون للإسلام المسلمين، وإن الدعاة إلى الله لن يكونوا أحسن من أسلافهم فى عهد النبى ﷺ، وفى أولئك وهؤلاء تحدث القرآن الكريم عن مثل هذا الموقف فى قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

٣ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم أن باب التوبة مفتوح عن كل ذنب ومعصية أمام من أراد وأحب وصدق عزمه وخلصت نيته، وذلك خير له لو استقبل من أمره ما استدبر، خير له فى دنياه وفى دينه، وفى علاقاته بالناس وبرب الناس سبحانه وتعالى.

وأن من تولى عن التوبة عرّض نفسه لعذاب الله فى الدنيا والآخرة وخسر كل شيء، وعندئذ لن يجد له فى الأرض كلها من يواليه وينصره ليحول بينه وبين عذاب الله.

ثانيا:

ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ما يلى:

١ ـ أن من شأن المنافق ومن عادته أن يخلف ما وعد، فمن هؤلاء المنافقين من عاهد الله وأشهده لئن آتاه الله من فضله مالاً ونعمة ليتصدَّقن ولا يبخل، وليكونَنَّ صالحًا فى قوله وفى عمله وفى أمره كله، فلما آتاه الله من فضله وزاده مالا ونعمة بل أسبغ عليه، إذا به يخلف ما وعد ويغدر بما عاهد عليه الله ويبخل بالمال فلا يخرج صدقاته.

وتلك علامـة أصيلة فى كل منافق لا تفـارقه ولا يفارقـها، سواء أكـان من منافقى الأمس أم من منافقى اليوم.

* والدعـاة إلى الله مسـئولـون أمام الله عن أن يبـينوا للناس بدقـة ووضوح سـائر علامات النفاق، وكل طباع المنافقين ليكون المسلمون على علم بذلك وعلى حذر منه.

والدعـاة إلى الله والمتحـركـون بالإسلام فى النـاس والآفاق والمشـغولـون بالتربيـة الإسلامية وقضاياها، يجدون فى صفوف المدعـوين وفيمن يتحركون فيهم بالإسلام دينًا وقيمًا وسلوكًا، وفيمن يحاولون تربيتـهم على قيم الإسلام ومبادئه، يجدون عددا ليس قليلاً من هؤلاء المنافقين، فعليهم أن يتعاملوا معهم وفق ما يصلح أحوالهم ويزيل عنهم صفات النفاق، قبل أن يتخذوهم عدوا فتلك مهمة الدعاة إلى الله.

٢ - وأن من كان شأنه أن يخلف ما وعد وأن يغدر بعـهده وأن يخون الأمانة ويتخذ الكذب أسلوبًا فى أقواله وأعماله، فإنه بذلك يمكن للنفاق فى قلبه، فتستمر معه صفات المنافقين إلى أن يلقى الله تعالى، تلك سنة الله فى المنافقين إلا من تاب.

* وعلى الدعـاة إلى الله أن ينبهـوا إلى تلك الحـقيـقة الـتى قررتهـا الآية الكريمة: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وقد جاء الحديث الشريف ليوضح هذه الآية الكريمة ويكشف عن صفات المنافقين، فقد روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيـه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

* وعلى الدعـاة إلى الله أن يذكروا الـناس بمن نزلت فيـه هذه الآية وهو ثعلبـة بن حاطب، فقصته غنية بالدروس والعبر.

ذكـر ابن عـبـاس رضى الله عنه أن سـبب نزول هذه الآيـة فى ثعلبـة بن حـاطب الأنصارى وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير بسنده عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال للرسول ﷺ: ادع الله أن يرزقنى مالا، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه».

ثم قال ثعلبة مرة أخرى للرسول ﷺ: ادع الله أن يرزقنى مالاً.

فقال رسـول الله ﷺ له: «أما ترضى أن تكون مثل نبى الله؟ فوالذى نـفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت».

وقال: والذى بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقنى مالاً لأعطين كل ذى حق حقه.

فقال رسـول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» فاتخذ غنمـا فنمت كما ينمى الدود فضـاقت عليـه المدينة فتنحى عنهـا فنزل واديا من أوديتـها، حـتى جعل يصلى الظـهر والعصر فى جمـاعة ويترك ما سواهما، ثم نمتْ وكثـرتْ فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمى كـما ينمى الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبـان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار.

فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة»؟ فقـالوا يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخـبروه بأمـره فقال: يا ويح ثعلبـة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعـلبة» وأنزل الله جل ثناؤه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، ونزلت فـرائض الصدقـة فبعـث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهـينة ورجلاً من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصـدقة من المسلمين، وقال لهـما: مُرَّا بثعلبـة وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذا صدقاتهما».

فخرجا حتى أتيَا ثعلبة فسألاه الصـدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا جزية، مـا هذه إلا أخت الجزيـة ما أدرى ما هذا؟ انطـلقا حتـى تفرغا ثـم عودا إلىّ، فانطلقا وسـمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار أسنان إبله فـعزلها للصدقة ثم استـقبلهما بها، فلما رأوها قـالا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هـذا منك، فقال: بلى فـخذوها فـإن نفسى بذلك طيـبة وإنما هـى لله، فأخـذاها منه ومرَّا على الناس فأخـذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أرونى كتـابكما فقرأه، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيى، فانطلقـا حتى أتيا النبى ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبـة» قبل أن يكلمهـا ودعا للسلمى بالبركـة فأخبـراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السـلمى، فـأنزل الله عـز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ الـــلَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ. . .﴾ الآية.

وعند رسول الله رجل من أقارب ثعلبة فـسمـع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا.

فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: «إن الله منعنى أن أقبل صدقتك». فجعل ثعلبة يحثو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى».

فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، فقبض رسول الله ﷺ، ولم يقبل منه شيئا، ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف، فقال: قد علمتَ منزلتى من رسول الله ﷺ وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر رضى الله عنه ولم يقبلها.

فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين: اقبل صدقتى. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضى الله عنه، وأنا أقبلها منك؟ فقبض عمر ولم يقبلها.

فلما ولى عثمان رضى الله عنه أتاه، فقال: اقبل صدقتى. فقال عثمان رضى الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلها منك؟

فلم يقبلها منه، فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان.

٣ ـ وقالت طائفة من العلماء: إن العلامات التى ذكرها الرسول ﷺ ـ وهى العلامات الأربع التى أوردناها فى الحديث الشريف ـ خاصة بالمنافقين فى زمن رسول الله ﷺ، ولا خوف على المؤمنين أن يتحولوا إلى منافقين لوجود صفة من هذه الصفات فيهم.

واستدل هؤلاء العلماء بحديث رواه مقاتل عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عمرو، عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، قالا: أتينا رسول الله ﷺ فى أناس من أصحابنا، فقلنا يا رسول الله إنك قلت: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن؛ إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلث النفاق» فظننا أن لم نسلم منهن أو من بعضهن، ولم يسلم منهن كثير من الناس.

قالا: فضحك رسول الله ﷺ وقال: ما لكم ولهنّ، إنما خصصتُ به المنافقين كما

خصهم الله فى كـتابه، أما قولى: «إذا حدث كذب فـذلك قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ الآيات، أفأنتم كذلك؟ قلنا: لا. قال: «لا عليكم أنتم من ذلك براء». وأما قولى: «إذا وعد أخلف، فذلـك فيما نزل الله علىّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ الآيات الثلاث، أفأنتم كـذلك؟ قلنا: لا والله، لو عاهدنا الله على شىء أوفيناه، قال: «لا عليكم أنتم من ذلك براء». وأمـا قولى: «إذا اؤتمن خان فذلك فيـما أنزل علىّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ...﴾ الآية، فكل إنسان مؤتمن على دينه، فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السر والعلانية، والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية، أفأنتم كذلك «قلنا: لا قال: لا عليكم أنتم من ذلك براء».

وهكذا رأى التابعون وتابعوهم وكبار الأئمة.

- وروى البخارى بسنده عن حـذيفة أن النفاق كان على عهد رسـول الله ﷺ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان.

- وعن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال: النفاق نفـاقان؛ نفـاق الكذب، ونفاق العمل، فأما نفاق الكذب فكان على عهـد رسول الله ﷺ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة.

* إن هذه الدروس والمعـانى هى التى ينبغى أن تتـوجه إليـها عناية الدعـاة إلى الله يوضحونها للناس، ويعلمونهم كيف يتقون النفاق.

٤ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوضـحوا للناس أن قوله سـبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ بشـارة للمؤمنين بل للناس عموما حـتى المنافقين منهم، فبذل الصدقة يطهر صاحبها من النفاق ويزكيه عند ربه.

وليس كما يشعر بعض الغافلين بأن بذل الصدقة غُرم ونقص فى المال.

إن على الدعـاة إلى الله أن يقنعوا الناس بأن أداء فـريضة الزكـاة - بل كل فريـضة - يجب أن يكون لابتغاء مرضاة الله وليس خوفا من أن يطبق عليهم عقاب.

٥ - وأن من شأن المنافـقين أنهم يعيبـون على الناس ما يصنعـون، فإن أعطى بعض المؤمنين كثيرا قالوا: رياء وسمعة، وإن أعطى بعضهم قليلا لأنه لا يجد الكثير قالوا: ما أغنى الله عن قليل هذا، إن يريد أن يذكر ويتعالم الناس بأمره!!!

وهذه سخرية من المؤمنين وما يقدمون لوجه الله ما تصدر إلا من المنافقين، وهى سخرية يعاقبهم الله عليها أشد أنواع العقاب.

* وهؤلاء المنافقون بصفاتهم تلك، كان الرسول ﷺ يستغفر لهم لفرط رحمته بهم وشدة حرصه على أن يهتدوا ويتوبوا، ظل كذلك حتى أخبره ربه بأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم؛ لأن مصيرهم عند الله قد حُدِّد وهو العذاب لكفرهم بالله ورسوله وموتهم فاسقين.

* إن الدعاة إلى الله يتعلمون من هذه الدروس كيف يتعاملون مع أصناف الناس الذين يدعونهم، وكيف يتلطفون فى الأخذ بأيديهم إلى الهدى والصراط المستقيم.

ثالثا:

ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿... وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ما يلى:

١ - أن الذين يتخلفون عن واجب الجهاد فى سبيل الله أو واجب الإنفاق فيما أمر الله بالإنفاق فيه، أو عن واجب أوجبه الله تعالى وهم أهل قدرة على أداء هذه الواجبات إنما هم منافقون غير مخلصين لله ولا لدينهم ولا للمجتمع الذى يعيشون فيه، وأنهم مهما ذكروا من أعذار وتعلات فإنهم كاذبون.

وإن الحذر منهم وعدم الاطمئنان إليهم يجب أن يكافىء رغبة الدعاة إلى الله فى هدايتهم ونقلهم من حمأة النفاق ووهدته والتردى فى طريق أوله النفاق ووسطه الضياع وآخره عقاب الله تبارك وتعالى.

هؤلاء المنافقون يفرحون بالتخلى عن أداء الواجب، ويفرحون بما فى أيديهم من مال بخلوا به عن الإنفاق فى سبيل الله، ويفرحون بما أعطاهم الله من أولاد ضنوا بهم عن أن يجاهدوا فى سبيل الله هذه الأنواع من الفرح لن تغنى عنهم من عذاب الله شيئا، لأنه فرح مكذوب، إذ كيف يفرح من تخلَّى عن أداء واجب؟

إن الواجب دائمًا إنما أوجبه الله لصالح الإنسان، فمن ذا الذى يفرح لأنه ضيع مصلحته؟ إنه الغافل فقط الذى تلهيه السَّكْرةُ عن الفكرة، والباطل عن الحق، إنه الجاهل

الذى لا يفقه ما حوله ولا ما يضره أو ينفعه.

ويوم يجىء الحق ويزهق الباطل سوف يكتشف هذا المنافق المتخلى عن أداء واجباته، أن الفرح كان خادعًا وأن الضحك كان غفلة وبلاهة، وأن الحزن والندم والبكاء هى البديل الحقيقى عن الفرح والضحك والبلاهة، وسريعًا ما يجىء هذا يوم القيامة، وما هو ببعيد كما يتوهم الغافلون، إنه يبدأ بموت الإنسان، وما أقرب الموت من كل حىّ.

إن البكاء فى هذه الحياة الدنيا أجدر بالإنسان من الغفلة والضحك لأن الباكى متفكر متدبر والضاحك تافه ذاهل عما هو فيه، ولقد وجهنا الرسول ﷺ إلى البكاء أو التباكى لتستيقظ العقول وتحيا القلوب، فقد روى الحافظ أبو يعلى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء، فتَقَرّح العيون فلو أنّ سُفُنًا أُجْرِيَت فيها لجرت».

إن الرسول ﷺ يدعو إلى رقة القلب والخوف من الله، ولا يدل على ذلك شىء مثل ما يدل عليه بكاء الإنسان خاليًا بعيدًا عن الناس فقد روى ابن ماجه بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا».

هذا الذى ينبغى أن يذكر به الدعاة إلى الله.

٢ ـ وعلى الدعاة إلى الله ـ فى ضوء ما تدل عليه هذه الآيات الكريمة ـ أن يتنبهوا وهم يمارسون الدعوة أن الأعمال الهامة فى الدعوة ما ينبغى أن يشارك فيها إلا الجادون أصحاب الطباع القوية والنفوس النقية التى تُقبل على التضحية فى سبيل الله برضًا وسعادة، أما أولئك الذين ليس لديهم هذه الطباع القوية والنفوس النقية فلهم من الأعمال ما يناسب ضعف طباعهم وعدم نقاء نفوسهم يظلون فيها حتى تقوى الطباع وتُنقَّى النفوس من الشوائب.

* وبغير هذا التصنيف للعاملين يكون الإخفاق، ويكون العجز عن تحقيق الأهداف، فيكون توقف العمل فى مجالات الدعوة والحركة والتربية، أو قصوره وتوانيه.

* إنها مسئولية الدعاة إلى الله أن يوظفوا كل ذى طاقة فيما يستطيع من عمل وفيما يجيد ويحب، وفيما يشعر به أنه شارك فى عمل له أهميته وفاعليته.

٣ ـ ويتـعلم الدعاة إلى الله من نـهى الله تعالى لنبـيـه ﷺ من الصلاة على مـوتى المنافقين وعن القـيام على قبورهم ما دامـوا قد ماتوا على الكفر والفسـق، يتعلمون من ذلك أن يكون لديهم ميزان دقيق يزنون به المدعـوين عموما والذين يوكل إليهم نوع من العمل الاسلامى على وجه الخصوص.

وهذا الميزان الدقـيق هو مدى إخلاص المدعـو ومدى التزامـه بما أمر الله ونهى، مع الحذر كل الحذر من المبـالغة فى تقدير المجتـهد أو المبالغة فى تهوين شـأن المقصر، لأن المبالغة فى كلا الموقفين مرفوضة شرعياً وتربويًا وحركياً ودعويًا.

إن المبالغة تعين الشـيطان على المجد المجتهـد فربما أصابته بالغرور، وتصـيب المقصر بالإحساس بالفشل والخيبة وربما وصلت به إلى اليأس والقنوط.

والمبالغة تدخل فى المدح وهو منهى عنه وبخاصـة إذا كان الذى يُمدح يسمع ويرى، فقد روى أحمد بسنده عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: كنا عند النبى ﷺ فمدح رجل رجلاً، فقال النبى ﷺ: قطعت ظهـره، إذا كان أحدكم مادحا صاحبـه لا محالة فليقل أحسبـه، والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحـدا، أحسبه كـذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه[٢].

فالمبالغـة مرفوضة حتى فى المدح، فما بـالنا بها إذا كانت فى الذم والتنقص، والذم والتنقص منهىٌ عنهما على كل حال؟

٤ ـ وأن نعم الله على الناس ومنها المال والولد يجب أن يفهم الناس حقيقتها ومعنى أنها نعمة.

إن كل نعمة أنعمها الله علي الإنسان إنما أكرمه بها ليتنعم بها من جانب وليؤدى فيها حق الله وحق الناس من جانب آخر ـ وأداء حق الله وحق الناس فى النعمة هو شكرها ـ وشكر الله على نعمـه يجلب على الشاكر مزيدًا من النعم، فـإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ. . .﴾ [إبراهيم: ٧].

وفى مجـال الدعوة إلى الله والحركة بدينـه، فإن الشكر يجب أن يسبـقه علم بالمنعم والنعمة، ثم حالٌ مستمدة مـن العلم وهى الفرح بالنعمة، وعمل بموجب الفرح، عمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح أما عمل القلب فهو حب الخير للناس جميعا.

وأمـا عمل اللسـان فشكر الله تعـالى بالحمـد والثناء عليـه بما هو أهله، وأما عـمل الجوارح فاستعمال نعم الله فى طاعته، والترقى عن معاصيه.

* وشكر نعمـة المال أن يُنْفَق فى الوجوه التى حددها الله تعـالى، ولا يبخل به على واجب، وشكر نعمة الولد أن يربى تربـية حسنة وأن يعد ليجاهد فى سـبيل الله تعالى، فتتقى به المكاره والمخاطر ولا يضن به والداه عن هذا الجهاد.

* هذا شأن المؤمنين فى التـعامل مع نعم الله تعالى عليـهم، وهذا واجب الدعاة فى أن يبـينوا لهم أهميـة: العلم والحال والعـمل فى طريق السـالكين إلى الله يدعون إليـه ويعملون على تمكين دينه.

* أما المنافقون فمن شأنهم أن يـبخلوا بالمال وأن يضنوا بالولد وهم بذلك يتعرضون لأن يعذبهم الله بأموالهم وأولادهم فى الدنيا فيـموتون على هذا الجحد لنعم الله تعالى فيكونون كافرين.

ـ وقد نهى الله تعالى نبـيه ﷺ والمؤمنين أن يعجبـوا بأموال المنافقين مهمـا كثرت أو بأولادهم مـهمـا ازدادوا قوة. ومـهمـا زادوا فى بهجـة ذويهم بهم، وهذا النهى درس للمؤمنين أن ينظروا للنعم ولسائر الأشياء نظرة موضوعية، تتدبر فى وظائف هذه النعم، وهل أديت على وجهها؟ فـهذه هى النظرة الصحيحة التى يجب أن يـعلمها الدعاة إلى الله للعاملين من أجل الإسلام.

رابعا:

ويتـعلم الدعـاة إلى الله والعـاملون من أجل الإسـلام وتمكين منهـجـه ونظامـه فى الأرض، من قـول الله تعـالى: ﴿وَإِذَا أُنـزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دروسًا كثيرة نذكر منها ما يوفق الله تعالى إليه فيما يلى:

١ ـ أن الناس منهم من يحمل طبـيعة المنافق الجبـان الضعيف البخـيل، ومن يحمل طبيعة المؤمن المجاهد القوى الذى يحب أن يضحى فى سبيل الله ومن أجل دينه ومنهجه ونظامه.

* وأن على الدعاة إلى الله أن يثبتـوا المؤمنين على إيمانهم وأن يزحزحوا المنافقين عن

نفاقهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فهم الخبراء بهذا وذاك وهم ورثة الأنبياء فى العلم والعمل والصبر.

* فالمنافقون عند نزول هذه الآيات الآمرة بالجهاد مع رسول الله ﷺ، بادر القادرون منهم أولوا السعة إلى الاعتذار عن الجهاد، مخطئين فى حق الله تعالى إذ عصوه، ومخطئين فى حق أنفسهم إذ رضوا لها أن يكونوا مع الخوالف من النساء والأطفال والشيوخ والعاجزين.

وما كان ذلك منهم إلا لأنهم لا يفقهون حقائق الأمور، وبخاصة فيما يتصل بأمر الله ونهيه وحسابه وعقابه.

* والمؤمنون عند نزول هذه الآيات الكريمة بادروا إلى الخروج مع رسول الله فازدادوا شرفا بمعيته، وبادروا إلى تقديم أموالهم وأولادهم فى سبيل الله، لا يقعدهم جبن ولا خوف ولا بخل، فينالون بذلك خيرات الدنيا والآخرة وذلك هذا الفوز العظيم.

٢ ـ وأن نداء الجهاد لا يجوز لمسلم أن يتخلف عنه إلا لعذر مقبول، أما أن يكون من أصحاب الطول ثم يستأذن فى القعود فإن ذلك هو النفاق.

* وإذا كانت تلبية نداء الجهاد فى سبيل الله واجبة لأن الجهاد يعلى كلمة الحق وينصر أولياءه ويتسبب فى هزيمة أصحاب الباطل ويخمل أمرهم ويذهب باطلهم، فإن الجهاد إذن هو إعزاز للدين وإعلاء لمنهجه ونظامه، وإزالة للعقبات من طريق الحياة الإنسانية الكريمة التى أرادها الله للإنسان.

* والجهاد فى سبيل الله عبادة لله يتقرب إليه بها المؤمنون ويحظون فيه بإحدى الحسنيين النصر على الأعداء أو الاستشهاد ودخول الجنة.

* والجهاد فى سبيل الله تعالى معيار دقيق يوزن به إيمان المؤمن ويعرف به نفاق المنافق.

٣ ـ وأن الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا هو معامل الأمان للمجتمع المسلم، بل للمجتمع الإنسانى كله، وإذا كان الجهاد يعتمد الحرب والقتال أسلوبا فى التعبير عن إحقاق الحق وإبطال الباطل، فإنه بذلك يعدل الموازين التى يتحاكم إليها الناس فيقر منها ما كان صحيحا، ويهدم ما كان غير صحيح.

ويخطىء من يظن أن الجهاد فى سبيل الله معركة بعينها مع عدو بذاته، إذ الجهاد فى سبيل الله هو كل معركة مع أى عدو يتحدى الحق وأهله فى كل زمان ومكان.

والميزان الصحيح الذى يكون الجهاد من أجل إقراره هو: إحقاق الحق وإقراره فى الناس بالدعوة والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، إلى أن يقوم فى سبيل إحقاق الحق عائق أو تقف فى طريقه عقبة، عندئذ يتعين الجهاد بالقوة وباليد ويصبح إزهاق الباطل هدفا للجهاد فى سبيل الله.

* وإن إحقاق الحق كلمة موجزة ولكنها تتضمن كل مناهج الإصلاح للحياة الإنسانية، وكل قيمة فاضلة يجب أن تسود الناس فيتعاملون بها بينهم، كما يستوجب القضاء على كل أنواع الباطل، وعلى كل قيمة راذلة يتعامل بها بعض المنحرفين. وإحقاق الحق واجب كل مسلم ومسلمة ما استطاع إلى ذلك سبيلا وهو يؤدّى حسبةً لوجه الله تعالى وتقربا إليه.

٤ - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية وفى التربية وفى سائر مجالات العمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض عليهم جميعا أفرادًا كل فى مجال عمله وتخصصه، وجماعاتٍ كل جماعة فى ألوان نشاطها - من خلال هاتين الآيتين الكريمتين - وغيرهما من الآيات أن يفقهوا الناس فى الجهاد وفى سبيل الله وأن يؤكدوا لهم أنه الوسيلة المثلى للمحافظة على كرامة المسلمين ومهابتهم ودرء أعدائهم عن ديارهم وأموالهم وأعراضهم، وحماية لكل قيمة يؤمنون بها، وصيانة لكل حرمة يرون صيانتها من أعداء الإسلام والمسلمين.

* وأذكّر - فى عجالة وإيجاز - بأن فقه الجهاد فى سبيل الله يقوم على ركائز أساسية هى:

١ - هدف الجهاد فى سبيل الله وهو:

أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، أى إحقاق الحق وإبطال الباطل وانتشار العدل والرحمة بين الناس.

٢ - أسباب الجهاد وهى:

نشر دعوة الله فى عباده بالكلمة والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن،

ثم باليد إن وجدت عقبات تعترض نشر دعوة الله، ورد أى عدوان يقع على أى بلد من بلدان المسلمين.

٣ ـ ووسيلته وهى:

الجهاد بالكلمة وبالمال والنفس وقتال أعداء الله وأعداء الإسلام بكل وسيلة مشروعة من وسائل القتال، فلا تسميم للآبار ولا للحياة والحيوانات والنبات، ولا زرع ألغام فى الأرض والبحر، كما يفعل اليوم من يزعمون أنهم متحضرون، لأن القتال يستهدف القادرين على حمل السلاح لا عموم الناس من نساء وأطفال وغيرهم.

٤ ـ والمجاهدون هم:

المسلمون وحدهم، كل قادر منهم على حمل السلاح، دون إكراه لهم أو إجبار، لأن الجهاد عبادة لله لا يجوز أن يكره عليه أحد.

٥ ـ وأحكامه الشرعية وهى:

متى يكون فرض عين على كل مسلم قادر على القتال، متى يكون فرض كفاية إذا قام به البعض وتحققت بقيامهم به الكفاية سقط عن الباقين، وما شروطه وسائر أحكامه وآدابه، وما يحمل للمجاهدين من عمل فى ميدان الجهاد وما يحرم عليهم فيه.

* هذه الدعائم التى يقوم عليها الجهاد فى الإسلام أوشكت أن تغيب جميعها عن كثير من المسلمين، وبخاصة عن أولئك الذين يزعمون أنهم متحضرون، ليحلوا محلها قوانين ونظما وضعها أشرار من الناس يحترفون القتال ويصنعون أسلحته الفتاكة ويحظرون صناعتها على سواهم، ويقاتلون فيقتلون الأطفال والنساء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح كما فعلت إسرائيل ولا تزال تفعل وكما فعل الغرب فى الحروب الصليبية، وكما فعلت الصليبية الحديثة فى إثارة حربى الخليج وكما فعل ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، وكما تفعل روسيا الآن، وكما فعل الصرب فى المسلمين فى البوسنة والهرسك وكوسوفا وغيرها وغيرها.

إن كل ما يجرى على الساحة العالمية اليوم من حرب وقتال لا يمكن أن يستهدف إحقاق الحق ولا إقامة العدل ولا القضاء على الباطل وأهله، وإنما يستهدف مصلحة الأقوى والأكبر والأكثر تسلحًا والأقدر على الإبادة الجماعية للناس!!!

تحديد الأعذار المقبولة فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله تعالى

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾.

تفسير الآيات الكريمة وشرحها:

* تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الأعذار المقبولة أو المرفوضة للتخلف عن الجهاد فى سبيل الله، وعن أنواع هؤلاء المعتذرين.

* وتوضح من هم أصحاب الأعذار المقبولة فى القعود عن الجهاد، وهم:

ـ الضعفاء والمرضى والعاجزون عن الإنفاق على إعداد سلاحهم وعدتهم.

ـ والذين ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليكفل لهم مئونة القتال، فلم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه من عدة وعتاد.

* وتعتبر الآيات الكريمة أن الذين يستأذنون فى القعود عن الجهاد وهم أغنياء من

المنافقين الذين رضوا أن يكونوا مع الخوالف.

* وتتوعد كل صاحب عذر كاذب مهما غَلُظت أيمانه وما يحلف به من مقدسات.

* تخبر بأن الله تعالى لا يرضى عن هؤلاء المعتذرين كذبًا لفسقهم عما أوجب عليهم أن يلتزموا به.

* وتبيِّن أنواع هؤلاء الأعراب وطبائعهم، وتوضح مصير كل نوع منهم.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

- المعذرون: هم المعتذرون، أى الذين أتوا بالعذر، هؤلاء جاءوا إلى الرسول ﷺ يعتذرون.

- من الأعراب: وهم سكان البوادى حول المدينة المنورة، والمراد بهم فى هذه الآية؛ قبائل أسد وغطفان، وكانوا قالوا: إن لنا عيالا، وإنَّ بناجهدا فأذَن لنا فى التخلف.

وقيل: هم بنو عامر رهط عامر بن الطفيل، وكانوا قالوا: إنْ غزونا معك أغارت أعراب طيىء علينا، فأذَن لنا.

فأذن لهم رسول الله ﷺ إذْ كانت أعذارهم مقبولة ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أى ليأذن لهم رسول الله ﷺ فى القعود عن الجهاد بسبب أعذارهم.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

هؤلاء هم فريق آخر من الأعراب خليط من مسلمين ومنافقين.

- وكذبهم: فى أنهم أظهروا إيمانهم.

أو كذبهم: فى وعدهم النصر والمشاركة ثم قعودهم دون اعتذار، وكان تخلفهم أشد إضرار لما قد يترتب عليه من تخذيل عدد من الغزاة، لشعورهم أن الجيش قد قل عدده أى لأى مشاعر ولدت فى نفوسهم الرغبة فى الانسحاب.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقصد بالذين كفروا فى هذه الآية: الذين كذبوا الله ورسوله، والذين كانت أعذارهم ناشئة عن نفاق وكذب.

وقيل: هم منافقــون من الأعراب، ما جاءوا وما اعتــذروا، فظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعائهم الإيمان.

ـ والعذاب الأليم الذى سيصيبهم هو القتل فى الدنيا والنار فى الآخرة.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية.

فى هذه الآية تحديد للذين يقبل الله أعذارهم فى التخلف عن الجهاد فى سبيله وهم أقسام ثلاثة:

الأول: الضعفاء الذين لا يستطيعون تحمل أعباء الجهاد مثل الشيوخ ونحوهم ـ وهم صحاح البدن ـ إلا أنهم لا يستطيعون.

والثانى: المرضى وهم أصحاب العمى والعرج والزمانة [1] وأصحاب أى مرض يمنعهم من ممارسة القتال.

والثالث: الذين لا يجدون الأهبة والزاد والراحلة، أى لا يجدون ما ينفقون.

فهؤلاء جميعا يجوز لهم أن يتخلفوا عن الغزو، إذا نصحوا لله ورسوله، ومعنى: نصحوا لله ورسوله أنهم أقاموا فى البلد محترزين عن إلقاء الشائعات والأراجيف، وعن إثارة الفتن، بل سعوا فى إيصال الخير للمجاهدين الذين خرجوا، أوسعوا فى إصلاح مهمات بيوتهم، أو إيصال الأخبار السَّارَّة من بيوتهم إليهم.

فهذه الأعمال ونحوها تعد من الإعانة على الجهاد، فتسمى نُصحا لله ولرسوله ﷺ.

* وقد يكون النصح لله ورسوله هو النصيحة العامة فى الدين كما جاءت فى السنة النبوية فقد روى مسلم بسنده عن تميم الدارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثا، قلنا لِمَنْ؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

﴿ما على الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾:

المعنى: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، لأنهم محسنون غير مسيئين، وما على المحسنين من

---

(١) الزمانة: المرض الذى يدوم.

سبيل الله، لا مؤاخذة عليهم ولا عقاب

- والمحسنون هم الذين فعلوا الإحسان، وهو ما فيه النفع العام، أو هم الذين نصحوا لله ورسوله.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى كثير المغفرة، ومن مغفرته أنه لم يؤاخذهم على القعود عن الجهاد، شديد الرحمة بالناس ومن رحمته أنَّه لم يكلف أهل الأعذار بشىء يشق عليهم.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾

أى لا حرج على أولئك أيضا فهم كالضعفاء والمرضى وهم الذين لا يجدون ما ينفقون ولا وجدوا عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه.

قال العلماء: هذه الآية نزلت فى بنى مقرّن - وهم سبعة إخوة صحبوا النبى ﷺ - وليس فى الصحابة سبعة إخوة غيرهم [1] وقيل نزلت الآية فى سبعة نفر من بطون شتى - وهم البكاءون - أتوا الرسول ﷺ فى غزوة تبوك ليحملهم، فلم يجد ما يحملهم عليه: «فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنًا ألا يجدوا ما ينفقون» فسُمُّوا: البكائين[2].

وقيل: نزلت فى أبى موسى الأشعرى وأصحابه؛ أتوا النبى ﷺ ليستحملوه - ووافق ذلك غضبا منه - فقال: «والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا يبكون، فدعاهم رسول الله ﷺ وأعطاهم ذَوْدًا، [3] فقال أبو موسى: ألستَ حلفتَ يا رسول الله؟ فقال: إنى إن شاء الله لا أحلف على يمين فأَرَى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفرتُ عن يمينى».

وقد رواه مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى قال: أتيتُ النبى ﷺ فى رهط من

---

(١) هم: النُّعمان، ومعقل، وعقيل، وسويد، وسنان، وعبد الله، وعبد الرحمن، وهم مَزنيُّون هاجروا وصحبوا الرسول ﷺ وقيل: إنهم شهدوا الخندق. رضى الله عنهم.

(٢) وهم: سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف، وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بنى مازن بن النجار، وعمرو بن الحُمام من بنى سلمة، وعبد الله بن المفضل المزنى، وهرمى بن عبد الله أخو بنى واقف، وعرباض بن سارية الفزارى، رضى الله عنهم.

(٣) الذَّوْد هو: من الثلاثة إلى العشرة من الإبل.

الأشعريين نستحمله [1] فقال: والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه، قال: فلبثنا ما شاء الله، ثم أُتِىَ بإبل فأمر لنا بثلاث ذود غُرٌّ الذرَى، فلما انطلقنا قلنا - أو قال بعضنا لبعض - لا يبارك الله لنا، أتينا رسول الله ﷺ نستحمله فحلف ألا يحملنا، ثم حملنا، فأتوه فأخبروه فقال: ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم، وإنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ثم أرى خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير».

* هؤلاء هم أصحاب الأعذار المقبولة فى القعود عن الجهاد، وهؤلاء الذين حبسهم العذر لهم عند الله أجر المجاهدين، فقد روى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة رجالا ماسرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم» قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر».

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

جاءت هذه الآية الكريمة لإتمام المعنى المقابل للآية السابقة التى فيها: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ . . .﴾ الآية.

أى ليس على أصحاب الأعذار من سبيل إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء. بمعنى أن الإثم والحرج والمساءلة بين يدى الله على هؤلاء المنافقين الذين يستأذنون فى القعود وهم أهل ثروة وقدرة، حيث رضوا بهذا الاستئذان أن يكونوا مع الخوالف راضين لأنفسهم أن يكونوا مخالفين لشرع الله متقبلين للمنزلة الوضيعة الدنيئة التى تجلب عليهم عقاب الله وعذابه.

والسبب فى قبولهم لهذا ورضاهم به أن قلوبهم مريضة بحب الدنيا، وإيثار الدعة والراحة وتجنب القتال ومتاعبه، فهم بهذا الموقف لا يعلمون ما ينفعهم وما يضرهم فى الدنيا والآخرة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾.

- المعنى: أن المنافقين القاعدين عن الجهاد انتظروا حتى رجع النبى ﷺ والمؤمنون من

---

(1) أى نطلب منه ما يحملنا ويحمل أثقالنا من الإبل.

تبوك، ثم أخذوا يعتذرون إليهم عن تخلفهم عن مشاركتهم فى الغزوة، والنبى ﷺ والمؤمنون يقولون لهم: لا تعتذروا إلينا فلن نصدقكم، فقد نبأنا الله من أخباركم.

﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

أى أعلمنا بسرائركم وما تضمرون، وكشف لنا نفاقكم، فكيف نقبل اعتذاركم:
﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾.

أى يكشف عن صدقكم أو كذبكم فى ادعائكم حب الرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فى هذا الجزء من الآية الكريمة تخويف لهم وتهديد وزجر، لوقوفهم يوم القيامة بين يدى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية والذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

أى: يحلفون لكم أنهم ما قدروا على الخروج معكم إلى تبوك. لتعرضوا عنهم: أى عن لومهم وتأنيبهم على تخلفهم عنكم، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لتعرضوا عنهم: أى لا تكلموهم.

وقال مقاتل: إن الرسول ﷺ لما رجع من تبوك، قال عنهم: لا تجالسوهم ولا تكلموهم.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

أى قاطعوهم ولا تجالسوهم ولا تكلموهم.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

وهذا هو سبب مقاطعتهم والإعراض عنهم.

والرجس: الخَبَث.

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أى: مصيرهم ونهايتهم ومقرهم الذى يأوون إليه يوم القيامة هو جهنم جزاءً عادلاً

لهم على ما كانوا يعملون فى الدنيا.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾.

أى: يحلفـون لكم أنهم لن يتخلفـوا عن غزوة من غـزوات الرسول ﷺ بعـد ذلك طالبين أن ترضوا عنهم فتـجالسـوهم وتكلموهم، وقـد حلف عبد الله بن أبى بن سلول على ذلك.

﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

أى: أن رضاكم عنهم غير جـائز، إذ كيف ترضون عمن لا يرضى الله عنهم؟ والله لا يرضى عن القوم الفاسقين، فليس لكم أن ترضوا عنهم.

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنـزَلَ الـلَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالـلَّهُ عَلِيـمٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة والآيتـان التاليتـان لها تصف الأعراب وتوضح طـبائعهم وخـبيث أعمالهم وإضـمارهم الشر نحوكم. فى حين كانت الآيات الكريمة السابقـة تتحدث عن أهل المدن والحواضر.

ـ الأعراب: هم البدو الذين يطلبون مسـاقط الغيث والكلأ سواء كانوا من العرب أو من مواليهم. والعرب: هم الذين استوطنوا الحواضـر والقرى، وهم أكثر تحضرا ودماثة من الأعراب.

ولذلك كان العرب أفضل من الأعراب وكان حبهم مطلبًا شرعيًا، فقد روى الطبرانى فى الأوسط بسنده عـن أنس رضى الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «... وحب العرب من الإيمـان وبغضهم من الـكفر، ومن أحب العـرب فقد أحـبنى، ومن أبغض العرب فقد أبغضنى».

وبعض علماء الحديث يقولون: إن هذا الحديث ضعيف.

ـ هذه الآية الكريمة أوضحت بعض صفات الأعراب السيئة وهى:

* أنهم أشد من غيرهم كفرا ونفاقا.

* وأنهم جديرون بالا يعلموا المقـادير والحدود لما أنزل الله على رسوله ﷺ من أدلة

ـ والله عليم حكيم: يكشف عن صفـاتهم بعلمه، حكيم فيمـا يأمر به، وينهى عنه ويشرعه للناس عموما.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

والمعنى: أن من صفات الأعراب:

ـ أنهم يعتبرون إنفاقهم المال فى سبيل الله خسارة وغرامة، فإذا أنفقوا شيئا كان ذلك تَقِيَّة وخوفا من المسلمين.

ـ وأنهم يتربصون بكم المهالك، فقد كانوا يتمنون لكم الموت والقتل والهزيمة وهم دائما يتمنون موت الرسول ﷺ.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى يدور عليهم هذا البلاء الذى يتربصونه بكم، وسوف لا يرون فى محمد ﷺ وأصحابه إلا ما يسوؤهم بإذن الله تعالى.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أى: سميع لأقوالهم، عليم بتمنياتهم، محاسبهم على ذلك ومعاقبهم.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾.

ـ هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب، وقد أثنى الله عليهم، بل وفاهم من الثناء فوصفهم بما يشرفهم ويرفع قدرهم عند الله وعند الناس ومن هذه الصفات الفاضلة:

ـ أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر.

ـ وأنهم يرون أن ما أنفقوه فى سبيل الله قربة لهم من الله الكريم الذى يكافئهم ويجزل لهم العطاء.

ويرون ما أنفقوا سببا فى أن يدعو الرسول لهم بالخيرات، وكان رسول الله ﷺ يصلى ـ أى يدعو ـ لكل من تقدم بصدقة فيقول: «اللهم صل على آل فلان»، كما ثبت ذلك فى السنة النبوية للمطهرة أنه قال: «اللهم صل على آل أبى أَوْفَى».

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصلاة على المتصدقين فى قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقد قَبِلَ الله تعالى صلاته عليهم، فكانت قربة لهم وسببا فى دخلوهم رحمة الله تعالى ومغفرته.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والمعنى: أنه تعالى تقبل منهم ما أنفقوا من أموال فى سبيله وجعلها سببا فى قربهم من الله تعالى، وقربهم منه سبحانه أدخلهم فى رحمته ومغفرته، فهو سبحانه الغفور الرحيم.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسًا هامة فى تعرف الناس وأصنافهم، وصفات كل صنف منهم، مما يزيد حصليتهم المعرفية من جانب ويعطيهم القدرة على التعامل مع الناس دون أن تنخدعوا فيهم من جانب آخر، والمعرفة التى تكتسب من القرآن الكريم هى المعرفة الحقة والثقافة الحقة، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش دون زاد معرفى ثقافى، ومن هذه الدروس العظيمة ما نشير إلى بعض فيما يلى:

أولا

يتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. ما يلى:

١ - أن أصحاب الأعذار فى القعود عن الجهاد فى سبيل الله تقبل منهم أعذارهم ما داموا صادقين فيها، لأنه سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يكلف نفسا إلا ما آتاها، وما جعل على عباده فى تكاليفه كلها من حرج، كما أنه سبحانه يحاسب كلا بما عمل، إذ لديه كتاب ينطق بالحق، إذ سجلت فيه أعمال العباد، وأشهدوا على صحة ما فى هذا الكتاب وصدقه، فأصحاب الأعذار ناجون من عذاب الله وقد علم الله منهم صدقهم وسجله عليهم.

- أما الذين يقعدون عن الجهاد فى سبيل الله بغير عذر، فهؤلاء يكذّبون الله تعالى فيما شرع، ويكذّبون رسوله ﷺ فيما بلَّغ، ويكذبون على أنفسهم فى ادعائهم أنهم أصحاب أعذار، هؤلاء غير مؤمنين، بل هم المنافقون الذين سيصيب الكافرين منهم عذاب أليم بالقتل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

أما الذين يتوبون منهم من قريب فلهم حكم آخر يتناسب مع صدق نيتهم.

٢ - وأن من رحمة الله تعالى بخلقه أن قبل من أصحاب الأعذار أعذارهم وأصحاب الأعذار معروفون وهم: الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون مئونة الجهاد فى سبيل الله من زاد وعدة وعتاد، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله ورسوله فيكون مع المؤمنين بقلوبهم

ما داموا لم يقدروا على مشاركتهم ماديا بالذهاب معهم إلى أرض المعركة.

ويدخل فى النصح لله ورسوله أن يحاولوا إيصال الخير للمجاهدين فى أنفسهم، وفيما خلفوا وراءهم من أهل وعيال.

ويدخل فى هذا النصح أن يقاوموا الإشاعات والأراجيف التى تفت فى عضد المؤمنين عموما والمجاهدين خصوصا.

فإن قام أصحاب الأعذار بهذه الأعمال فما عليهم من سبيل أو حرج أو إثم، إذ يعدون بقيامهم بهذه الأعمال قد أحسنوا، وما على المحسنين من سبيل.

٣ - وأن الإثم والحرج والسبيل إلى عقاب الله تعالى إنما هو على الذين استأذنوا فى القعود وهم أغنياء، أولئك الذين رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع الخوالف من النساء والأطفال والعاجزين من القتال، مع أن هؤلاء المعتذرين قادرون على القتال، وذلك أنهم قد أغلقت قلوبهم وعميت بصائرهم عن الحق، فجهلوا العاقبة الوخيمة لقعودهم عن القتال.

ولو تدبر هؤلاء لعلموا أن الجهاد فى سبيل الله والإنفاق فى سبيل الله إنما فى الحقيقة من أجل المؤمنين حاضرهم ومستقبلهم، ومكانتهم عند الله تعالى، بل هو الطريق إلى نشر دعوة الله وإقرار منهجه ونظامه فى خلقه إكراما لهم وتكريما لمكانتهم عند الله.

٤ - وأن الذين يعتذرون بعد انقضاء المعركة وزوال الابتلاء منافقون لا يقبل منهم عذر، وقد فضحهم الله تعالى على عهد النبى ﷺ، وهم اليوم يفضحون أنفسهم ويكشفون عن نفاقهم بتخلفهم عن المشاركة فى المواقف التى يتعرض فيها المسلمون لمحنة أو بلاء، ثم يردون إلى الله الذى لا تخفى عليه مواقفهم فيحاسبهم ويعاقبهم على ما كانوا يعملون فى الدنيا من عمل لا يرضيه سبحانه وتعالى.

٥ - وأن المؤمنين لابد أن يقاطعوا من تخلف عن مشاركتهم فى القتال والابتلاء، فلا يجالسوهم ولا يكلموهم، وإنما هو الإعراض عنهم، وكيف لا يعرضون عمن هم رجس وخبث؟ وكيف لا يعرضون عمن أخبر الله عنهم بأنهم من أصحاب جهنم؟ وكيف لا يعرضون عمن أعرض الله عنهم؟

وكيف لا يعرضون عمن أعلن الله تعالى أنهم فاسقون وأنه سبحانه لا يرضى عن

القوم الفاسقين؟

ثانيا:

ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿الأعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ما يلى:

١ ـ أن أهل البداوة أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وأن البداوة خلق واتجاه تعكسها البيئة وأن البدو قد يكونون من أهل الحواضر ولكنهم فى أخلاق البدو وصفاتهم، وأن التعامل معهم يجب أن يكون ملائما لبداوتهم، وأن الذين لا يعرفون حدود ما أنزل الله على رسوله ولا يحترمون ذلك ويلتزمون به فهم والأعراب سواء.

٢ ـ وأن البداوة تعنى الجهل بالعواقب، وتعمى عن رؤية الحق. وتَتَسَبَّبُ فى اختلال المعايير، إلى أن يرى أحدهم الحق باطلا وأن الباطل حقا، وما ظننا بأناس يرون ما ينفق فى سبيل الله تعالى غرامة وخسارة؟

وما ظننا بمن يتربص بالمؤمنين الدوائر ويتمنى لهم كل شر؟

أليس ذلك بدويا جاهلا أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله، ويرى ما ينفق فى سبيل الله مغرما؟

ـ وأن الله تعالى لهؤلاء بالمرصاد يجعل تربصهم الشر بالمؤمنين وبالرسول ﷺ يدور عليهم بالسوء والشر والهزيمة والخذلان فى الدنيا والآخرة.

٣ ـ وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويعتبرون ما أنفقوا فى سبيل الله قربة عند الله وأسبابا تجعل الرسول ﷺ يدعو لهم، فهؤلاء أهل خير وحق وإن عاشوا فى البدو، وانتسبوا إلى الأعراب، لأن أخلاقهم وصفاتهم لا تنتمى إلى هؤلاء البدو الأجلاف.

وأولئك سيدخلهم الله فى رحمته يوم القيامة أى جنته جزاء ما آمنوا وعملوا وتقربوا إلى الله ورسوله، لأن الله تعالى غفور رحيم، بل واسع المغفرة والرحمة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات دروسا نافعة تزودهم بأعظم الزاد فى طريق الدعوة والحركة والتربية والعمل على التمكين لدين الله فى الأرض، ومن هذه الدروس ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

أولا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ دروسا وعظات وعبراً فى مجالات عملهم المتعددة، نشير منها إلى ما يلى:

١ ـ أن من السُّنَن التى لا تتخلف فى مجالات العمل من أجل الإسلام أن يعتذر بعض الناس عن بعض العمل فى بعض الأوقات أو يعتذروا عن المشاركة فى أنواع بعينها من العمل، ويكون لبعضهم العذر الحقيقى فى عدم المشاركة، وهذا العذر المقبول كثيرا ما لا يخفى على فطنة الدعاة إلى الله.

* وواجب الدعاة إلى الله والحركيين فى مثل هذه الأحوال أن لا يتهموا أحدا فى نيته لأن علم النوايا عند الله وحده، ولا يتهمونه فى ولائه للعمل من أجل الإسلام، وإنما يأخذون بظاهر أمره، فلا يسعهم عندئذ إلا قبول عذره.

* غير أن الدعاة إلى الله عليهم أن يحذروا كل الحذر من أن يلجئوا إلى تصنيف الناس حسب إقبالهم على العمل أو اعتذارهم عنه: فإن ذلك التصنيف حكم على نوايا الناس وهذا لا يجوز، ولأن هذا التصنيف قد يحدث فى نفوس كثير من المدعويين مزيدا من التوجس، والإحساس بأن هناك رقيبا من الناس عليهم، وفى هذا ما فيه من إفساد العمل إذا نظر العامل لأن يكون عمله مرضيا لهذا الرقيب من الناس، بل إحباط العمل لأنه لم يتوجه به إلى الله، فإذا سرى هذا الشعور فى المدعويين فلابد أن نتوقع خللا ذا ثلاث شعب:

شعبة العمل نفسه: حيث يفقد الإتقان والتجويد الذى يشتمل عليه العمل المتوجه به

صاحبه إلى الله تعالى!!!

وشعبة العاملين أنفسهم: حيث يختل عندهم الإخلاص والتجرد ويصبح همهم إرضاء المسئولين والرقباء!!!

وشعبة تحقيق الأهداف: حيث يصعب أن يتحقق الهدف من العمل، ما دام العمل والعامل قد خالطهم عدم الإخلاص فى العمل وعدم التوجه به كلية إلى الله وحده.

* ولابد والحالة هذه أن يظهر فى الطريق ـ وقد شابه عدم الإخلاص ـ كثير من المعوقات والعقبات، مع أن الطريق ـ بفعل الأعداء ـ لا تنقصه معوقات أو عقبات!!!

٢ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن ينظروا إلى أولئك المكذبين بالله ورسوله المعارضين لأى عمل من أجل الإسلام، على أن حسابهم على الله وعقابهم عليه، وليس للدعاة إلى الله أن يحاسبوهم أو يعاملوهم معاملة الكاذبين المعاندين الذين يكذبون الله ورسوله لأن هذا ليس لهم، ولكنه لله تعالى.

وما داموا دعاة إلى الله فإن واجبهم أن يدعوهم ويهدوهم لا أن يحاسبوهم ويعاقبوهم.

٣ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يفقهوا الناس بأمر الجهاد فى سبيل الله، وقضية العمل من أجل الإسلام وتمكين منهجه فى الأرض.

* ففى الجهاد فى سبيل الله، على المسلمين الذين لا يستطيعون المشاركة فى المعركة لأعذار مقبولة من ضعف أو مرض أو فقر أن يكونوا إيجابيين فى المجتمع المسلم الذي ينتمون إليه، إذ هم مطالبون دائما أن يكونوا من المحسنين أى الذين ينصحون لله ورسوله.

والمحسن قد يحسن بكلمة طيبة أو بعمل طيب أو بردّ إشاعة أو تهمة والمحسن ما عليه من سبيل.

* وفى مجال العمل من أجل الإسلام وهو شعب كثيرة أشرنا إليها أكثر من مرة ـ فى هذا الكتاب وفى غيره من الكتب، فإنهم كذلك، مع عدم قدرتهم على ممارسة العمل ـ يجب أن يكونوا من المحسنين حتى لا يكون عليهم سبيل.

والمحسن فى هذا المجال إيجابى أيضا يشجع العاملين بالكلمة الطيبة وبالدعم المعنوى، وبمقاومة إشاعات التخذيل والتقليل من شأن العمل، فضلا من التيئيس والتقنيط، والإفراط فى الحديث عن أعداء الإسلام وتصويرهم على أنهم عدو لا يغلب.

كل هذه من ألوان الإحسان فى العمل من أجل الإسلام التى يجب أن يقوم بها أصحاب الأعذار المقبولة فى التخلف عن العمل.

٤ ـ وعلى الدعاة إلى الله والحركيين أن يقدروا الموقف النفسى للراغبين فى الجهاد فى سبيل الله ولكنهم غير قادرين عليه، أو الراغبين فى العمل من أجل الإسلام ولكنهم لا يستطيعون لأعذار مقبولة.

فهؤلاء أخلاف لأسلاف لهم رضى الله عنهم ذهبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يحملهم عليه فلما لم يجد ذهبوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون ـ هؤلاء هم البكاءون كما أوضحنا ذلك آنفا ـ.

هؤلاء الأسلاف رضى الله عنهم تركوا فى أخلافهم هذه الرقة فى القلوب والعواطف، ولابد للدعاة إلى الله من تقدير هذه المشاعر حق قدرها، ولابد لهم أن يعملوا ما وسعهم على أن يذللوا أمام هؤلاء البكائين كل عقبة تحول بينهم وبين الاشتراك فى الجهاد أو فى العمل من أجل الإسلام، فذلك واجب الدعاة إلى الله أولا وواجب المسلمين جميعا بعد ذلك.

٥ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا علم اليقين أن الذين لا يشاركون فى الجهاد فى سبيل الله وهم من أهل القدرة واليسار، وإنما يسارعون فى الاعتذار قبل المعركة أو فى أثنائها أو بعدها وبعد انتهاء فترة الابتلاء بلقاء العدو.

هؤلاء ظاهرة موجودة فى المجتمع المسلم منذ عهد رسول الله ﷺ، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

وهؤلاء حسابهم وعقابهم على الله وسوف ينبئهم بما كانوا يعملون ثم يجازيهم أعدل جزاء، ولا يملك الدعاة إلى الله حيالهم شيئا أكثر من.

ـ عدم قبول اعتذاراتهم، ما داموا من أهل القدرة.

- والإعراض عنهم مهما حلفوا وقدموا من تَعِلاَّت.

وذلك أن الله تعالى وصفهم بأنهم رجس، وبأنه سبحانه لن يرضى عنهم، لأنه سبحانه وتعالى لا يرضى عن القوم الفاسقين.

* وما دام هؤلاء وأمثالهم ظاهرة موجودة فى المجتمع المسلم، وما دام هذا هو الموقف الذى يجب أن يقفه معهم الدعاة إلى الله، فإن واجبا ينبع من هذا الموقف يجب أن يقوم به الدعاة إلى الله هذا الواجب هو مقاومة الأسباب التى تؤدى إلي هذه الظاهرة فذلك من صميم عمل الدعاة إلى الله، رعاية الأرض وتعهدها حتى لا تنبت فيها نبتة خبيثة.

فكيف يؤدى الدعاة إلى الله ذلك الواجب؟

والجواب هو:

- تربية الناس على قيم الإسلام ومبادئه وأخلاقه وآدابه، تلك التربية التى تجعل منهم مؤمنين صادقين فى إيمانهم، ومسلمين مخلصين فى عباداتهم ومعاملاتهم ومحسنين لكل عمل يقومون به ولكل إنسان يتعاملون معه، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، فمن ربى هذه التربية وتغلغلت قيمها ومبادئها فى قلبه ثم انعكست على لسانه وجوارحه أقوالا فاضلة وأعمالا صالحة، فإن ذلك الإنسان لن يتخلى عن الجهاد فى سبيل الله ولا عن إنفاق فيما أوجب الله [1].

- وتربيتهم على الأخذ بأسباب قوة البدن وقوة العقل وقوة العلم بعد التعلمّ.

أما قوة البدن فبتعهده ورعايته، وإبعاده عن أسباب ضعف البدن، كالإسراف والتقتير فى كل ما يحتاج إليه البدن، مع الأخذ بكافة الأسباب والوسائل التى تقوى البدن ومن ذلك الاعتدال فى الطعام والشراب والنوم والراحة والتعب والتريض والرياضة البدنية بمفهومها المعاصر، والتدرب على السباحة والرماية وركوب الخيل، وغيرها[2].

---

(١) انظر لنا فى ذلك: التربية الروحية، والتربية الخلقية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م -.

(٢) كتاب بعنوان التربية البدنية فى سلسلة مفردات التربية الإسلامية هو الآن قيد البحث والدراسة وأوشكت على الانتهاء منه.

وأما قوة العقل فبتعويده التأمل والتدبر، والأخذ بأحسن مناهج التفكير، مع التدرب على مرونة التفكير والبحث عن أكثر من حل وتحليل لبعض المشكلات والقضايا[1].

وليس كالإسلام دين يدعو إلى احترام العقل ووجوب إعماله واحترام ما يصل إليه، فقد كفل له حرية التفكير، بل جعلها أصلا لا يمكن الاستغناء عنه، ورفض أن يؤمن الإنسان تقليدا لغيره وطالب بالاجتهاد حتى فى المسائل المتعلقة بالدين ما لم يكن فى تلك القضايا نصوص من القرآن والسنة [1].

وأما قوة العلم فبتزويد المدعو بالعلم والمعرفة وربطه بالمصادر الموثقة للعلم والمعرفة وهى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته، ودعوة الإنسان إلى التعلم فالعلم والتعمق فيه بما يعود بالخير على الأفرد والمتجمع، وإذا قلنا إن الإسلام هو دين العلم فلن نعدو الصواب، وحسبنا دليلا على ذلك أن أول آية نزلت من القرآن الكريم هى قوله تعالى: ﴿اقرأ...﴾ والقراءة باب الثقافة والمعرفة والعلم، والقراءة استفادة من تجارب السابقين، وتكميل لما بدأوه، وبناءٌ على ما أسسوه حتى تخطو البشرية فى مجال العلم على هَدْى ورشد.

* إن هذه واجبات الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية والمشغولون بالتربية الإسلامية، من أجل ألا تنبت فى المجتمع هذه الظاهرة التى تتمثل فى عزوف بعض الناس عن الإيمان وعن الإسلام، وعزوف بعض المسلمين عن الجهاد فى سبيل الله والإنفاق فيما أوجب الله.

ثانيا:

ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾ ما يلى:

١ ـ أن الأعراب ـ وهم البدو الرحَّل ـ وإن اشتركوا فى البداوة، واستمرار التنقل بحثا عن الماء والعشب، وبعض الصفات التى تنتمى إلى الخشونة وفظاظة الطباع إلاَّ

---

(١) صدر لنا كتاب: التربية العقلية من هذه السلسلة نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

أنهم على الرغم من هذا التشابه ينقسمون إلى قسمين:

ـ قسم تمكنت فيه البداوة فأورثته جفوة واشتدادا فى الكفر والنفاق وإنكار ما أنزل الله على رسوله أو تجاهله، واعتبار ما ينفقون فى سبيل الحق والواجب مغرمًا وخسارة، وحرصهم الشديد على أن يلحقوا بالإسلام والمسلمين أى ضرر وكل ضرر، أو أن يسمعوا عنهم ما يشفى كراهيتهم لهم وأحقادهم عليهم هذا القسم من الأعراب، يستوجب على الدعاة إلى الله مزيدا من نشر دعوة الله فى الناس، وتوضيحا لمبادئها وقيمها، وتيسير الإيمان بها واعتناق قيمها وأخلاقها وآدابها.

كما يستوجب مزيدًا من التحرك بالإسلام فى أكبر عدد من الناس وأوسع رقعة من الأرض، حتى يرى الناس الإسلام متمثلا فى المتحركين به فيقبلون عليه ويدخلون فيه أفواجا.

كما يستوجب مزيدًا من الاهتمام بالتربية الإسلامية فى البيت قبل المدرسة، وفى المدرسة بكل مراحلها وفى المجتمع.

* إن ذلك العمل وما يسانده من أعمال هو الذى يقتلع الصفات السيئة من الأعراب لتحل محلها صفات حسنة فاضلة تنفع صاحبها وتنفع المجتمع.

ـ وقسم لم تستطع الأعرابية أو البداوة أن تغطى فى داخله على دواعى الإيمان وأسبابه، واستقامة الفطرة التى فطر الله الناس عليها على الحق وعلى الفضائل التى جاء بها الإسلام.

فكان هذا القسم من الأعراب مؤمنا بالله واليوم الآخر، بكل ما يوجبه هذا الإيمان من تبعات، فكان إسلامه موافقا لإيمانه وكانت أخلاقه موافقة لإسلامه، وجاءت أعمال جوارحه مطابقة لما يوجبه عليه إيمانه وإسلامه، فأصبحت أعمالا صالحة ترضى الله تبارك وتعالى، فصحَّتْ عنده الآراء والرؤى واستقام عنده الفهم والعمل، فرأى الأمور على حقيقتها دون زيف أو خداع، فاعتبر ما ينفقه فى سبيل الله قربة إلى الله تعالى، وفرصة إلى أن يحظى بدعاء الرسول ﷺ يوم كان يعيش الرسول فيما بينهم، أو يحظى بدعاء صالحى المؤمنين من ورثته ﷺ فى كل مكان، فكان هذا القسم خيرا لقسمين وأجدى وأنفع على المسلمين فى معاشهم ومعادهم.

* وواجب الدعاة إلى الله نحو هذا القسم هو:

- مزيد من الدعم والتأييد لما يقوم به هذا القسم من أعمال صالحة مع تفسير وتحليل لموقفهم ذلك أمام غيرهم من الناس.

- ومزيد من تعميق الاتصال بهم واصطحابهم إلى أماكن الخير ودعاة الخير، وصالحى المؤمنين، لتأنس نفوسهم إلى الصالحين أمثالهم، ويهون عليهم ما أخذوا به أنفسهم من تضحيات وقربات، فلا يشجع على الاستمرار فى فعل الخير إلا صحبة أهل الخير، واختيار الجليس الصالح واجتناب جليس السوء.

وعلى الدعاة إلى الله أن يتذكروا فى هذا المجال ما رواه البخارى بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كمثل صاحب المسك، وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك؛ إما أن تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد، يحرق بيتك أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة».

١١ ـ الآيات الكريمة من الآية المائة إلى الآية العاشرة بعد المائة

طبقات الناس وأصنافهم حيال الدعوة الإسلامية

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

تفسير هذه الآيات الكريمة وشرحها:

تتحدث هذه الآيت الكريمة عن فـئات من المجتمع المسلم، كل منها أخـذ موقفا من الإسلام ومن دعوته، وهذه الفئات هى:

ـ فئة الذين أسهموا بإيمانهم وإسلامهم والتزامهم فى بناء المجتمع المسلم وأسهموا فى نشر الدعوة الإسلامية وهم:

* السابقون الاولون من المهاجرين رضى الله عنهم.

* والأنصار رضى الله عنهم.

* والذين اتبعوا هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار وهم التابعون رحمهم الله.

وهؤلاء جميعا لهم عند الله رِضًى وجناتٌ تجرى تحتها الأنهار مع الخلود فى هذا النعيم.

- وفئة منافقى الأعراب.

- وفئة منافقى أهل المدينة.

وهذه الفئات حاربت الإسلام فى السر وإن أظهرت الإسلام والولاء فى العلن.

وهؤلاء جميعا لهم العذاب مرتين: مرة فى الدنيا والأخرى فى الآخرة.

- وفئة خلطوا فى أعمالهم بين الصالح منها والطالح.

وهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم، وعسى من الله واجب، ثم تتحدث الآيات الكريمة عن أسلوب ييسر العودة إلى المشاركة فى أعمال الجهاد والإنفاق فى سبيل الله والإيجابية فى بناء المجتمع المسلم بتدارك ما فات من أعمال البر.

وذلك الأسلوب هو عقد النية على الجهاد فى سبيل الله ودفع الصدقات إلى مستحقيها سواء أكانت واجبة كالزكاة أم مستحبة كسائر الصدقات، وهذه الاستجابة إلى القيام بأعمال البر تؤكد لأصحابها أن الله تعالى يتقبل التوبة ويتقبل الصدقات، بل يشهد على صالح أعمالهم هو ورسوله ﷺ والمؤمنون.

ثم تتحدث الآيات الكريمة عن ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر فترك أمرهم لله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، ثم تتحدث عن الذين بنوا مسجد الضرار يجمعون فيه الذين يحاربون الله ورسوله، نفاقا منهم ورغبة فى التفريق بين المؤمنين، وكشفهم وكشف خبيث أعمالهم، ونهى الرسول ﷺ عن أن يقوم فى هذا المسجد، وتهديد لمن بنوه ووعيد لهم بعذاب أليم.

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾.

هؤلاء هم النماذج الجيدة التى تمثل فيها الإيمان الصحيح والإسلام السليم والإحسان للعمل.

وهؤلاء قد نصروا دين الله متحملين فى ذلك الشدائد والمتاعب وضحوا بأموالهم

وأوقاتهم وجهودهم وكثير منهم من ضحى بنفسه فمضى شهيدا فى سبيل الله تعالى، والباقون منهم ينتظرون الشهادة فى سبيل الله تعالى، لأنها أعلى الدرجات.

وهؤلاء هم أفضل الفئات التى تحدثت عنها هذه الآيات الكريمة سواء أكانوا من أهل الحضر والمدن أم أهل البوادى والوبَر.

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾

هم الذين دخلوا فى الإسلام قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، والسبق هنا هو السبق فى الدخول فى الإسلام.

﴿ وَالأَنصَارِ ﴾

وهم سابقون أيضا إذ دخلوا فى الإسلام قبل أقوامهم منذ أيام بيعات العقبة.

والأنصار: لقب على من آمن بالله ورسوله من قبيلتى الأوس والخزرج، وهو لقب أطلقه القرآن الكريم على أهل المدنية ولم يكونوا يعرفون به من قبل، وكلمة الانصار تعنى الذين نصروا الرسول ﷺ وآووه ودافعوا عن دينه وخاضوا معه المعارك ضد أعدائه.

وهلى يمكن أن نطلق لقب الانصار على كل من ينصر الإسلام والمسلمين اليوم؟

تحدث العلماء عن ذلك بتفصيل فقالوا: إن المدة التى ينتهى عندها وصف السابقين وردت فيه أقوال؛ منها:

- أنهم كل من صَلَّى إلى القبلتين (قبلة بيت المقدس وقبلة البيت الحرام).

وبذلك الرأى قال أبو موسى الأشعرى من الصحابة رضى الله عنهم وسعيد بن المُسَيَّب (١٣ - ٩٤ هـ) ومحمد بن سيرين (٣٣ - ١١٠ هـ) وقتادة بن دعامة (٦١ - ١١٨ هـ) من التابعين رحمهم الله تعالى.

وقال عطاء بن دينار (٠٠٠ - ١٢٦ هـ) وهو من التابعين من علماء الحديث وله كتاب فى التفسير رواه عن سعيد بن جبير:

- السابقون الأولون هم: كل من شهد بدراً.

- وقال الشعبى عامر بن شراحيل (١٩ - ١٠٣ هـ) من التابعين: هم كل من أدرك

بيعة الرضوان أو بيعة السمرة أو الشجرة والحديبية.

- وقال الإمام ابن العربى (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ).

السبق يكون بثلاثة أشياء.

* الصفة وهى الإيمان.

* والزمان.

* والمكان.

وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، والدليل عليه قوله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم النسائى بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له [1]، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد».

فقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ مَنْ سبقنا من الأمم بالزمان، سبقناهم نحن بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد له والرضا بتكاليفه، والصبر والاحتمال لوظائف هذه التكاليف وتبعاتهم، ولم نبدل شريعة الله بالرأى كما فعل أهل الكتاب من يهود ونصارى.

* والصحابة رضى الله عنهم طبقات كما ذكر ذلك العلماء:

- فأعلاهم طبقة: الخلفاء الأربعة.

- ثم باقى العشرة المشهود لهم بالجنة.

- ثم أهل بدر.

- ثم أصحاب أحد.

- ثم أهل بيعة الرضوان أو الشجرة.

والله أعلم بذلك.

---

(١) هو يوم الجمعة.

﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾.

وهم التابعون رحمهم الله، والتابعى هو كل من صحب الصحابى رضى الله عنه.

- ويرى بعض العلماء: أن التابعى يكفى فيه أن يسمع من الصحابى أو يلقاه، وإن لم توجد الصحبة العرفية.

- ويرى العلماء أن أعلى طبقات التابعين هم الفقهاء السبعة من أهل المدنية وهم:

١ - سعيد بن المسيب (١٣ - ٩٤ هـ).

٢ - والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق (٣٠ - ١٠٢ هـ).

٣ - وعروة بن الزبير (٢٢ - ٩٣ هـ).

٤ - وخارجة بن زيد (٢٩ - ٩٩هـ)

٥ - وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (... - ١٠٤ هـ).

٦ - وعبد الله بن عتبة بن مسعود (... - ٩٨ هـ).

٧ - وسليمان بن يسار (٣٤ - ١٠٧ هـ).

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الحديث هنا عن السابقين ومعنى: رِضَى الله عنهم: عنايته بهم وكرامه إياهم.

ومعنى: رضاهم عن الله: أى رِضَى نفوسهم عنه سبحانه وتعالى لكثرة ما أعطاهم

أى أن هؤلاء السابقين من المهاجرين والأنصار يرضى الله عنهم فيقبل منهم ويجزيهم خيرا، وهم كذلك يستبشرون بما أعد الله لهم من جنات تجرى الأنهار تحت أشجارها، فينعمون فيها بالنعيم الأبدى الذى لا يفوتهم ولا يفوتونه، وذلك هو الفوز العظيم.

﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾.

قال المفسرون: كان الأعراب الذين يسكنون حول المدينة قد دخلوا فى الإسلام وهم

جهينة. وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعُصيَّة فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن فى هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام منافقين، لئلا يغتر المسلمون بكل من دخل فى الإسلام وأظهر المودة

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ .

كان معظم أهل المدينة - إن لم يكونوا جميعا - قد أطاعوا النبى ﷺ ودخلوا فى الإسلام، وكان الرسول ﷺ والمؤمنون مطمئنين إلى ذلك، فأعلمه الله تعالى فى هذه الآية أن من أهل المدينة بقية من الناس مردوا على النفاق - أى ألفوه ولم يتوبوا عنه - لأن النفاق تأصل فيهم من وقت دخلوهم فى الإسلام، فلجُّوا فى النفاق واجتهدوا فى إخفائه وخداع المسلمين.

﴿ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الخطاب للنبى ﷺ، أى ليس من شأنك ولا شأن أحد أن يعلم الغيب، أو يعلم إن كان هؤلاء منافقين أو غير منافقين، لأن النفاق فى القلب لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، وسيخبرك الله من أمرهم بما شاء مما يجعلك حذرا منهم منتبها إليهم.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ المعذِّب هو الله تعالى، والتعذيب مرتين قال العلماء فى تفسيره أقوالا كثيرة كلها صحيح.

- فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: مرة بالأمراض فى الدنيا ومرة بالعذاب فى الآخرة.

- وقيل: مرة الدنيا بالقتل والسَّبْى ومرة الآخرة بعذاب النار.

- وقيل: مرة بأن تضربَ منهم الملائكةُ الوجوه والأدبار، ومرة عند البعث والحساب.

- وقيل: مرة بعذاب الدنيا بجميع أقسامه وأنواعه، ومرة بعذاب القبر.

- والمعنى العام لهذا التعذيب مرتين هو: مرة بنصر المؤمنين على أعدائهم، فهذا من شأنه أن يعذب المنافقين فى الدنيا لأنهم يحبون للمسلمين الهزيمة والانكسار، ومَرَّةً بفضيحتهم وكشف نفاقهم.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ .

وهذا يقينًا فى يوم القيامة وهول عذابها الشديد الأليم العظيم، فهم بنفاقهم قد جمع عليهم العذاب مرتين فى الدنيا، أو فى الدنيا والآخرة ويوم القيامة يردون إلى عذاب النار وهولها الشديد.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هؤلاء هم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كسلاً لا كفرًا ولا نفاقًا، وإنما كانوا من المسلمين، وهم:

- أبو لبابة مروان بن عبد المنذر.
- وأوس بن ثعلبة.
- ووديعة بن حزام.

وسبعة معهم، وقد ندموا على قعودهم فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد وحلفوا أن يظلوا كذلك حتى يحلهم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: وأنا لا أحلهم حتى أُمَر بذلك، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ الآية. حلهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم.

* وفى قبول الله تعالى توبة هؤلاء بعد ندمهم وما فعلوا فى أنفسهم روى البخارى بسنده عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أتانى الليلة آتيان فابتعثانى، فانتهيابى إلى مدينة مبنية بِلَبِن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال؛ شطر من خلقهم كأحسن ما أنتَ راءٍ، وشطر كأقبح ما أنتَ راءٍ. قالا لهم: اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة، قالا لى: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم».

﴿خلطوا عملاً صالحا وآخر سيِّئًا﴾.

العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله ﷺ فى سائر الغزوات، والعمل السيِّء تخلفهم عن غزوة تبوك.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

يرى بعض العلماء أن هذه الآية نزلت لَمَّا تاب الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، إذ قالوا لرسول الله ﷺ: هذه أموالنا التى شغلتنا عن الخروج معك فخذها كلها

فاجعلـها فى سبيل الله، فـقال لهم: ما أُمِرْتُ بذلك، فنزلت هذه الآية فأخـذ منهم ما يجب أخذه.

ـ والأرجح أنه بنزول هذه الآية الكريمـة وجبت الزكـاة على المسلمين، وقـد تكفلت السنة ببـيان نصـاب كل نوع من أنواع المال، كـما يرى ذلك جـمـهور علمـاء المسلمين وفقائهم.

* وتتعلق بهذه الآية الكريمة أحكام تتصل بالزكاة من أهمهما:

ـ أنّ السنة النبوية هى التى تكفلت ببيـان القدر الذى يؤخذ من المال زكاةً، وليس فى هذه الآية الكريمة ولا فى غيرها من آيات القرآن بيان لهذا القدر.

ـ وأنّ المال يجب أن يكون مملوكـا لهم، ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ بوساطة من وسائل الملكية المعروفة فى الشريعة.

ـ وأنّ الزكاة طهـرة عن الآثام، حتى قـال بعض العلماء: إن كل من لا يـصدر عنه الإثم لا زكاة عليه كالصبى والمجنون ونحوهما.

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾

الصلاة: الدعاء، وقد كان رسول الله ﷺ إذا دفع إليه أحد المسلمين زكاته، دعا له، وقد روى مسلم بسنده عن عبـد الله بن أبى أَوْفَى رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ إذا أُتى بصدقة قومٍ صلى عليهم، فأتاه أبى بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبى أَوْفَى».

﴿ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾.

أى: رحمة لهم كما فسرها ابن عباس رضى الله عنهما.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أى: سميع لدعائك، عليم بمن يستحق ذلك منك وبمن هو أهل له.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

هذه الآية الكريمة تحريض على التوبة، وحَثٌّ وتشجيع على إعطاء الصدقة، وكل من التوبة والصدقة تحط الذنوب عن صاحبهما وتمحقها، فكل من تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقـبلها بيمينه سبحانه وتعالى فـيربيها لصاحبها حـتى تصير التمرة

مثل أحد.

فقد روى الثورى بسنده عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مُهْرَه، حتى إنّ اللقمة لتكون مثل أحد».

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الخطاب فى هذه الآية الكريمة موجه إلى الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، ثم تابوا.

والمعنى: أن هؤلاء عيهم أن يعملوا بعد التوبة؛ وذلك أن التوبة ترفع المؤاخذة عما مضى، أما فى الحاضر وفى المستقبل فيجب على المؤمن أن يزيد من الأعمال الصالحة، ليجبر ما فاته من الأعمال فى الأوقات التى كانت جديرة بأن يعمرها بالحسنات، فتركها شاغرة أو ملأها بالسيئات، فإذا وردت التوبة أزالت السيئات وأصبحت تلك الأوقات فارغة من العمل الصالح. فلذلك أُمروا بالعمل عقب الإخبار بقبول توبتهم. ﴿وَقُلِ اعملوا﴾.

﴿فسيرى اللهُ عملكُم ورسُولُهُ والمُؤْمنُون وستُرَدُّون إلىٰ عالِم الغَيْب والشَّهَادة فيُنَبِّئُكُم بما كُنتم تعمَلُون﴾

ـ الله تعالى مطلع عى أعمالكم مجازيكم عليها.

ـ والرسول ﷺ مبلغ عن ربه أنه سبحانه سوف يتولى حسابهم وجزاءهم حسب أعمالهم.

ـ والمؤمنون هم: شهداء الله على الناس.

وإذا كان العمل بحيث يراه الله ورسوله والمؤمنون فيجب أن يكون على أحسن مستوى من الصلاح وعلى أقرب درجة من الكمال.

وهذه الآية الكريمة تحمل تهديدا وتحذيرا من ترك العمل بعد قبول التوبة.

﴿ وستُرَدُّون إلىٰ عالِم الغيْب والشَّهادة ﴾.

وهذه الآية الكريمة تحمل وعيدا إن كان العمل سيئا، وتحمل وعدا إن كان العمل صالحا. فهى أعمال معروضة على عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعالى.

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

المقصودون بهذه الآية الكريمة فريق آخر، وهم الذين لم يتب الله عليهم من المخلَّفين، وكان أمرهم موقوفا إلى أن يقضى الله فيه ما يشاء، وهم ثلاثة نفر:

- كعب بن مالك رضى الله عنه.

- وهلال بن أُمَيَّة رضى الله عنه.

- ومرارة بن الربيع رضى الله عنه.

وثلاثتهم تخلفوا عن غزوة تبوك، ولم يكن تخلفهم عن نفاق أو كراهية للجهاد، فقد كانت لهم مواقف مشهودة من قبل، ولكنهم شُغلوا عند خروج الجيش وهم يحسبون أنهم يلحقونه بعد الانتهاء من مشاغلهم، فانقضت أيام فى هذه المشاغل وأيسوا من اللحاق بالجيش، وكان النبى ﷺ قد سأل عنهم وهو فى تبوك - مما يدل على أنه ﷺ لم يكن يتوقع أن يتخلفوا.

فلما رجع رسول الله ﷺ من تبوك جاءوه، وصدقوه فى سبب تخلفهم، فلم يكلمهم ﷺ، ونهى المؤمنين عن كلامهم ومخالطتهم.

وأمر هؤلاء الثلاثة باعتزال نسائهم، فامتثلوا.

وبقوا كذلك خمسين يوما وليلة، فكانوا فى هذه المدة مرجون لأمر الله إن شاء تاب عليهم وإن شاء لم يتب.

وفى تلك المدة نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ وأنزل فيهم قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآيتان، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [١١٧ - ١١٨] من هذه السورة الكريمة.

وسوف نذكر قصتهم عند شرح تلك الآيات الكريمة بإذن الله تعالى.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والمعنى: أنّ أمر البَتّ فى ظروفهم متروك لمشيئته سبحانه وتعالى، وهو سبحانه عليم بهم حكيم فيما سيتخذ معهم من قبول لتوبتهم أو رفض لها وتعذيبهم على ما ارتكبوا من عمل، ولكنه سبحانه وتعالى قد تاب عليهم، كما دلت على ذلك الآية التى تقول: ﴿لقد تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ [الآية: ١١٧ من هذه السورة الكريمة].

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾.

وفى سبب نزول هذه الآية الكريمة:

ـ قال الواحدى: قال المفسرون: إنّ بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبنى مسجدا ونبعث إلى النبى ﷺ يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد إخواننا، ويصلى فيه أبو عامر [1] إذا قدم من الشام، فأتوا النبى ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجدا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة، ونحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة، فقال النبى ﷺ: «إنى على سفر وحال شغل، فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه» فلما انصرف النبى ﷺ من تبوك أتوه وقد فرغوا منه، وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد، فدعا النبى ﷺ بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن، وأخبر الله عز وجل خبر مسجد الضرار، وما هَمُّوا به، فدعا رسول الله ﷺ؛ مالك بن الدخشم، ومعن بن عدى وعامر بن يشكر والوحشى قاتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، فخرجوا، وانطلق مالك وأخذ سفعا من النخل فأشعل فيه نارا، ثم دخلوا المسجد وفيه أهله فحرّقوه وهدموه، وتفرق عنه أهله.

وأمر النبى ﷺ أن يتخذ ذلك المكان كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة.

---

(١) كان أبو عامر قد تنصر فى الجاهلية ولبس المسوح، وأنكر دين الحنيفية لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعاداه. وسماه النبى ﷺ: أبا عامر الفاسق. وخرج أبو عامر إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لى مسجدا، فإنى ذاهب إلى قيصر فآتى بجند الروم، فأُخرِج محمدا وأصحابه. فبنوا له مسجدا إلى جنب مسجد قباء. وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلا:

* حزام بن خالد ـ ومن داره أخرج المسجد ـ وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعباد بن حنيف، وحارثة بن عامر، وابناه: مجمع بن حارثة، وزيد بن حارثة، ونبتل بن حارث، وبجاد بن عمران وهو من بنى ضبيعة، ووديعة بن ثابت.

ومات أبو عامر بالشام فاشلا وحيدا غريبا.

- وقد وصف الله تعالى هذا المسجد بأربع صفات هى:

* أنه ضرار أى المحاولة إلحاق الضرر بالمسلمين.

* وأنه يراد به ويمن فيه الكفر بالنبى ﷺ وبما جاء به.

* وأنه للتفريق بين المؤمنين.

* وأنه بنى انتظارا لمن حارب الله ورسوله - وهو أبو عامر الفاسق - الذى كان حربا على الله ورسوله، وعونا لكل من حاربه فى معركة أحد، ومعركة الخندق ولكن الله أخزاه.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾.

أى: حلف الذين بنوه ما أرادوا ببنائه إلا خيرا ورفقا بالناس وهذا شأن المنافقين يحلفون على ما يعلمون أنهم كاذبون فيه.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أى: كاذبون فى دعواهم وفى حلفهم وفيما قصدوا ببنائه، فأطلع رسوله على نيتهم ومقصدهم وكشفهم وفضح نفاقهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ...﴾

نهى له ﷺ -والأمة له تبع فى هذا النهى- نهاه عن القيام فيه أبدا، لأنه مسجد الضرار.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾

- قال بعض المفسرين: المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم جاء فيه النبى ﷺ إلى المدنية هو: مسجد قباء.

وهذا هو الأصح والأنسب من غيره من الأقوال، لنزول هذه الآية الكريمة فى ذلك، وكان رسول الله ﷺ يزوره ماشيًا وراكبا.

- وقال جماعة من العلماء: هو مسجد الرسول ﷺ.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾.

هؤلاء هم الأنصار وأصحاب مسجد قباء، وكانوا يتطهرون بالغسل بالماء بعد

الاستجمار، أو بدون الاستجمار.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

أى: المتطهرين بالماء من النجاسة والقذر.

وقال أبو العالية: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب.

وقال الأعمش: التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

والمعنى: لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل.

أى لا يستوى هذا وذاك ومن أجل ذلك نُهى الرسول ﷺ عن الصلاة فيه، فهذا أسس بنيانه على التقوى وذاك أقيم بنيانه على حرف جُرف منهار، فانهار ببناته فى نار جهنم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أى: الذين بنوا مسجد الضرار، وغيرهم من الظالمين.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والمعنى: أن سوء عاقبة من بنوا مسجد الضرار ملائمة لسوء الباعث على بنائه.

ومن سوء عاقبتهم فى الدنيا أن الرسول ﷺ لم يصل فيه ونهى المسلمين عن الصلاة فيه، ثم أمر بهدمه وإحراقه.

ومن سواء عاقبتهم أن امتلات بسببه قلوبهم بالريب والشك والنفاق، وأن قلوبهم سوف تستمر على هذا النفاق إلى أن يموتوا، أو تنقطع قلوبهم عنهم وما هى بمتقطعة، ولكنه استهزاء بهم وبما عملوا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

أى عليم بأعمال خلقه الصالح منها وغيره والخالص منها وسواه وحكيم في مجازاتهم عنها فى الدنيا والآخرة، فقد جعل الله هذا البناء سببا لحسرة المنافقين الذين بنوه

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا وعبرًا تعينهم على فقه الحياة الدنيا، وعلى فقه الأعمال التى ترضى الله تعالى عنهم ليفوزوا بالسعادة فى الآخرة، ويتعملون منها القيم الخلقية الفاضلة التى طالب بها الإسلام الناس، والقيم الخلقية الرازلة التى نهى عنها الإسلام، وتلك أبلغ دروس لهم، ومن تلك الدروس ما نشير إليه فيما يلى:

أولا:

يتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿... وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾ ما يلى:

١ ـ أن القاعدة القوية الركينة للإسلام من الرجال هم طائفة السابقين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

ـ وإنما كانوا قاعدة قوية لأنهم الذين تحملوا أعباء الدخول فى الإسلام من يوم بلغهم، فتعرضوا بسبب ذلك لغضب المشركين والكفار من ذويهم ومن غيرهم وتحملوا من العنت والتعذيب شيئًا كثيرا.

* وإذا كان السابقون الأولون من المهاجرين قد لاقَوْا من العنت والتحدى فى مكة ما هو معروف فى كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى، فإن السابقين الأولين من الأنصار قد لاقَوْا من تبعات مكر اليهود وإضمارهم الشر لهم ـ وكان لليهود وجود آنذاك ـ ما كان يسىء إليهم من اتهام النبى ﷺ والدين الذى جاء به، وما كان يؤذى شعورهم وينغص عليهم ـ وبخاصة أصحاب بيعتى العقبة الأولى والثانية منهم.

ـ وعلى المسلمين إن أرادوا لأنفسهم الخير أن يعكفوا على قراءة تاريخ هؤلاء السابقين من المهاجرين والأنصار، ليعلموا قدر الصلابة الذى كان عليه أسلافهم فى بيعتهم ومدى التحمل الذى تحملوه، ليفيدوا منه فقها لدينهم، وتقربا إلى الله تعالى.

٢ ـ ولأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم القاعدة الصلبة فى الثبات

على الإسلام وعلى الحق وعلى الجهاد فى سبيل الله والإنفاق فيما أوجب، والتضحية فى سبيل ذلك بالمال والجهد والوقت والنفس، فإن مكانتهم عند المسلمين يجب أن تكون وأن تظل أعلى مكانة، وأن ينالوا من المسلمين فى كل عصر ومصر مزيدا من التوقير والاحترام بالترضى عليهم والثقة فيهم وفيما بلغوا عن رسول الله ﷺ، مع التقدير اللازم لجهادهم فى سبيل الله ولما تحملوا من أعباء من أجل هذا الدين، ليجعلوهم أمثلة ونماذج تحتذى أمام أعينهم وأعين أبنائهم [1].

* ولئن أُخْمِلَتْ سير الصحابة رضى الله عنهم فى مناهج التعليم فى معظم بلدان العالم الإسلامى، لأنّ هذه المناهج قد وضعت بتوجيه من اليهود والصليبيين المتسترين فى أردية علماء المناهج فى الغرب والشرق، أو وضعت بأيدى العلمانيين الذين لا يؤمنون بدين، فإنّ الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية والتربويين المسلمين عليهم أن يطالبوا بأن تأخذ سير الصحابة مكانها فى مناهج التعليم وفى وسائل الإعلام وفى الصحف والمجلات والكتب والدراسات، فهذا واجبهم لكى تستعيد الأمة المسلمة ثقتها فى تاريخها وفى رجالها وفى أولئك الصحابة الكرام الذين نقلوا إلينا هذا الدين.

٣ ـ وأن التابعين لهؤلاء الصحابة قد تحملوا مثلهم، وعانوا ربما بأكثر مما يتصور بعض الناس، حيث اتسعت رقعة الإسلام، وزاد عدد الداخلين فيه من أهل الثقافات والحضارات الأخرى، فأصبح هؤلاء التابعون بإحسان منارات العلم والمعرفة فى حواضر العالم الإسلامى التى زخرت بالعلم وحلقاته والعلماء والمتعلمين مثل: المدينة المنورة، ومكة المكرمة، ودمشق وبغداد والكوفة والبصرة، ومصر، واليمن، وخراسان وواسط، وغيرها من الحواضر الإسلامية.

* إن هؤلاء التابعين منهم: فقهاء المدينة السبعة، ومنهم الزهاد الثمانية، ومنهم العلماء والحكماء والمجاهدون فى سبيل الله والعاملون على نشر دعوة الإسلام فى الناس والآفاق

---

(١) أنصح بقراءة كتاب حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى فهو من أجمع هذه الكتب وأغناها بمواقف الصحابة إزاء القيم والحياة والأحياء

فهم أهل لكل الاحترام والتوقير، والاهتمام بدراسة حياتهم والاستفادة من مواقفهم[1].

* وقد كان جزاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان أن رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعدلهم جنات تجرى تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم.

٤ ـ وأن المجتمع المسلم على عهد رسول الله ﷺ كان حافلا بمن دخلوا فى دين الإسلام أفواجًا بعد أن جاء نصر الله والفتح، فكانوا أنواعا وأصنافا يتفاوتون فى الإيمان والإسلام، ولا يستطيعون أن يكونوا كالصحابة والتابعين من السابقين الأولين، إلا فى القليل.

* وكان من الضرورى توضيح أحكام التعامل مع هؤلاء جميعا؛ فجاءت هذه الآيات الكريمة لتوضح لكل طائفة منهم مكانها ومكانتها وأسلوب التعامل معها فى الدنيا، وتوضح مصير كل منها فى الآخرة.

* ومن ورود هذا فى القرآن الكريم يتعلم المسلمون اليوم أن المجتمع المسلم فى أى زمان وفى أى مكان لا يستغرب أن تكون فيه مثل هذه الأصناف من الناس، بل أكثر منها، ومن هنا يعرفون كيفية التعامل مع هذه الأصناف جميعا.

٥ ـ وأنّ الزكاة المفروضة، وكل صدقة ندب إليها الشرع يقدمها المسلم لوجه الله تعالى، فإنه يجنى من ورائها فوائد عديدة منها:

ـ الاستجابة لأمر الله ومنهجه ونظامه، والدخول فى طاعته، وتلك أكبر الفوائد، بل أهمها وأجداها.

---

(١) أنصح فى هذا المجال بقراءة الكتب التالية:
ـ صفة الصفوة لابن الجوزى.
ـ وسير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى.
ـ وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصفهانى.
ـ وذيل المذيَّل فى تاريخ الصحابة والتابعين لابن جرير الطبرى.
ـ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى.
ـ ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعوى. وكلها مطبوع.

- وأنه حين يقدم هذه الصدقات إنما يطهر نفسه من الآثام والمعاصى، وفى ذلك إرضاء لله تعالى.

- وأن صدقته هذه عندما يقدمها لمستحقيها، إنما تقع فى يد الله تعالى، وحسب المتصدق بذلك شرفا وحسن جزاء من الله.

- وأنه يسهم فى دفع الحاجة عن المحتاجين، وإذا نُقّى المجتمع من المحتاجين فإن الناس يعيشون فيه أمنا وطمأنينة.

٦ - وأن الله تعالى رقيب على أعمال الناس، وأن الرسول ﷺ قد بلّغ الناس بما يجب عليهم أن يقوموا به من أعمال صالحة تقربهم إلى الله تعالى وتُرْضيه عنهم فى الدنيا والآخرة، وأن المؤمنين هم شهداء الله تعالى على الناس، يدلون بشهادتهم أمام الله يوم القيامة.

وأن المصير إلى الله، والحساب أمامه، والجزاء على يديه يوم القيامة.

وأن قبول توبة من تاب موكول إلى الله تعالى دون أى قيد.

* ومعنى ذلك أن يتعلم المسلمون هذا الدرس، فلا يقوم أحد منهم بعمل إلا وهو يعلم على اليقين أن الله تعالى يراى ويراقبه، وأن رسوله ﷺ قد بلغه عما يجوز وما لا يجوز من الأعمال وأن المسلمين سوف يشهدون عليه يوم القيامة فضلا عن شهادة نفسه على نفسه قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

ثانيا:

ويتعلم المسلمون من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ...﴾ الآيات: إلى قوله تعالى: ﴿...وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ما يلى:

١ - أن أعداء الإسلام والمسلمين لا يكفون عن الكيد له، الكيد المادى بالحرب والقتال، والكيد المعنوى بالتشويه والإساءة، والحصار الاقتصادى والسياسى والجوى - كما فعلت أمريكا ضد العراق والسودان -!!!

ـ وأن هؤلاء الأعداء لهم وجود فى الحاضر، ولابد أن يكون لهم وجود فى المستقبل.

وأن هؤلاء جميعا يحاولون ما وسعهم أن يبنوا مساجد الضرار، كفرا وتفريقا بين المؤمنين وانتظارا لعدو كاسح يحارب الله ورسوله، وأنَّ بُنَاةَ مساجد الضرار قد كثروا، وقد أحكموا خططهم، وانطلقوا يشوهون القرآن والسنة وسيرة النبى ﷺ وكبار الصحابة رضوان الله عليهم وكل مُصْلح من المسلمين، وكل حركة إسلامية هنا أو هناك، فضلا عن الحروب الضارية للمسلمين فى كثير من بقاع الأرض.

* وإنّ قصة مسجد الضرار لتنبه وتحذر من بناة المؤسسات التى تضُرُّ بالإسلام والمسلمين وهى كثيرة، ومن عشرات بل مئات ممن يشبهون أبا عامر الفاسق الذى يُعِدُّ لأن يقضى على الإسلام والمسلمين.

فهل يتنبه المسلمون ويحذروا؟ ما على الدعاة إلى الله إلا البلاغ، وقد بلغنا، فاللهم فاشهد.

٢ ـ وأن نظراء أبى عامر الفاسق اليوم لم يعودوا أفرادا فقط، وإنما أصبحوا حكومات حينًا، وجيوشًا تخرج على أمر حكوماتها حينا [١]، وإعلاميين يسيطرون على وسائل الإعلام وينفثون فيها كل الشر والحقد على الإسلام والمسلمين، ويهددون ويتوعدون، ونظامًا عالميًا باطنيًا يترصد كل حكومة تعلن أنها ستأخذ بالإسلام نظاما للحكم ومنهجا للحياة.

كل هؤلاء هم أبو عامر الفاسق فى هذا العصر الذى نعيش فيه، مع فارق لابد أن ينبه إليه وهو أن أبا عامر القديم كان منافقا خائفا هاربا فى مكان بعيد يحيك منه المؤامرات والدسائس.

أما أبو عامر الفاسق الحديث فإنه وقح يعلن فى صراحة أنه يتحدى الإسلام

---

(١) أين الديموقراطية التى يزعمون من سيطرة بعض الجيوش على رؤساء الحكومات المنتخبين فى أكثر من بلد مسلم؟ حتى إن رئيس الحكومة يقضى مدة حكومته خائفا يترقب متى يخلعه الجيش!!!
ولما ذا لا يكون رئيس الجيش هو رئيس الحكومة ولا داعى للانتخابات؟ لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال بأكثر من تصورهم أن الانتخابات إطار جميل لديموقراطية لا وجود لها فإن وجدت فهى زائفة!!! والله من ورائهم محيط.

والمسلمين وأى نظام حكم إسلامى، ولا يقاطع المسلمون مساجده ومؤسساته!!!

ومؤسسات أبى عامر الفاسق فى عصرنا هذا لم تعد مساجد، إذ ماله ومالها؟ وإنما أضحت نِحَلاً وأهواء وجماعات وجمعيات وأندية، وهيئات محلية أو دولية تخوف المسلمين وتنذرهم بالويل والثبور وقبائح الأمور.

ـ إنّ من مؤسسات أبى عامر الفاسق اليوم تيارات عالمية تحارب الإسلام والمسلمين، وتتعقب المسلمين فى كل مكان تحاربهم وتقتل فيهم الانتماء للإسلام أو تدفنهم أحياء فى وحشية لا تكون إلا من أبى عامر الفاسق اليوم الذى يرتدى زى الصهيونية وملابس أهل الصرب والروس ليمارس التطهير العرقى للمسلمين دون أن يقاطعه المسلمون فضلا عن العالم المتحضر ـ كما يزعم ـ وأمثلة ذلك فى البوسنة والهرسك وكرواتيا وكوسوفو والشيشان، وإسرائيل، كما كان بالأمس فى الأندلس، وكما كان أول أمس فى الشام ومصر تحت راية الحروب الصليبية

- وإن واجب المسلمين فى كل عصر أن يعرفوا مساجد الضرار ومؤسساته وأن يقاطعوها، وألا ينخدعوا فى تسمية تطلق على مساجد الضرار ومؤسساته، لأنهم يخفون الوجه الحقيقى بالتزييف والتزوير، فإن الوجه الحقيقى كالح وقبيح.

ولن يعتصم المسلمون ضد مساجد الضرار ومؤسساته المزيفة بشىء أمثل وأجدى فى مواجهة مساجد الضرار من التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٤ ـ ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى يبشر المسلمين المخلصين المتمسكين بدينهم ومنهجه ونظامه بأنه سبحانه وتعالى سوف يخيب مساعى أصحاب مساجد الضرار ومؤسساته لأنهم يقيمونها على شفا جُرُف هارٍ، فلابد أن ينهار بهم فى نار جهنم فى الدنيا والآخر.

ولا يُغَرَّن أحدُ المسلمين بأن أصحاب مساجد الضرار ومؤسساته قد تطاولوا فى البنيان، فإن سنة الله لا تتخلف ووعده لا يتبدل وقد وعد الله المؤمنين بنصر الله وبالتمكين لهم فى الأرض، ولكن التوقيت لا يعلمه إلا الله، غير أنَّه آت لا محالة.

ولن يكف بناة مساجد الضرار ومؤسساته عن عدائهم للإسلام والمسلمين إلى أن يلقوا الله تعالى، فيعاقبهم هناك العقاب الشديد، وربما جمع لهم بين عقاب الآخرة،

وعقاب الدنياب بالهزيمة والانتكاس؛ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

إنه سبحانه العليم بكل ما يصنع أعداؤه الحكيم فى الصبر عليهم أو أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية والتربويون من هذه الآيات الكريمة دروسا عظيمة النفع فى مجالات عملهم التى يمارسون، فهى تعلمهم كيف يتسع مدى الدعوة إلى الله، وينتشر ضوؤها فى أوسع مدى، وكيف يتعمق فقه الحركة بالإسلام فى الناس والآفاق، ويعبر عن نفسه في منطلقات جديدة، وكيف تتبلور قيم التربية الإسلامية وتصبح أكثر فاعلية فى الناس ، وأقوى فى جذبهم إليها والتزامهم بها.

وسوف نشير إلى بعض هذه الدروس فيما يلى:

أولا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿... وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾ ما يلى:

١ ـ أن المكانة الكبرى التى حظى بها السابقون الأولون من:

ـ المهاجرين الذين هجروا ديارهم وأوطانهم من أجل دينهم وهجروا ما نهى الله عنه طاعة لله ورسوله وحبًا لهما.

ـ والأنصار الذين نصروا الرسول ﷺ ونصروا الإسلام وآووا المسلمين، فجاهدوا من أجل ذلك مخلصين فى جهادهم من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا.

ـ والذين اتبعوهم بإحسان، فى هجرة ما نهى الله ـ إذ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ـ وفى نصر الإسلام والمسلمين، وفى حمل هذا الدين دعوة وحركة ومنهجًا ونظاما والانطلاق به فى الناس وفى الآفاق.

* وأنَّ هذه الطوائف الثلاثة المرضيُّ عنها من الله تعـالى، ليس معناه أن طريق السبق قد أغلق، ولا أن باب الهجرة قد أوصد، ولا أن ميادين نصر الله ورسوله ودينه ومنهجه قد أقفرت من المجاهدين بعد أولئك السابقين.

وإنما يظل طريق السبق والتسـابق فيما يرضى الله مـفتوحًا يتنافس فيـه المتنافسون فى العمل الصـالح الخالص لوجه الله تعالى، ويظل باب الهـجرة مفتـوحا لكل من أراد أن يهجر مـا نهى الله عنه وتبقى ميادين نـصر الله ورسوله ودينه ونظامه عامـرة بالمجاهدين الذين اتبعوا هؤلاء الأسلاف بإحسان.

* وهذا مجال خصيب للدعاة إلى الله يشجـعون فيه المدعويين على السبق فى أبواب الهجرة والجهاد ونصر دين الله ودعوته ونظامه ومنهجه.

وما أكثـر ميادين العـمل من أجل الإسلام، وليس كالدعاة إلى الله من يعـرف تعدد هذه الميادين وكثرتها الكاثرة، المرتبطة فى تعددها بتعدد مرافق الحياة نفسها.

٢ - وأن على الدعاة إلى الله أنْ يدركـوا أنّ فى صفوف المدعـوين بالضرورة طوائف عديدة من الذين يقصرون فى حق الله تعـالى فلا يؤدون ما أوجب الله عليهم كله، ولا ينتهـون عن كل ما نهى الله عنه، وأنَّ فى صـفوف العاملين من أجل الإسـلام عددا لم تَصْفُ نواياهم وتتجه بالعمل إلى الله وحده، وإنما يشوب عمل بعضهم رغبات وأهداف خاصة، فمنهم من يرى فى الانخراط فى العـمل من أجل الإسلام فرصة لنفع مادى أو معنوى.

تلك حقيـقة لا يجادل فيـها إلا القليل، إنها من مسلمـات المعرفة الحقـيقية لطبـيعة الإنسان.

* وعلى الدعاة إلى الله والعـاملين فى الحركة الإسلامـية أن يعملوا ما وسـعهم من أجل إزالة هذه الشوائب، وتوجيه هذه المنافع نحو مـا يرضى الله تعالى، فيصبح عملهم وجهادهم كله خالصا لله تعالى، طلبا لمرضاته.

* وفى صفوف العاملين من أجل الإسلام طائفة أخـرى، انضموا إلى الصفوف رغبة فى قضـاء حوائج لهم، أو مـصالح دنيوية عن طريق القـادرين والمعروفين فى صـفوف العاملين من أجل الإسلام!!!

* ومن المنضمين إلى الصفوف من لا يزالون يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا!!!

* ومنهم من يجد في انضمامه للصفوف مأمنا له من حاجة مادية أو معنوية، فيجد فى وجوده فى الصف غطاء له يستر أمره ويبدد مخاوفه، إن لم يجد فى انضمامه إذهابا لهذه المخاوف.

- ومعنى ذلك أن مهمة الدعاة إلى الله غير يسيرة؛ إذ هم مطالبون بأن يعدلوا كل هذه الانحرافات ويوجهوها إلى مسارها الصحيح المتجه إلى الله تعالى.

يقوم الدعاة إلى الله بذلك دون أن يخدشوا حياء، أو يجابهوا أحدا بعيوبه فضلا عن أن يحاسبوه أو يواجهوه بضيق وعنف، فهم ورثة النبى ﷺ فى الرأفة والرحمة كما ورثوه فى العلم والمعرفة.

وربما كانت هذه المهمة للدعاة إلى الله وقادة العمل في التحرك بالإسلام فى الناس والآفاق من أشق الأعمال وأكثرها حاجة إلى التأنى والصبر وحب الناس وحب الخير لهم، لكنّ هذا يُعَدُّ فى صالحهم، لأن العمل يكون ثوابه على قدر المشقة فيه.

٣ - وأن الزكاة المفروضة وسائر صدقات التطوع هما معًا العلاج الأمثل - لأن الله تعالى هو الذى اختاره - لمشكلات الفقراء والمعوزين، وأن هذا الأسلوب الذى يعلن أن فى المال حقا لله هو حق السائل والمحروم، وأن فى الزكاة المفروضة حقًا لثمانية أصناف من الناس، هذا الأسلوب هو الذى يحفظ على الفقراء كرامتهم ويحافظ على إنسانيتهم، ويشعرهم بأنهم أصحاب حقوق وصلت إليهم حقوقهم، لا أصحاب يد سفلى تمتد مستجدية اليد العليا.

* وأن نظام الزكاة المفروضة والصدقات هو العلاج لما قد يتولد فى نفوس الفقراء والمعوزين من حسد وحقد وكراهية تولد رغبة فى العنف والانتقام والجريمة.

* وأن هذا النظام خير وأكرم من أنظمة المعونات الاجتماعية وغيرها، ما دام يحفظ على الإنسان كرامته وحقوقه على الأغنياء وعلى كل ذى قدرة على العطاء.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس، أنهم مهما وجدوا من تشريعات وضعها الناس للناس فى علاج مشكلات الفقر، فإنهم لن يجدوا عند الأثرياء رغبة صادقة فى الالتزام بهذه التشريعات الوضعية، لأن قصارى هذا الالتزام هو التخلص من عقوبة

مدنية لن تزيد على غرامة مالية، أمـا الالتزام بمنهج الله فى علاج مشكلات الفقر، فإنه يحقق للملتزم به عددا من الفوائد:

- فهو أولا طاعة لله وتقرب منه.

- وهو سبب فى الحصول على ثواب مضاعف ابتـداء من أن الحسنة بعشر أمثالها إلى أن تصبح بسبعمائة ضعف أو أكثر.

- وهو التزام ينجى من عذاب النار يوم القيامة.

- وهو يحـقق الراحـة النفسـيـة للمعطى إذ يـشعـر أنه أسهـم فى دفع الحاجـة عن المحتاجين.

- وهو يسل أحقاد الناس وما يضمرون من شر وجريمة أما الالتزام بأى قانون وضعى فدون ذلك بكثير، إذ لا علاقة له بالإيمان بالله مـلائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا علاقة له بعبادة الله والحصول بهذه العبادة على ثوابه ورضاه وجنته والخلود فيها.

٤ ـ وأن الزكاة والصدقة المندوبة، ليس مـحلها المال وحده، وإنما يجب أن تكون فى كل ما من شأنه أن يترجم أو يتحول إلى مال.

- فهناك الوقت فالأصل أن يكون فيه زكاة مندوبة.

- وهناك الجهد ففيه زكاة مندوبة كذلك.

- وهناك الجاه والمكانة ففيهما صدقة مندوبة أيضا.

- وهناك العلم ففيه زكاة أيضا.

- وهناك سائر الـنعم التى أنعم الله بها على الإنسـان ففى كل منهـا زكاة، ومن أهم هذه النعم السمع والبصر والكلام والمشى والحركة وغيرها، ففى كل ذلك زكاة ندب الله إليها من أنعم عليه بشىء من تلك النعم.

وزكاة كل تـلك النعم تعنى أن تجعل الآخـر يشاركك فـائدتها فـأنت عندئذ تزكيـها وتزكى نفسـك وتطهرها من الآثام والمعاصى.

* إن هذا هو فقه تشريع الزكاة، وليس مجـرد زكاة المال والعقار، والزروع والثمار، والدواب والأنعام.

* وقضية أخرى تثار فى مقدار الزكاة المفروضة، وهى أن الزكاة الواجبة فى النصاب من كل نوع من أنواع الزكـاة هى الحد الأدنى الذى لا يجـوز لأحد أن ينقص منـه، أما الحد الأعلى للإعطاء فمتروك للمزكى ومدى رغبته فى رضى الله تعالى.

والصدقة المنـدوبة لانصاب لها ولا تحديد لمقـدار يجب أن يخرج منها، إنها مـتروكة عمدا ليتنافس فى ذلك المتنافسون فى فعل الخير، وفى دفع الحاجة عن المحتاجين.

ـ ولنضرب بعض الأمـثلة على الزكاة التى يقـدمها الإنسان من وقـته وجهـده وماله وعلمه وجاهه وأى نعمة أنعم الله بها عليه مما نؤكد به اتساع مفهوم الصدقة فى الإسلام داعمين ما نقـول بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة رغـبة منا فى تأصيل هذا المفهوم.

ففى مجال التصدق بجزء من الوقت ـ مثلاـ:

ـ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ـ وقال جل شـأنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

ـ وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله عـز وجل يقول يوم القـيـامة: يا ابن آدم: مـرضتُ فلم تعـدنى، قال: يا رب وكـيف أعودك؟ وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبـدى فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده.

يا ابن آدم: اسـتطعـمتك فـلم تطعمنـى، قال يا رب وكـيف أطعـمك؟ وأنت رب العالمين؟ قـال: أما علمت أنه استطعـمك عبدى فـلان فلم تطعمـه؟ أما علمت أنك لو أطعمـته لوجدت ذلك عندى. يا ابن آدم: اسـتسقـيتك فلم تسقنى، قـال يا رب كيف اسقـيك؟ وأنت رب العالمين قال استـسقاك عبـدى فلان فلم تسقـه، أما إنك لوسقيـته لوجدت ذلك عندى».

ـ وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نفَّس عن مؤمن كربة من كـرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القـيامة، ومَنْ

يسَّر على معسر، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

- وروى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامَى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس:

* تعدل بين الاثنين صدقة.

* وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة.

* والكلمة الطيبة صدقة.

* وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة.

* وتميط الأذى عن الطريق صدقة».

لقد اتسع مفهوم الصدقة فى هذه النصوص الإسلامية ليشمل: مثقال ذرة من خير، وما يفعله الإنسان من خير. وعيادة المريض وإطعام الجائع وسقى العطشان، وتنفيس الكربة عن المسلم، والتيسير على المعسر، وستر المسلم، وأى عون يقدمه الإنسان لأخيه المسلم، ولو أن يلقى أخاه بوجه طلق، وليشمل العدل بين اثنين ومعونة كل عاجز، والكلمة الطيبة والخطوة نحو المسجد أو نحو فعل أى خير، وإماطة الأذى عن الطريق.

- ويستطيع الدعاة إلى الله أن يرشدوا الناس إلى هذا المفهوم الواسع للصدقة لما أوضحته النصوص الإسلامية، فدخل فى الصدقة التصدق بالوقت والجهد والجاه والعلم وكل نعمة أنعمها الله على الإنسان.

٥ - وعلى الدعاة إلى الله أن يوقظوا فى ضمائرهم وضمائر من يدعونهم الإحساس بالرغبة فى حساب النفس، وأن تكون لهم القدرة على هذا الحساب فإن فى ذلك الخير لهم كل الخير، لأن الله تعالى محاسب كل نفس على ما قدمت، وخير للإنسان أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، تجاوبا مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩٤] فلينظر كل مسلم ماذا يحب أن يراه

الله عليه من عمل، وهل هو استجباب لما أمره به الرسول ﷺ ونهاه عنه، وماذا يجب أن يراه عليه إخوانه المؤمنون ليشهدوا له أو عليه أمام الله تعالى؟

وليس مستغربا أن يرى الناس أعمال الناس ويشهدوا عليهم فقد روى أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان» وروى الإمام البخارى بسنده قال: قالت عائشة رضى الله عنها: «إذا أعجبك حسن عمل امرىء مسلم فقل: «اعلموا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يُخْتَم له، فإن العامل يعمل زمانا من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملا سيئا، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملا صالحا، وإذا أراد الله بعبده خيرا استعمله قبل موته» قالوا يا رسول الله: وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه».

ثانيا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية والتربويون من قوله الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ. . .﴾ الآيات: إلى قوله تعالى: ﴿. . . وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ما يلى:

١ - أن طائفة من الناس الذين يعادون الإسلام والمسلمين فى كل مجتمع مسلم فى كل زمان ومكان، هذه الطائفة تتخذ من الوسائل الماكرة الخبيثة فى حرب الإسلام والمسلمين ما قد يخفى على بعض المسلمين، فتقيم هذه الطائفة مسجدا أو مركزا أو مذهبا أو فكرا أو ثقافة أو فنًا أو أدبا أو إبداعا فى مجال من مجالاته ويكون غرضها من هذا غرض بناة مسجد الضرار، لأنهم يريدون بذلك الإضرار بالمسلمين وإن بدا فى ظاهره لصالح المسلمين.

* وعلى الدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام أن يدركوا أن قديم تاريخ المسلمين كوسيطه كحديثه لابد أن يوجد فيه من يحاولون بناء مسجد الضرار أو

مؤسسات الضرار تلك سنة لم تتخلف فى حرب الإسلام والمسلمين، ولذلك فليس للمسلمين أن يحزنوا أو ييأسوا عندما تتكاثر من حولهم مساجد الضرار ومؤسساته، وإنما عليهم أن يقابلوا ذلك بالأسلوب الذى يبطل مفعوله أو أكثر مفعوله، وألا يسهموا بسذاجة بعضهم فى أن تؤدى مؤسسات الضرار وظائفها كاملة فى الإضرار بالمسلمين.

وهذا السذاجة تتمثل فى مقابلة هذه المساجد وتلك المؤسسات بالعصبية وإصدار الأحكام والكلمات الجزافية المليئة بالمبالغة والتهديد والوعيد فضلا عن استعمال العنف والتورط فى نتائجه، فليس يَسُرُّ أصحاب مساجد الضرار ومؤسساته شىء مثل أنه يفقد المسلمون أعصابهم وأن يتصرفوا بتهور وانفعال.

وفى المسلمين من هؤلاء البسطاء الساذجين عدد ليس قليلا.

* وواجب الدعاة إلى الله أن ينبهوا إلى ضرورة التعامل مع هذه المؤسسات الضرارية بالهدوء والدراسة ومعرفة أبعادها وأهدافها، ثم يفكرون ويتدبرون ويتشاورون كيف يحولون بين هذه المؤسسات وبين أن تحقق أهدافها، دون صياح أو صراخ أو عصبية وإنما بكياسة المؤمن وفطنته واستعانته بالله على أمره كله، وما خاب من استشار، واستخار الله تعالى.

وقول الله تعالى لنبيه عن مسجد الضرار: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ يوضح لنا أن بداية الحل كانت فكرا ورفضا لإقراره، فلما ظهر شر أبى عامر الفاسق ومن معه وتبينت مقاصدهم، وكان المسلمون قادرين عليهم أمر الرسول ﷺ بالقضاء على مسجد الضرار.

فإن قدر المسلمون على ذلك دون أن يؤدى هذا إلى فتنة ولا إلى محنة تقع بالمسلمين فليفعلوها وإلا فحسبهم أن يعملوا فى هدوء على إفشال هذه المساجد الضرارية وتلك المؤسسات.

* ومهما تذرع بناة مساجد الضرار ومؤسساته به من ذرائع ومهما حلفوا من أيمان أنهم لا يريدون بها إلا الخير، فقديما حلف أسلافهم فكذبهم الله تعالى وشهد على كذبهم، وما اختلف خَلَفُ أعداء الإسلام المسلمين عن سلفهم إلا فى القشور والمظاهر أما اللباب والجوهر فواحد.

٢ ـ وأن المساجد والمراكز والمؤسسات التى أقيمت على تقوى من الله ورغبة فى

رضوانه من أول يوم، إذ أسسها رجال مؤمنون متطهرون من الخبث والمعاصى؛ هى الجديرة بأن يقبل المسلمون عليها ويدعموها بما استطاعوا من جهد ووقت ومال وعمل، ذلك أن الفارق كبير بين ما أسس على التقوى من أول يوم، وما أسس على شفا جرف هار، إذ لابد أن ينهار به فى نار جهنم، والله سبحانه من وراء هؤلاء الأعداء لا يهديهم لأنهم ظلموا وهو سبحانه لا يهدى الظالمين، فهم ظلموا أنفسهم بعصيانهم الله ورسوله وعملهم على حرب الإسلام والمسلمين وظلموا غيرهم من الناس بما يضمرون وما يعملون من شر وضلال وإضلال.

إنهم يضلون المسلمين بمساجد الضرار ومؤسساته ومراكزه وثقافته ومذاهبه وكتبه ومقالاته، وما يقدمونه فى وسائل إعلامهم.

٣ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن أصحاب مساجد الضرار ومؤسساته ومراكزه مستمرون فى عملهم دون يأس لأن الذى يحركهم إلى ذلك شيطان، والشيطان لا ييأس ولا يمل الوسوسة بالشر.

وسيظل أصحاب مساجدا الضرار ومؤسساته هكذا فى عداء الإسلام والمسلمين إلى أن تنتهى حياتهم الدنيا بتقطع قلوبهم، ثم يتوجهون مرغمين إلى رب العالمين ليحاسبهم ويصليهم العذاب الأليم.

* وسيظل الدعاة إلى الله إلى يوم الدين عاملين على إبطال مساجد الضرار ومؤسساته دون يأس، لأن اليأس لا يعرف الطريق إلى قلوب المؤمنين، وقد أوصى يعقوب عليه السلام أبناءه أن يبحثوا عن أخيهم يوسف وأخيه قائلا لهم: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إن الدعاة إلى الله لا يعرفون اليأس ولا القنوط، وهم على يقين من نصر الله، مهما تطاولت الأوقات، ومهما استبد الأعداء وأكثروا من بناء مساجد الضرار!!!

١٢ ـ الآيات الكريمة من الآية الحادية عشر بعد المائة

إلى الآية السادسة عشر بعد المائة

فضل الجهاد في سبيل الله، وصفات المجاهدين ووجوب البراءة من المشركين

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾ .

تفسير الآيات الكريمة وشرحها

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن صفقة رابحة عقدها الله تعالى مع المؤمنين بأن يجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم وأن يعطهم على ذلك الجنة وأكد لهم هذه الصفقه بوعد كتبه على نفسه سبحانه وتعالى في التوراة والإنجيل والقرآن ثم أخذت الآيات الكريمة تصف هؤلاء المؤمنين المجاهدين بأحسن الصفات وأحبها إلى الله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ثم تطالب الآيات الكريمة المؤمنين بالتبرؤ من موتى المشركين كما تبرأوا من أحيائهم، فلا يستغفروا لهم مهما كانت درجة قرابتهم بالمؤمنين، وليس في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه عذر لهم يبيح لهم أن يستغفروا لهم كما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه، لأنه عليه السلام ما استغفر له إلا لأنه وعده بذلك كما سنوضح ذلك في شرح الآيات الكريمة.

وقد غفر الله للمؤمنين الذين استغفروا لآبائهم وأمهاتهم من المشركين والمشركات قبل أن تنزل هذه الآية فتحرم هذا الإستغفار.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

- فى سبب نزول هذه الآية الكريمة: قال الواحدى: قال محمد بن كعب القرظى: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا، قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئتَ. فقال: أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟

قال: الجنة.

قالوا: ربح البيع، لا نُقيل ولا نستقيل. فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

- وقال القرطبى فى تفسيره: روى الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فوق كل برّ برًا، حتى يبذل العبدُ دَمَه، فإذا فعل ذلك، فلا برَّ فوقَ ذلك».

- وقال فخر الدين الرازى فى تفسيره: قال الحسن: اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحه، بايع الله بها كل مؤمن، والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل فى هذه البيعة» وقد قال الصادق ﷺ: «ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها».

﴿ وَأَمْوَالَهُم ﴾.

أى الأموال التى ينفقونها فى سبيل الله، وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم اشترى هذه الأموال بالجنة أيضا.

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾.

أى: يجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

والمجاهد إما قاتل لعدوه، وإما مقتول شهيدًا فى سبيل الله، وهو فى الحالين صاحب أحسن حظ وأوفى نصيب من تكريم الله تعالى له. فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمَّن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا

جهاد فى سبيلى وإيمان بى، وتصديق برسلى، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة» الحديث.

وروى الترمذى بسنده عن أبى يحيى خُرَيم بن فاتك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف».

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بأن هذا الوعد كان فى هذه الكتب، وأن الجهاد فى سبيل الله، ومقاتلة أعداء الله أصله من عهد موسى عليه السلام، ثم عيسى عليه السلام ثم محمد ﷺ.

* ففى التوراة جاء ذلك ومعه أحكام الجهاد فى سِفرَين من أسفار التوراة: سِفر التثنية، وسفر يوشع.

* وفى الإنجيل جاء ذلك فى الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل لوقا.

* وفى القرآن الكريم فى كثير من سوره وآياته.

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾.

هذا الاستفهام يعنى تقرير حقيقة هى أنه لا أحد أوفى بعهده من الله عز وجل.

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾.

أى أظهروا السرور بذلك.

وقال الحسن: والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة. ومعنى ذلك أن هذه الصفقة الرابحة يعقدها مع كل مؤمن يجاهد فى سبيله ويدافع عن دينه ومنهجه، ويعمل على نشر دعوته فى الناس، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهى بيعة مستمرة إلى يوم الدين.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

أى: الظَّفَر بالجنة والخلود فيها.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ الآية.

تلك صفات المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة وهى:

ـ ﴿التَّائِبُونَ﴾:

هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله تعالى، إلى الحالة المحمودة فى طاعته سبحانه وتعالى.

ـ ﴿الْعَابِدُونَ﴾:

هم المطيعون لله تعالى الذين يقصدون بطاعته وجهه سبحانه وتعالى. العابدون الله بما شرع لهم من عبادات.

ـ ﴿الْحَامِدُونَ﴾:

هم الراضون بقضاء الله وقدره، الذين يصرفون نعم الله تعالى عليهم فى طاعته عز وجل.

﴿السَّائِحُونَ﴾:

هم الصائمون، وإنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلها من مطعم ومشرب ومنكح، والسياحة من الذهاب والسير، كأن الصائم قد ذهب بصومه وترك شهواته إلى أرض العبادة أو سار إليها. والدليل على أن السائح هو الصائم ما رواه الطبرى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سياحة أمتى الصيام».

* وهناك أقوال أخرى فى معنى السياحة منها:

السائحون هم: المجاهدون فى سبيل الله.

أو هم: المهاجرون من أرض إلى أرض جهادا فى سبيل الله أو فرارا بدينهم.

أو هم: الملازمون للمساجد.

أو هم: المنقطعون للعبادة.

أو هم: المسافرون فى طلب الحديث النبوى، والعلم.

أو هم: المتفكرون فى ملكوت الله تعالى.

وكل هذه المعانى صحيحة لغويا لأن السياحة هى الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء.

ولكن الأرجح الأول وهم: الصائمون.

﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾.

أى: المصلون الصلاة المكتوبة، وغيرها من الصلوات التى يتنفل بها تقربا إلى الله تعالى.

﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

أى: الآمرون بالسُّنَّة النبوية.

أو الآمرون بالإيمان ومفرداته والإسلام وأركانه.

أو: الآمرون بكل خير.

﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾.

أى: الناهون عن الكفر والبدعة.

أو: الناهون عن كل ما يغضب الله تعالى.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾

أى: القائمون بتنفيذ ما أمر الله تعالى، المنتهون عما نهى الله عنه أى الملتزمون بشريعته ومنهجه ونظامه.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أى: المؤمنين الذين بايعوا الله على الجهاد فى سبيله بأموالهم وأنفسهم.

والبشارة إخبار بما يسر، ولا شىء يسر أكثر من إخبارهم بأن لهم الجنة.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾.

قال بعض مفسرى القرآن الكريم: لعل المسلمين لما سمعوا تخيير النبى ﷺ فى الاستغفار للمشركين، ذهبوا ليستغفرون لأهليهم من المشركين طمعا فى أن يغفر الله لهم، فنهى الله النبى ﷺ والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين، بعد أن كان رخَّص فيه للنبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ فأصبح الحكم أنه لا يجوز الاستغفار لهم مهما كانت درجة قرابتهم بالمسلمين.

وقال علماء أسباب نزول القرآن الكريم:

روى مسلم بسنده عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب عم النبى ﷺ جاءه الرسول ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله ابن أمية: يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: هو على ملة عبد المطلب، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عن ذلك» فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

قال العلماء فى التعقيب على هذا: هذا خبر ضعيف.

* وقد تضمنت هذه الآية الكريمة وجوب قطع الموالاة بين المسلمين والمشركين، أحياءً كان المشركون أو أمواتا.

﴿ وما كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . . . ﴾.

- روى الترمذى بسنده عن على رضى الله عنه قال: سمعتُ رجلا يستغفر لأبويه المشركين، فقلتُ له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أليس قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك؟ فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبراهيم لأبيه إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ...﴾ الآية.

قال المفسرون: قد كان والد إبراهيم عليه السلام قد وعد ابنه عليه السلام بأن يؤمن، فكان فى نظر ابنه إبراهيم عليه السلام بمنزلة المؤلفة قلوبهم، فاستغفر له إبراهيم، لعله يخرج عن عبادة الأصنام، ويدخل فى الإيمان، لكنه لم يفعل، فلما تبينَ لإبراهيم عليه السلام أن أباه يعادى الله بكفره تبرأ منه.

* وإبراهيم عليه السلام فى استغفاره لأبيه على هذا النحو الذى أوضحناه، لا يكون عمله هذا حجة لأحد المؤمنين أن يستغفر لمشرك مهما كانت درجة قرابته به.

﴿ إنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حليمٌ﴾

أوَّاه رجَّاع إلى الحق

أو كثير التأوه عند ذكر عذاب الله

حليم: كثير الحلم.

والحلم: رجاحة العقل وثباته، ورصانة وتباعد عن العدوان، وتباعد عن القسوة

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُون ﴾

والمعنى: أن الله تعالى من رحمته بعباده أنه لا يوقع فى قلوبهم الضلالة بعد الهدى حتى يبيّن لهم ما يجب أن يتقوا فعله، فلا يستجيبون ولا يتقون ما حذرهم من فعله، عند ذلك يستحقون الإضلال.

قال القرطبى: فى هذه الآية دليل على أن المعاصى إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سببا إلى الضلالة وسُلَّمًا إلى مجانبة الرشاد والهدى

وقال بعض العلماء. «حتى يبيّن لهم» أى حتى يحتج عليهم بأمره، أو يبين أمر الطاعة والمعصية.

وقال علماء أسباب النزول. لما نزل تحريم الخمر وشدَّد الله فيهما، سأل قوم النبى ﷺ عمَّن مات وهو يشرب الخمر من المسلمين - يوم لم تكن حُرمت هذا التحريم المطلق، فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان الله ليُضل قومًا بعد إذ هداهُم حتى يُبين لهُم مَا يتقون﴾.

﴿ إنَّ الله بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ﴾.

أى عليم بما أمركم به فخالفتم، وبما نهاكم عنه فارتكبتم، فحسابكم على ذلك بعد أن أمر ونهى وبعد أن خالفتم وعصيتم

﴿إنَّ الله لهُ مُلْكُ السَّموات والأَرْض يُحْيي ويُميتُ ﴾

هذه الآية الكريمة - كما قال ابن جرير الطبرى - تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين فى قتال المشركين وملوك الكفر، وأن المؤمنين وهم يقاتلون عليهم أن يثقوا بنصر الله تعالى، فهو مالك السموات والأرض يحيى من يشاء ويميت من يشاء، فما ينبغى أن

يخاف أحدُ الموتَ فى سبيل الله ولا يرهب أعداء الله.

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

قال بعض المفسرين: عندما أمر الله المسلمين بالبراءة من المشركين وقتالهم قال أحدهم: عندما نتقطع تماما عن المشركين، فحينئذ لا يمكننا أن نختلط بآبائنا وأولادنا وإخواننا، لأن كثيرا منهم على الكفر، فلا تعاون بيننا وبينهم ولا تناصر، فأخبرهم الله تعالى بأنه وليهم وناصرهم، فلا يضرهم أن ينقطعوا عن الكفار، فالله حسبهم وهو وليهم ونعم النصير لهم.

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا نافعة وعبرا هادية فى حياتهم، ويعرفون من خلالها صفات المؤمنين المجاهدين ليتحلوا بها، كما يعلمون أن البراءة من المشركين تعاملا ومخالطة محرمة شرعا، بل إن الاستغفار لأحد المشركين محرم مهما كانت درجة قرابته للمسلم، ويتعلمون منها درسا نافعا فى الثقة بنصر الله للمؤمنين، ومن هذه الدروس ما نشير إليه فيما يلى:

أولا:

يتعلمون من قول الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾** ما يلى:

١ ـ أنّ فى عنق كل مسلم بيعة بايعه الله عليها وهى له صفقة رابحة، وهذه البيعة هى أن يجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه وأن يكون له على ذلك عند الله الجنة فى الآخرة، وله فى الدنيا الغنيمة والنصر على العدو، أو الشهادة فى سبيل الله ليكون بها فى أرفع المنازل.

وتلك صفقة رابحة لا يستقيل منها مؤمن بالله واليوم الآخر.

* ومعنى ذلك أن المؤمنين مطالبون دائما وفى كل زمان ومكان بأن يجاهدوا فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، لا يتوقف هذا الجهاد في سبيل الله ما دام على الأرض حياة للناس فالجهاد كالصلاة وصيام شهر رمضان والزكاة المفروضة وحج بيت الله تعالى فرائض مستمرة ماضية إلى يوم القيامة.

٢ ـ وأن هذه الصفقة الرابحة التى يدْهش ربحُها كل عاقل لكثرة ما فيها من ربح للمؤمن، هى مما كتب الله على نفسه، ومما وعد بها المؤمنين فى كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، وأن وعد الله تعالى وعهده لا يخلف أبدًا، فهو أولى بالوفاء

من أى واعد أو معاهد أو معاقد، فهو سبحانه وتعالى الذى أمر بالوفاء بالوعد والعهد والعقد، ونهى عن الإخلال به، لما فى الإخلال من مذمة ونقيصة.

* إن على الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس عموما وللمسلمين خصوصا، وللعاملين من أجل التمكين لدين الله على وجه أخص، يؤكدوا لهم أنه لا حياة للإنسان المسلم فى كرامة وعزة إلا بأن يكون مستعدا للجهاد فى سبيل الله تعالى وأن تحدثه نفسه بهذا الجهاد فإذا استنفر نفر، فإنه الرابح فى هذه المعركة على كل حال.

٣ ـ وأن كل مؤمن يجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا هذا المؤمن وهو يخوض معركة الجهاد أو معاركه، عليه أن يوقن بأنه إن لقى ربه فى المعركة شهيدا فقد غفر الله له ذنوبه إلا الدَّين، وحشره يوم القيامة مع النبيين والصديقين.

وأنه إن عاد إلى أهله بعد المعركة بالأجر والغنيمة فإن ذلك ما تعهد به ربه سبحانه وتعالى لكل مجاهد فى سبيله صدقت نيته فى أن يكون جهاده من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا.

* إن الدعاة إلى الله عليهم أن يربطوا بين الجهاد فى سبيل الله وبين التمكين لدين الله فى الأرض، وأن يوضحوا للناس أن التمكين لدين الله فى الأرض ليس استعلاء للمسلمين على الناس، وإنما إقرار لمبادئ العدل والشورى واحترام إنسانية الإنسان وكرامته، وأن ذلك لن يكون إلا بالجهاد يوضحون ذلك ليوقن المسلمون أنهم لا كيان لهم إلا بالجهاد، بل لا كيان لدينهم فى الناس إلا بالجهاد.

٤ ـ ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن للمؤمنين صفات يحبها الله، ويأمرّ أن يتحلى بها عباده وهى:

ـ التوبة عن كل ذنب.

ـ والعبادة له وحده وفق ما شرع.

ـ والحمد لله على كل حال من السراء والضراء.

ـ والسياحة وهى الصيام فريضة ونافلة.

ـ والركوع والسجود لله فى الصلاة المكتوبة والتى يتطوع بها المؤمن.

- والأمر بالمعروف ليسود الناس الحب والوئام.

- والنهى عن المنكر لتنقية المجتمع من العيوب والآذم.

- والحفظ لحدود الله كلهـا وحدود الله هى معالم الدين كله وليست فـقط العقوبات المقدرة لمن ارتكب جريمة بعينها، وإنما كل ما أمر الله به أو نهى عنه.

على المسلمين أن يتصفوا بهذه الصفات حتى يكونوا أهلا للبشارة التى بشر الله تعالى من كانت هذه صفاته.

ثانيا:

ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾ دروسا نذكر منها ما يلى:

١ - أن علاقة الإيمان بالله والإسلام له سبحانه يجب أن تكون بين المسلمين أقوى من علاقة الدم والقربى، لأنهما العلاقة الأرقى والأرضى لله تعالى، ومن أجل وثاقة العلاقة الإيمانية وتميـزها على علاقـة الدم والنسب والصهر، أباح الله لـلمؤمن أن يدعو لأخـيه المؤمن وأن يستغفر له، وحرَّم أن يستغفر المؤمن للمشرك ولو كان من ذى قرباه.

إن هذا لدرس عميق فى الولاء الذى يجب أن يكون بـين المؤمنين وفى القطيعة التى يجب أن تسود بين المؤمنين والمشركين، وما ذلك إلا لأن الله تعالى يميز الذين آمنوا على المشركين.

٢ - وأن كل من مات على الشـرك فهو من أصـحاب الجحـيم، ومعنى ذلك أن كل أعمـاله التى قام بها فى الدنيا وكـانت من أعمال الخـير كصلة الأرحام وإطعـام الطعام والإغاثة والنجدة ونحوها، كل هذه الأعمال قد حبطت ما دام قد مات على الكفر بالله والشرك به.

وخـسارة أخرى تحيق بمن مـات على الشرك وهى أن تنقطع صلته بكل من له به قربى من المؤمنين.

*** وربما تصور بعض النـاس أن انقطاع هذه الصلة لا أهمية له بـالنسبة للمـشرك!!!**

ولكن هذا التصور غير صحيح، فمن ذلك المشرك الذى يهون عليه أن تنقطع صلته بأبيه أو ابنه أو أخيه؟ إنه يكون عندئذ على درجة كبيرة من التعاسة والإحساس العميق بسوء الحال.

ومن أجل أن يفكر المشركون فى هذه المواقف فيحاولوا أن يتخلصوا منها، شرع الله هذه القطيعة بين الوالد وولده والأخ وأخيه، لعل المشرك يفكر ويتدبر فيخرج من الشرك إلى الإيمان.

* حتى إستغفار المؤمن للمشرك قد حرم مهما كانت درجة قرابته بالمؤمن، ولا حجة فى استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه كما أوضحنا آنفا.

٣ ـ وأن من رحمة الله تعالى بعباده أنه يسامحهم على كل عمل عملوه قبل أن ينزل عليهم النهى عنه، وعن كل عمل تركوه قبل أن ينزل عليهم الأمر به.

* إن الله سبحانه يرسل الرسول وينزل عليهم الكتب ويأمرهم بتبليغ عباده أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن يأتمروا بما أمر وينتهوا عما نهى، وأن يحذروا الله ويتقوه، ثم يحاسبهم على المخالفة والمعصية، وهذا من عميم رحمة الله بعباده ومن دلائل عدله وإحسانه.

فالذين ماتوا من المؤمنين وهم يعملون عملا لم يكن قد حرم عليهم، فإن الله لا يحاسبهم عليه بعد أن حرمه.

٤ ـ وأن من التزم بأمر الله فائتمر، وبنهيه فانتهى فبرىء من المشركين والكافرين ومن موالاتهم والدعاء لهم، فإنه لن يخسر شيئا أبدا، وكيف يخسر من ترك الولاء للمشركين فكان الله تعالى وليه؟ وكيف يضعف من فقد نصرة المشركين فكان الله تعالى نصيره؟

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة دروسا نافعة فى مجالات العمل الإسلامى كله، دعوة وحركة وتربية وتنظيما وتمكينا لدين الله فى الأرض، بحيث لو فاتتهم هذه الدروس لوقفت فى طريقهم المعوقات، وتحداهم

أصحاب مساجد الضرار ومؤسساتهم - كما أسلفنا - بحيث يحولون بينهم وبين ما يريدون.

وبعض هذه الآيات الكريمة تحدد بدقة ووضوح وحسم أهم الصفات التى يجب أن تتوفر فى المؤمنين المجاهدين، والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية والتربية والتمكين مجاهدون ما يشك فى ذلك إلا الذين لا يعرفونهم ولا يعرفون طبيعة ما يقومون به من أعمال، يتساوى العناء فيها مع عناء الجهاد وأعبائه.

ومن تلك الدروس ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

أولا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ ما يلى:

١ - أن كل مؤمن يريد لنفسه الفلاح والفوز؛ فإن عليه أن يدخل فى تلك الصفقة الرابحة التى عقدها الله تعالى بينه وبين المؤمنين المجاهدين الذين يقدمون أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ولا يبخل بهما على العقيدة والدعوة إلى الله والعمل على أن تكون كلمة الله هى العليا، لأن له فى مقابل ذلك أكبر ثمن وأعظم أجر وهو الجنة، وذلك هو البيع الرابح لأن الأموال والأنفس على وجه الحقيقة لله خالق الأنفس والرازق بالأموال، فإذا قدمها الإنسان لصاحبها الحقيقى أعطى فى مقابلها الجنة!!! هذه الصفقة أثارت دهشة المؤمنين وعجبهم وفرحهم فقالوا على الفور: لا نقيل ولا نستقيل.

ولأن هذه الصفقة ربحها عظيم يكاد الإنسان يطير بها فرحا، وثّقها الله تعالى فى أمهات كتبه السماوية: التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

* إن على الدعاة إلى الله أن يؤكدا هذه المعانى فى نفوس المدعوين حتى ينخرطوا فى العمل يحدوهم الأمل فى أن يكونوا طرفًا من طرفى هذه الصفقة فتنشرح نفوسهم

للعمل وتطمئن قلوبهم إلى ما ينتظرهم من حسن الجزاء.

٢ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للمدعوين وللناس عموما أن الله تعالى إذا وعد أو تعهد بشيء فلا شك أدنى شك فى الوفاء به، فمن أوفى بعهده من الله؟

ومن أجل هذا فإن للمؤمن الذى جاهد فى سبيل الله بماله ونفسه لكى تكون كلمة الله هى العليا، له أن يستبشر بما ينتظره عند الله من فوز عظيم.

* إن كل خطوة من خطوات الدعوة والحركة جهاد له آلياته وأعباؤه، وإن كل عمل فى سبيل تربية الناس تربية إسلامية جهاد فى سبيل الله له آلياته وأعباؤه، وإن تحمل كل محنة فى سبيل الله جهاد فى سبيله، وإن الصبر على التضييق الذى تمارسه بعض الحكومات ضد الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية جهاد فى سبيل الله، ولا أبالغ إن قلت أن تعقب العاملين فى الحقل الإسلامى من حكومات الظلم والاستبداد وتحمل هذا التضييق جهاد كذلك.

٣ ـ وأن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا للمدعوين أن صفات بعينها أمتدحها الله تعالى وبشر أصحابها لابد أن تتوفر فى كل مؤمن مجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله، لأن تلك الصفات هى القواعد الإيمانية والركائز الإسلامية التى يقوم عليها الجهاد فى سبيل الله، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام فلابد من صفات عالية القدر يتأهل بها المجاهد، وهذه الصفات قد تحدثنا عنها آنفا، ونشير إليها هنا مجرد إشارة وهى:

ـ التوبة، والعبادة، والحمد، والسياحة، والركوع، والسجود، وممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمحافظة على حدود الله تعالى.

* وهذه الصفات يجب أن تجتمع فى المؤمن المجاهد لأنها متكاملة لا يُغنى بعضها عن بعض، وتَنَحىّ أى صفة منها يخل بسائر الصفات، وينفى عمن تخلى عنها صفة أنه مؤمن مجاهد.

* وليس معنى ذلك أنه لا توجد صفات يجب أن يتحلى بها المسلم إلا هذه الصفات[1] ولكن معناه أن المؤمن المجاهد لا يستحق هذه البيعة وتلك الصفقة إلا بهذه

(١) من الآيات الجامعة فى الصفات التى يجب أن يتحلى بها المسلم: من الآية ١ ـ إلى الآية ١١ من سورة المؤمنون ومن الآية ٦٣ إلى الآية ٧٦ من سورة الفرقان، ومن الآية ١٧٧ إلى الآية ١٨٣ من سورة البقرة وغيرها.

الصفات.

٤ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يفصلوا للناس موضوع ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ فقد أفاض العلماء فى هذا، والدعاة إلى الله أعلم بذلك وأدرى، ولكنى أذكر ببعض ما قال العلماء، والذكرى تنفع المؤمنين.

ـ قالوا: إن الحافظين لحدود الله هم القائمون بتكاليف الله تعالى لعباده.

والتكاليف الإلهية نوعان:

عبادات، ومعاملات.

ـ فالعبادات: هى التى أمر الله بها لا لمصلحة مرعية فى الدنيا بل لمصالح مرعية فى الدين والدنيا معا وهى: الصلاة والزكاة والصوم والحج، والجهاد، والإعتاق ـ أى تحرير العبيد والإماء، والنذور، وسائر أعمال البر.

ـ والمعاملات هى: التى شرعت لجلب المنافع أو لدفع المَضَارّ.

* فتكاليف جلب المنافع إما أن تكون منافعها مقصودة بالأصالة أو مقصودة بالتبعية.

* فالمنافع المقصودة بالأصالة هى المنافع الحاصلة من جهة الحواس الخمس وهى:

ـ المذوقات: وهى المطعومات من حيوان أو نبات، والمشروبات لذلك جاءت الشريعة تحل هذا وتحرم ذاك، ويلتمس تفصيل ذلك فى كتب الفقه الإسلامى.

ـ والملموسات: ويدخل فيها الجماع ودواعيه، ولذلك شرع الله النكاح وأباح الطلاق ونظم كل ما يتعلق بهما من رضاع وحضانة ونفقة ومهر ومسكن، ونشوز، وخلع وظهار.

وما يحل لبسه وما يحرم، وما يحل استعماله من آنية وما يحرم.

ـ والمبصرات: ولذلك حددت الشريعة ما يحل النظر إليه وما يحرم، وما يجب أن يغض فيه البصر.

ـ والمسموعات: وقد نظمت الشريعة ما يجوز الاستماع إليه وما لا يجوز.

ـ والمشمومات: ولذلك حرَّم الشرع ما يكون شمُّه مضراً أو مؤذيا، وأباح ما لا يضر

ولا يؤذى.

* والمنافع المقصودة بالتبع فهى الأموال، ولذلك نظمت الشريعة بل حددت الأسباب التى تؤدى إلى كسب المال وملكه كالبيع والإرث والهبة والوصية ونحوها، وتلتمس تفاصيل ذلك كله فى كتب الفقه الإسلامى.

وحددت الأسباب التى تجيز لغير المالك التصرف فى الشىء، كالوكالة ونحوها.

وحددت الأسباب التى تمنع المالك من التصرف فى ملكه وهى الرهن والتفليس والإجادة ونحوها.

* وأما تكاليف دفع المضار فإنها خمسة أقسام:

١ ـ مضرة فى النفوس.

٢ ـ ومضرة فى الأموال.

٣ ـ ومضرة فى الأديان.

٤ ـ ومضرة فى الأنساب.

٥ ـ ومضرة فى العقول.

* أما المضارّ فى النفوس فمن أجل دفعها شرُع القصاص والدية والكفارة.

* وأما المضارّ الحاصلة فى الأموال فمن أجل دفعها شرع تحريم الغصب والسرقة والاختلاس والغسن ونحوها.

* وأما المضارّ فى الأديان فمن أجل دفعها شرع عقوبة الردة، وحدد أسلوب التعامل مع المشركين والكفار وأهل الكتاب وأهل البدع والأهواء، ومثيرى الفتن الدينية ونحو ذلك.

* وأما المضارّ فى الأنساب فمن أجل دفعها حُرِّمَ الزنا واللواط، ووضع نظام حد القذف ونظام اللعان ونحوها.

* وأما المضارّ الحاصلة للعقول، فمن أجل دفعها حرَّم الله الميتة ولحم الخنزير وأكل النجاسات أو ماله مخلب أو ناب من السباع، وحرَّم شرب الخمر، وكل ما يؤثر فى العقل أو البدن تأثيرًا سيئًا يلحق بهما الضرر.

- ومن أجل تمكين الناس من الإلزام والالتـزام فى وقع هذه المضار، أوجـب الشارع نصب الإمام ونائبه أو نوابه، ووضع نظام التقاصى، وغـيره من الأنظمة التى من شأنها أن تعمل على توصيل الحقوق لأصحابها.

وبعد: فهذا ما يجب أن يوضحه الدعاة إلى الله للمدعوين خصوصا وللناس عموما، ليزداد الناس إقبالا على هذا الدين ويزدادوا تمسكا بأحكامه وأخلاقه وآدابه.

٥ - وعلى الدعاة إلى الله أن يفقهوا الناس بأن الجـماعة المؤمنة التى بايعت الله تعالى على الجهاد فى سبيله بالمال والنفس، لها صفات تميزها عن كل جماعة، فممَّ تتميز به:

- أنها توابة تتوب عن الخطأ والإثم والمعصية، وتلتزم بأحكام الإسلام وتنأى عن كل ما يغضب الله تعالى.

- وهى جماعة تجيد عبادة الله وحده لا شريك له، وتتجه إليه وإلى ما يرضيه.

- وهى جماعة تجيد حمد الله على السـراء والضراء، ولا تسخط ولا تجزع لما يصيبها من نصب أو وصب.

- وهى جمـاعة تحـسن السيـاحة فى ملكوت الله لتـأخذ العبـرة والعظة وتمسك عن شهوات البطن والفرج إلا فيما أحل الله امتثالاً لأمر الله ونهيه.

- وهى جمـاعة تأمـر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أى تعنى بأن ينصـلح حال الناس بممارسة فعل الخير والكف عن فعل الشر والمنكر، وكل ما حرّم الله.

- وهى جماعـة تحفظ حدود الله، أى تحفظ هذا الدين وتصـونه وتدفع عنه كل عدو وكل معاند وكل فاسق، وكل سلبى لا يحمل من الإسلام إلا اسمه ولقبه.

ثانيا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعـاملون فى الحركة الإسلاميـة من قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦)﴾ عظات وعبرا ودروسا عظيمة نذكر منها ما يلى:

١ - أن العلاقـة بين المؤمن ودينه يجب أن تكون أقوى من العـلاقة بين الوالد والولد

والأخ وأخيه وكل نسب وكل صهر، وأن الولاء يجب أن يكون للعقيدة ولمن آمن بها مهما يكن جنسه أو لونه، وأن البراء يجب أن يكون من كل من خالف هذه العقيدة أو رفضها، مهما كانت درجة قرابته بالمؤمن.

* وهذا الولاء والبراء مما يزيد الروابط بين المؤمنين ويجعل منهم أمة واحدة، ويجعل لهم قوة ومهابة، ويهيىء لهم من وسائل نشر دعوة الإسلام فى الناس أحسنها وأجداها.

٢ ـ وأن عقيدة الإسلام هى خاتمة العقائد وأتمها وأكملها وأرضاها لله تعالى، فلابد أن تكون هى الرابطة الأساسية التى تربط بين المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وتباعدت أوطانهم وتعددت لغاتهم.

* وعقيدة الإسلام أو عقيدة التوحيد هى التى تدفع المؤمنين بها إلى فعل الخير وإلى حب الناس وحب الخير لهم، وهى التى تولد فيهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ولا يعبد غير الله فى الأرض.

وهى العقيدة التى تدعو صاحبها وترغبه فى التضحية من أجل إحقاق الحق، ومن أجل كرامة الإنسان، وتهيىء له من الوسائل التى شرعها الله ما يمكنه من أن يحيا فى مجتمع آمن مطمئن.

٣ ـ وهى العقيدة التى شرعت الجهاد والقتال ووضعت له أحكاما عادلة ونظما إنسانية رفيعة وجعلت القتال ضرورة حتمية لتطهير الأرض من المشركين ومن أعداء الله الذين يحاربون الله ورسوله، حتى تستقر حياة الإنسان، ويعيش آمنا على دمه وماله وعرضه ودينه وعقله، لأن هؤلاء المشركين يضرون أبلغ الضرر بحياة الناس وأموالهم وأعراضهم وعقولهم فلابد من قتالهم ومواجهتهم حتى ينتهوا فيغفر لهم ما قد سلف.

وقد أفاضت هذه السورة الكريمة في وصف المشركين بصفات تنفِّر منهم وتجعل قتالهم عملا يُصْلِح المجتمع ويتقرب به إلى الله، ويكفى وصفهم بأنهم نجس وبأنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة، وأنهم ينكثون بكل عهد ويمين، وأنهم وأنهم.... إلى آخر ما وصفتهم به آيات هذه السورة وغيرها من سور القرآن الكريم.

٤ ـ وعلى الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس أن الله تبارك وتعالى لا يعاقب أحدا على

عمل شيء أو تركه ما لم يبين له حله أو حرمته، وأن ما حرَّم يجب أن يتقى، وأنه وحده سبحانه وتعالى هو الذى إليه التحليل والتحريم، وقد أرسل رسله ليبلغوا أقوامهم ما أحل الله وما حرم.

فمن رحمته بالناس أن أرسل لهم الرسل، ومن رحمته بالناس أن أحل لهم وحرم عليهم، ومن رحمته بالناس أنه يحاسبهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصى، لكى يحيا الناس حياة إنسانية كريمة تتناسب مع ماكرم الله به بنى آدم جميعا.

* إن مهمة الدعاة إلى الله مهمة ليست باليسيرة، وكيف تكون يسيرة والناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، وكيف تكون يسيرة وهى مهمة الأنبياء والمرسلين من قبل؟

١٣ ـ الآيات الكريمة من الآية السابعة عشر بعد المائة إلى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة ـ آخر السورة.

أحكام أخرى تتعلق بغزوة تبوك

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ الآيات إلى آخر السورة الكريمة.

تفسير الآيات الكريمة وشرحها:

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن موضوعات وأحكام تتعلق بغزوة تبوك ـ غزوة العسرة ـ وهي:

- توبة الله على النبى والمهاجرين والأنصار، بأنه سبحانه لن يؤاخذهم بما قد يظنون أنه موضع مؤاخذة.

- وتوبة الله تعالى على الثلاثة المشهورين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك الذين قاطعهم النبى والمؤمنون خمسين ليلة حتى تاب الله عليهم.

- وإشادة بأهل المدنية ومن حولها من باديتهـا وهم قبائل: مزينة، وأشجع، وغفار، وجهينة، وأسلم، فقد شاركوا رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، وَوَعْدُ لهم بأحسن المثوبة وأكرم الجزاء.

- وتشريع يوضح أن الجهاد فى سبيل الله ليس فـرضا عينيا على كل مسلم، وإنما قد يكون فرض كفاية، وقد يعفى منه من يتفرغون لتفقيه المسلمين فى الدين، وللقيام بأعباء الدعوة والتحذير.

- وأمر بالاستمـرار فى جهاد الكفار الذين يلون ديار المسلمين، فإذا استقر المسلمون فى بلد جاهدوا الكفار الذين يلونهم وهكذا، حتى لا يعبد غير الله فى الأرض، وبيان أن هذا هو واجب المسلمين فى كل زمان ومكان.

- ووصف لأحوال المؤمنين والمنافقين عندما تنزل سورة من سور القرآن الكريم.

- وخـتُمتْ السورة بآيتـين كريمتين يَمَتّنُ الله تعـالى فـيهـما عـلى المسلمين بل على الإنسانية كلها، ببـعثة محمد ﷺ ونبوته وحرصـه على هدى جميع الناس، وتحديد أن الرسول ﷺ ما عليه إلا البلاغ، فإن تولى عنه من دعاهم فليقل حسبى الله ونعم الوكيل عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

﴿لقد تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

- توبة الله تعالى على النبى والذين اتبعـوه ساعة العسرة تعنى ثلاثة مـعانٍ من معانى التوبة:

الأول: أنه تاب عليـهم أى غفـر لهم ولم يؤاخـذهم بالذنوب سـواء أكانوا مـذنبين حقيقة أو لم يكونوا مذنبين.

والثانى: أنه سبحانه لم يؤاخذهم بما ظنوا أنهم مؤاخذون به.

والثالث: أنه سبحانه تاب عليهم وأرجعهم من غـزوة تبوك التى كانت مليئة بالمتاعب والمشقات.

ـ ويرى بعض المفسرين معنى آخر للتوبة هو أنه سبحانه تاب عليهم من النفقة والزاد والظهر والماء ونحـوه، وكل ذلك كان الحصول عليـه صعبا، نظر لأن الغـزوة كانت فى شدة الحر ـ أى يَسَّر لهم أمرها.

ـ وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كانت التوبة على النبى لأجل إذنه للمنافقين فى القـعود عندمـا اسـتأذنوه، بدليـل قوله تعـالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٤٣].

ـ وتاب على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى القعـود والتخلف عن الغزوة للعسر والشدة.

وقيل: تاب عليهم من الصغائر، ومن ترك الأفضل.

﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾.

أى: زمن غزوة تبـوك، حيث صعب عليـهم السفر، وتعـذر عليهم الزاد والراحلة، واشتد الحـر، وقل الماء والمال، ومع كل ذلك خرجوا مجاهديـن فى سبيل الله، فكانت توبة الله عليهم من ذنوبهم الصغيرة ومن عنائهم فى هذه الغزوة.

﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾

أى: بعدما اشـتد الضيق على فريق منهم حتى كـادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الجهاد.

وكلمة «كاد» تفيد المقاربة مع عدم الوقوع فى الفعل.

وتكررت كلمـة «التوبة» فى الآية تعظيـما لشـأنهم وتأكيدًا لـتوبة الله تعالى عـليهم ورضاه عنهم.

﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وعلى الثلاثة﴾

هؤلاء الثلاثة فريق خاص من المتخلفين عن هذه الغزوة، فهم غير المتخلفين الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ

وغير الذين جاءوا يعتذرون ويحلفون وهم كاذبون.

وهم:

* كعب بن مالك بن عمرو البدرى الأنصارى الخزرجى السّلَمى من بنى سلمة، شهد المواقع، وكان شاعر رسول الله ﷺ وله فى كتب الحديث ثمانين حديثا نبويا.

* ومرارة بن الربيع الأنصارى البدرى الأوسى من بنى عمرو بن عوف.

* وهلال بن أمية بن عامر البدرى الأنصارى من بنى واقف وقد تخلفوا عن غزوة تبوك دون غدر.

ولما رجع رسول الله ﷺ من هذه الغزوة سأل عن سبب تخلفهم فلم يكذبوه، وإنما اعترفوا بذنبهم وحزنوا.

فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم، ثم أمرهم أن يعتزلوا نساءهم.

ثم عفا الله عنهم بعد خمسين يوما من القطيعة، أو العقاب النفسى الاجتماعى السياسى المرير، ولكنه ﷺ لم يوئسهم من التوبة.

﴿ ضاقَتْ عليْهِمُ الأرْضُ بما رحُبَتْ ﴾.

هذا التعبير القرآنى يحمل كناية عن همهم وغمهم بمقاطعة الرسول ﷺ وأصحابه إياهم، فتخيلوا الأرض الرحيبة ضيقة، إذ كانوا مهجورين لا يكلَّمون ولا يعاملون.

﴿ وضاقَتْ علَيْهِمْ أنفُسُهُمْ ﴾.

أى: حزنوا وندموا، وشعروا بالوحشة لما لقوه من الصحابة رضوان الله عليهم من الابتعاد عنهم ومقاطعتهم، استجابة لأمر الرسول ﷺ.

﴿ وظَنُّوا أن لاَ ملْجأَ من الله إلاَّ إليْه ﴾.

أى: تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه فى الصفح عنهم وقبول توبتهم إلاّ أن يلجئوا إلى

الله تعالى وحده.

* وهذا التعبير: وظفوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه كناية عن أنهم تابوا توبة نصوحا، وانتظروا عفو الله تعالى.

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾.

أي: أن الله تعالى بدأهم بالتوبة، أى تاب عليهم لأجل أن يتوبوا ويكفوا عن المخالفة، ويتنزهوا عن الذنب، والمعنى: تاب عليهم ليدوموا على التوبة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

هذا امتنان من الله عليهم، يشير إلى أن الله تعالى قبل توبتهم لمحصن رحمته بهم، وفيها إشارة لكل مذنب أن يلجأ إلى التوبة لأن الله تعالى تَوَّاب أى يكثر من قبول توبة من تاب ورحيم بعباده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذه الآية الكريمة تطالب المؤمنين جميعا بأمرين بالغى الأهمية فى حياة المؤمن وفى صلته بربه ودينه والمؤمنين من حوله، هما:

- تقوى الله: أى اتقاء غضبه فى مخالفة الرسول ﷺ، فى التخلف عن غزواته أو مخالفة أوامره ونواهيه. وهذا يتضمن مطالبة المسلمين الذين يكونون بعد ذلك بعدم التخلف عن الجهاد فى سبيل الله.

- وأن يكونوا دائما مع الصادقين: أى مع رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم دائما، يشاركونهم بصدق فى غزواتهم وأعمالهم التى يتقربون بها إلى الله.

والصدق هو أن يوفى الصادق ما يجب عليه كما يجب، والمفروض أن يكون كل مسلم من الصادقين أى يؤدى ما يجب عليه كما يجب أن يكون عليه الأداء.

﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ...﴾ الآية.

هذه الآية الكريمة توجب الغزو والجهاد فى سبيل الله على أهل المدنية وعلى من حولهم من أهل باديتها المحيطين بها عندما يخرج النبى ﷺ إلى غزو.

وهذا وجوب عينـى للجهاد على هؤلاء، وهو شرف لهم إذ جـعلهم الله تعالى جند النبى وحرسه الذين يجب أن يلازموه.

* وأهل المدينة معروفون.

* ومن حولهم من الأعراب هم: مزينة وأشجع، وغفار، وأسلم، وجهينة.

- وفى هذه الآية الكريمة ثـناء على أهل المدينة ومن حـولهم من الأعـراب، وفـيهـا تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب.

﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾.

أى: لا يحل لهم ذلك التخلف.

﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾

أى: لا يجوز لهم أن يرضوا لأنفسهم الراحة والدعة، ورسول الله ﷺ فى المشقة.

وهذا نهى بالـغ وتوبيخ لكل من تخـلف عن رسـول الله ﷺ، وتهـيـج لهم لإثارة أنفقهم وحميتهم لمتابعته ﷺ.

﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله﴾ الآية.

كلمة «ذلك» إشارة إلى عـدم التخلف والمشاركة فى الغـزو، فكل مشقة يتـحملونها توجب لهم الثواب العظيم عند الله تعالى.

- وقد ذكرت الآية الكريمة أمورا خمسة ينالون عليها هذا الثواب العظيم، وهى:

١ - الظمأ وهو: شدة العطش الذى يصيبهم فى القتال.

٢ - والنصب وهو: الإعياء والتعب فى المعركة.

٣ - والمخمصة وهى: المجاعة الشديدة التى يظهر بسببها ضمور البطن.

٤ - ولا يطئون مـوطئا يغيظ الكفـار وهو: كل وضع لقدم إنسان أو حافـر فرس أو خف بعير فى سبيل الله، مما يغيظ الكفار أن تطأ أقدام المسلمين هذه الأماكن.

٥ - ولا ينالون من عدو نيـلاً وهو النيل من العدو بقتله أو أسره. وهزيمتـه، قليلا كان ذلك أو كثيرا.

﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾.

أى: كان كل عمل من هذه الأعمال الخمسة التى قاموا بها مكتوبا لهم عند الله من العمل الصالح الذى يجزى عليه أحسن الجزاء والمعنى: أنه من قصد بعمله طاعة الله كان قيامه وقعوده وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى، وكذلك من قصد بعمله المعصية، فإن قيامه وقعوده وحركته وسكونه كلها سيئات مكتوبة عليه عند الله تعالى.

لذلك نقول: ألا ما أعظم بركة الطاعة وما أتعس شؤم المعصية!!!

- ويتعلق بهذه الآية الكريمة حكم شرعى هو: أنه يجب على كل مسلم الإجابة لدعوة الجهاد والطاعة للأمر به ما دام الموقف يقتضى خروجه ومشاركته، وأن ترك ذلك إثم ومعصية.

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾.

قال العلماء: النفقة الصغيرة هى التمرة فما فوقها، وعلاقة السوط فما فوقها، كل هذه النفقات مهما صغرت محسوبة لهم عند الله إنفاقا يجزون عليه أحسن الجزاء.

﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾.

- الوادى كل مفرج بين جبال وآكام يكون مسلكا للسيل، فمن قطعه فى سبيل الله كتب عند الله هذا المسير، كما كتب لهم ذاك الإنفاق فى سبيل الله.

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

أى: يجزيهم جزاء أحسن من أعمالهم وأفضل وأجَلّ وهو ثوابه سبحانه وتعالى.

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

المعنى العام: أن من مقاصد الإسلام وأهدافه، أن يبث علومه وآدابه وقيمه بين الأمة، ولا يكون ذلك إلا بتكوين جماعات تقوم على تعلم علوم الدين وعلمها ثم تعليمها.

وتكون وظيفة هذه الجماعات نشر العلم والمعرفة وإشاعة الثقافة ونشر الدعوة إلى الله

بين الناس، وتثقيف الناس وإصلاح أحوالهم الفكرية والعقلية والادبية.

وهذا يصلح شأن الامة فى كل جانب من جوانب حياتها السياسة والاقتصادية والاجتماعية، لأن هذا الإصلاح مقصد من مقاصد الدين والشريعة.

والمعنى الخاص: أن ليس من المصلحة أن يتمحص المسلمون جميعا للقتال والجندية فى المعارك العسكرية، وإنما المصلحة أن يقوم بذلك من تتحقق بهم مصلحة الحرب والقتال، فى حين تقوم جماعات عديدة على كل مرافق الحياة، وليس حظ القائم على ثغرة من ثغرات التعليم - مثلا - دون حظ الغازى فى سبيل الله، لأن كلا منهما يقوم بعمل هام فى تأييد الدين وتحقيق مقاصده.

- إنّ من الواجب أن تتفقه طائفة - أى جماعة - من المؤمنين فى الأمور التى تهم المسلمين من علم ومعرفة وعمل وفن.

* وعلوم الدنيا لا تقل فى الإسلام عن علوم الدين أهمية فى بناء المجتمع المسلم القادر على أن يعمر الأرض.

* وليس ذكر التفقه فى الدين دون غيره من أنواع الفقه دلالة على ثانوية علوم الدنيا أو هامشيتها، لأن من تدبَّر علم أن تعبير: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يشمل كل علوم الدنيا، لأن تنظيم الحياة الدنيا جزء من الدين ومنهجه، ففقه الدين فيه فقه للدنيا.

* والفقه أخص من العلم إذ يطلق على ما كان إدراكه يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدرب، إذ هو فهم ما يدق فهمه.

والفقهاء هم الذين ينذرون ويخوفون من الخطأ والمعصية، والناس بحاجة ماسَّة إلى من ينذرهم، لعلهم يحذرون ما خوفوا منه، فتكون لهم النجاة من عذاب الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

هذه الآية الكريمة وتوجب على المسلمين الاستمرار فى قتال الكافرين فى البلاد المجاورة لبلاد المسلمين، حسما لشرهم وتجنبا لعدواتهم، وذلك - فى لغتنا المعاصرة - من الحرب الوقائية.

* وكلما استقر المسلمون فى بلدٍ للإسـلام وطبق فيها منهج الله ونظامه وجنى الناس ثمار هذا المنـهج الذى يحقق الأخذ به سـعادة المعـاش والمعاد، أخذ المسلـمون يؤمنون أطراف بلادهم من المشركين والكافرين فقاتلوهم دَرْءًا لشرهم ودفعا لفسادهم وإفسادهم.

* ولذلك كانت غزوة تبـوك، إذا كان الروم يستعدون للهـجوم على المسلمين، فلما أخذ المسلـمون بمبدأ تأمين أطراف الـبلاد توجهـوا إلى تبوك مـبادرين قبل أن يـدهمهم الروم.

نعم إن المعركة لم يحدث فيها قتال لأن الروم لما علـموا بتجهز المسلمين لقتالهم كفوا عنهم وانصرفوا، وكان هذا فى حد ذاته نصرا هيـأه الله للمسلمين بفضل أخذهم بمبدأ ـ الحرب الوقائية ـ.

* واستمر الخلفاء الراشدون عليـهم ـ رضوان الله يطبقون هذا المبدأ فكان أن فتح الله عليهم الشام ثم العراق ومصر، وفارس ثم طبـقوا المبدأ فى قتال الذين يلونهم حتى ملأ الإسلام ربوع الأرض.

* وتلك طبيـعة الدين الخاتم، أن يقاتل المؤمنون به الذين يلونهم من الـكفار، حتى تكون كلمة الله هى العليا وحتى لا يعبد غير الله فى الأرض.

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾.

أى: اشتدوا عليهم وأغلظوا.

وقال المفسرون: الغلظة الشجاعة.

وقيل: هى الشدة.

وقيل: الغيظ منهم أو لضيق بهم.

وعموما فإن الغلظة ضد الرقة واللين والاسـتهانة بأمرهم. وقال بعض العلماء: هذه الغلظة إنما تعتبر فيما يتصل بالدين وإقـرار قيمه فى الناس، وذلك بإقامة الحجة والبينة، أو بالقتال والجهاد فى سبيل الله تعالى.

أما فـيمـا يتصل بالبـيع والشراء والمجـالسة ونحـوها فلا غلظة، وإنما هنـاك العدل والمساواة وحسن التعامل.

﴿ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

هذا الجزء من الآية الكريمة تأييد وتشجيع ووعد من الله تعالى بالنصر إن اتقوا الله بامتثال الأمر بالجهاد فى سبيل الله، ويكون جهاد المجاهد طلبا لما عند الله لا طلبًا للمال أو الجاه.

* والتقوى لله سبحانه وتعالى فى هذا السياق من الآية تعنى أمرين:

- قتال الذين يلون المسلمين من الكفار.

- والاشتداد والغلظة فى التعامل مع هؤلاء الكفار.

* وهذه التقوى تستدعى معية الله تعالى، فهو سبحانه دائما مع المتقين.

﴿وإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ .

والمعنى: كلما أنزلت سورة من سور القرآن الكريم تدعو إلى الإيمان بالعمل والقيام بالأعمال الصالحة - وكل سورا القرآن كذلك - فإن للمنافقين موقفا ومقولة يقولونها عندئذ، وهى قولهم: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ يقول ذلك بعضهم لبعض تهكما وسخرية من المؤمنين، وهم فى ذلك حاقدون غافلون جاهلون لأن الاستماع إلى آيات القرآن مع التدبر فيها يزيد الإيمان كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢].

وكان المسلمون إذا سمعوا القرآن الكريم قالوا: قد ازددنا إيمانا، كان ذلك شأنهم وفقههم، حتى إن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال للأسود بن هلال: اجلس بنا نؤمن ساعة، رواه البخارى بسنده عن معاذ رضى الله عنه - فى باب الإيمان -.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

هذا الجزء من الآية الكريمة يدل على أن المؤمنين إذا أنزلت سورة من سور القرآن حدث منهم أمران:

أحدهما: أن يزدادوا إيمانا لاعترافهم بأنها حق من عند الله.

والآخر: أنهم يستبشرون بنزولها لما يلحقهم بسببها وبسبب العمل بما فيها من ثواب الآخرة، أو يستبشرون بما يحدث لهم من نصر على أعدائهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

ـ الذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون الذين قالوا مستهكمين عند نزول السورة: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾.

وكان أثر هذه السورة فى المنافقين متمثلا كذلك فى أمرين:

الأول: أن هذه السورة زادتهم رجسا إلى رجسهم ـ والرجس هو العقائد الباطلة أو الأخلاق الذميمة، فهم عند نزول السورة ازدادوا كفرا إلى كفرهم أو ازدادت أخلاقهم الذميمة سوءا على ما فيها من سوء.

والآخر: أنهم ماتوا على كفرهم.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ـ الفتنة: اختلال نظام الحالة المعتادة للناس واضطراب أمرهم ـ كانتشار الأمراض، واتساع دائرة الحرب والقتال، وشيوع المخاوف ونحو ذلك ـ

والمعنى الذى يفهم من هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى يسلط على هؤلاء المنافقين المصائب والمضارّ التى تنالهم، مما لا يُعْتاد تكراره فى حياة الأمم، بحيث يُدْرَك أن تكرار ذلك يدل على أنه مراد منه إيقاظ الناس من غفلتهم، وتبصيرهم بسوء مصيرهم، وردى سيرتهم فى جانب الله تعالى، ولكنهم لا يتوبون عن نفاقهم ولا يتعظون بهذه الفتن التى قد تكون فى كل عام مرة أو مرتين.

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

أى: لا يتوبون عن نفاقهم ولا يتوبون عن فسقهم وإضمارهم الشر للمسلمين، والكيد لهم وجمع الأعداء عليهم.

﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

أى لا يتعظون بما يحدث لهم من فتن، كما يتعظ المؤمن إذا فتن بمرض أو نحوه من متاعب الدنيا.

وقال بعض المفسرين: كان المنافقون يجتمعون على ذكر الرسول ﷺ بالطعن **والإساءة، فكان جبريل عليه السلام يخبره بما قالوا، فكان يذكر لهم تلك الحادثة ويوبخهم عليها، ويعظهم فما كانوا يتعظون.**

﴿وإذا ما أُنزلت سورةٌ نَظَرَ بعضُهُم إلى بعضٍ هل يراكُم من أحدٍ ثمَّ انصرَفُوا﴾ الآية.

والمعنى: أن المنافقين كلما نزلت سورة من سور القرآن وكان فيها ذكر المنافقين وشرح فضائحهم ومخازيهم، وسمعوها تأذوا بها، ونظر بعضهم إلى بعض نظرا وإلاً على الطعن فى تلك السورة وتحقير شأنها. وقد يكون طعنهم فى كل سور القرآن حتى التى لا تتحدث عن مخازيهم وفضائحهم.

ثم قال بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد؟ أى هل يراكم أحد من المسلمين وأنتم تنظرون نظر الاستهزاء وما تطعنون به فى محمد ﷺ والقرآن؟

أو يكون المعنى أنهم عندما يستمعون إلى سورة من القرآن يهمون بالخروج من المسجد كراهية لما يسمعون، أى إن رآكم أحد فلا تخرجوا.

﴿ثُمَّ انصرَفُوا﴾

أى: انصرفوا عن طريق الاهتداء، وذلك حينما بيَّن لهم كشف أسرارهم وهتك أسرارهم، عندئذ يقع - لا محالة - تعجب وتوقف ونظر، فلوا اهتدوا لكان ذلك الوقت قد يقع فيه إيمانهم وهدايتهم لكنهم لم ينتظروا بل انصرفوا، فبقوا على الكفر، ولم يسمعوا قراءة النبى ﷺ سماع من يتدبره ويتعظ به.

﴿صرَفَ اللهُ قُلوبَهُم﴾

فى هذا الجزء من الآية الكريمة أقوال أرجحها عندى وأبعدها عن الخلاف بين المعتزلة وغيرهم، أن المعنى: دعاء عليهم، أى قولوا لهم ذلك صرف الله قلوبكم، أو صرفكم عن الخير والهدى مجازاة لكم على أفعالكم ولا غرابة فى هذا المعنى بل هو مقبول.

وقال بعض العلماء: صرف الله قلوبهم عن كل رشد وخير وهدى وقال بعضهم: صرفها الله وطبع عليها بكفرهم.

﴿بأنَّهُم قومٌ لا يفقهُونَ﴾

أى: صرف الله قلوبهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما يصلحهم وما يدفع عنهم عذاب الله فى الدنيا والآخرة.

﴿لقدْ جاءكُم رسُولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ عزيزٌ عليْهِ ما عنِتُّمْ حريصٌ عليْكُم بالمُؤمنينَ رءُوفٌ رحيمٌ﴾.

المعنى العام لهذه الآية الكريمة هو: أن هذا الرسول منكم فما يحصل له من عز وشرف مكانة فهو لكم، فإذا أمركم بأمور رأيتم فيه صعوبة أو مشقة فاصبروا واحتملوا فذلك في صالحكم واقبلوا كل التكاليف فإن قبولها هو الذى يضاعف حسناتكم.

وقد وصف الله رسوله ﷺ فى هذه الآية بخمس صفات هى:

- أنه من أنفسكم أى بشر مثلكم.
- وأنه عزيز عليه ما عنتم، أى عزيز عليه عنتكم وما يشق عليكم.
- وأنه حريص عليكم، أى حريص على أن يوصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة، حريص على هدايتكم وإدخالكم إلى الإيمان.
- وأنه رءوف بكم: أى مبالغ فى رأفته وتيسيره.
- وأنه رحيم بكم: أى مبالغ فى شفقته عليكم.

ومجمل هذه الصفات أنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

أى: إن تولى عنك المشركون والمنافقون وأعرضوا عن نصرتك وعن قبول التكاليف، فلا ينبغى أن يدخل فى قلبك حزن فقد أديت ما عليك وهو البلاغ وقد بلّغت.

﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾

أى يكفينى الله تعالى نصرةً وإعانةً وولايةً، وما يحزننى أن تتخلوا عنى.

﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾.

هذا تأكيد لمعنى حسبى الله، فإذا كان لا إله إلا هو وجب أن يكون كل الأمور بيده، وإذا كان كل شىء بيده فهو حسبى.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾.

أى: لا أتوكل إلاّ عليه ولا أعتمد فى كل شئونى إلا عليه ومن توكل على الله كفاه.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

- العرش أعظم المخلوقات، فيدخل فيه ما دونه من المخلوقات.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروسا وعبراً لاتستقيم حياتهم إلا بها، ذلك أن آيات القرآن الكريم منهج قويم لهذه الحياة الدنيا، وبغير ما تتضمنه هذه الآيات من نظم وقيم لا يمكن أن تصح للناس حياة، إلا حياة يبطش فيها القوى بالضعيف ويفرض عليه ما يشاء ويضربه بأسلحته المتطورة وقتما يشاء ويحظر عليه الطيران والأدوية والعلاج كما يشاء، وإن عورض هذا الطاغية أيده مجلسى أمن الأمم المتحدة، فإن حدثت أحدا نفسُه أن يقول، لهذا الظلم: لا، استعمل الطاغية حق النقض والاعتراض «الفيتو»!!!

وحسبك بما يطلقُ هذا الطاغيةُ على من أراد ظلمه والبطش به من زبانية اليهود والصرب والروس وهم وحوش كاسرة لم تعرف الإنسانية إليهم سبيلا، ولا هى بقادرة يوما على أن تدخل قلوبهم فضلا عن عقولهم فضلا عن أيديهم وأسلحتهم وبطشهم...

لأن حياة الناس الذين يتوهمون أنهم يعيشون فى ظل وثيقة حقوق الإنسان، يريدون فى كل يوم انتهاكا لحقوق الإنسان ممن يزعمون أنهم رعاتها ودعاتها!!!

فلو سادت قيم الإسلام ومبادئه لاستقامت حياة الناس دون هيئة الأمم المتحدة ودون مجلس أمنها الموقر.

ومن أراد أن يعرف حقيقة الأمم المتحدة وحقيقة ما تهدف إليه فإنى أنصحه بتتبع ما تصدره من قرارات يتضح فيها الكيل بمكاييل متعددة لا بمكيالين كما نقول، والحديث فى ذلك ذو شجون وشئون وهموم [1].

يستفيد المسلمون كثيرا من الدروس عند تدبر هذه الآيات، ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلى:

---

(١) أنصح بقراءة كتاب: خمس سنوات فى بيت من زجاج للدكتور بطرس بطرس غالى الأمين العام السابق لهيئة الأمم المتحدة، ففيه دلالات ودلالات.

أولا:

يتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿...وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يلي:

١ ـ أن الله تعالى يتجاوز عن صغائر ذنوب عباده، ومخالفتهم للأَوْلَى، رحمة منه وفضلا.

وأنه سبحانه يتجاوز عمن يصدقون فى أقوالهم ونواياهم ولا يبحثون عن معاذير يبررون بها تقصيرهم.

وأنه سبحانه يفتح باب التوبة أمام من يتوب بصدق وإخلاص سواء أولئك الذين لم يشاركوا فى جيش العسرة لتخلفهم بأعذار أو الذين تخلفوا ولم يكن لهم فى التخلف عذر ولكنهم ندموا وتابوا وصدقوا رسول الله ﷺ وتقبلوا عقابه وهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

* ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يكلف المسلمين إلا ما فى وسعهم وأن من قصَّر منهم وندم وجد باب التوبة مفتوحا أمامه ووجد رحمة الله تتسع لتجاوزاته.

٢ ـ وأنه لا يجوز لمسلم قادر على الجهاد فى سبيل الله أن يتخلف عنه، وإلا أثم وخالف الله ورسوله ﷺ وأساء إلى مجتمعه المسلم بل أمته الإسلامية كلها، لأن الجهاد حماية لهما من الأعداء الذين يتربصون بها الدوائر.

ويتعلم المسلمون من ذلك أن الجهاد من أهم فرائض الإسلام بل هو ذروة سنام الإسلام، ما تركه قوم إلاذ لوا، كما هو حال الدول المسلمة اليوم!!!

* وأن كل ما يصيب المجاهدين فى سبيل الله من ظمأ أو تعب أو جوع فإن لهم على الصبر عليه أحسن الجزاء.

* وأن كل موطئ قدم يطأ المجاهد بها أرضا يغيظ الكفار أن يكون للمسلمين قدم فيها، وأن كل نصر يحققه المجاهدون على أعداء الله، كل ذلك يكتب لهم عملا صالحا، ولهم عليه أحسن الجزاء.

* وأن كل نفقـة ينفقها المجـاهد فى سبيل الله مـهما صـغرت وكل خطوة يخطوها المجاهد في سبيل الله مهـما سهلت تكتب لهم عملا صالحا يستـحق عليه أحسن الجزاء كذلك.

٣ ـ وأن من الجهـاد فى سبيل الله تعالى أن يتـفرغ من كل فرقـة من المسلمين طائفة ليتفهقوا فى الدين، وليقوموا بواجب الإنذار والتحذير، الإنذار بعقاب الله لكل مخالف والتحذير من الوقوع فى المعاصى والأخطاء.

* ومعنى ذلك أن التفقه فى الدين جهاد أو كـالجهاد، وأن مداد العلماء قريب الشبه من دماء الشهداء وأن كلاً مِنَ العالم والشهيد له عند الله أجر عظيم.

* وأنه لن تقوم للمسـلمين قائمة حتى يبرعوا فى العلم ويتفوقوا فيه، ويعلموه غيرهم من الناس حتى يشيع العلم ويتقدم ويوظف لصالح المسلمين.

* وأن تعاونا وتناوبا يجب أن يتم بين العلماء والمجاهدين فى سـبيل الله فى معركتى السلم والحـرب بمعنى أن هؤلاء ينوبون عن أولئك فى خوض المعـارك، وأولئك ينوبون عن هؤلاء فى خوض بحار العلم وبحوثه ومعامله وأجهزته وسائر وسائله.

ثانيا:

ويتعلم المسلمون من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً...﴾ الآيات إلى قولـه تعالى: ﴿... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ما يلى:

١ ـ أن قتـال الكفار الذيـن يلون ديار المسلمين أصل من الأصول التى يـقوم عليـها الجهاد فى سبيل الله، بل من الدعائم التى يقوم عليـها الإسلام نفسه، فالكفار أعداء الله وأعداء الحق وأعداء العدل وأعداء المسلمين، فإذا كانوا مع كل ذلك يعيشون على حدود بلاد المسلمين فلابد من قـتالهم وقاية للمسلمين من شـر عدو قريب متربص واسـتجابةً لأمر صريح من الله تعالى.

* ولابد أن يكون قتـالهم مكافئا لشـرهم وغدرهم وتربصهم بـالمسلمين، فلابد من الغلظة معهم وترك التهـاون بشئونهم واللين معهم والصبر عليـهم حتى يبدأوا العدوان، إنهم أشرار لا يجوز التعامل معهم إلا بالغلظة.

وقتال هؤلاء نظام جاء به الإسلام ليؤمن للمسلمين حياتهم فى ديارهم.

* وكلما اتسعت ديار المسلمين وجب قتال الذين يلونهم من الكفار فى الديار طلبا للأمان وحسما لأسباب الشر والفساد.

* وفى هذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً...﴾ ردّ مفحم على أولئك المتخاذلين المقهورين المهزومين من الداخل الذين يقولون: إن الجهاد ما شرع إلا لردّ العدوان فقط.

٢ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن أعداء الإسلام سوف يظلون يستهزئون بالمسلمين وبالقيم التى جاء بها القرآن الكريم لأن ذلك من شأنهم ومن أهدافهم، والهجوم على السنة النبوية هدف آخر من أهدافهم التخريبية لفكر المسلمين وثقافتهم وقيمهم وأخلاقهم.

* ولابد أن يدرك المسلمون أن عقد صلة بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية تلاوة وقراءة وتدبرا وتطبيقًا عمل حيوى جوهرى فى حياة المسلمين، إن آيات القرآن الكريم - والسنة موضحة لها - تزيد المؤمنين أيمانا، أو هكذا يجب أن تفعل فى نفوسهم، فمن لم تزده آيات القرآن وكلمات السنة إيمانا فليراجع نفسه وليتق الله ربه، فلعله أُتى من قِبَل أعداء الإسلام الذين يهونون من شأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فليتدارك أمر نفسه وليعكف على تلاوة كتاب ربه وسنة الرسول الخاتم المعصوم ﷺ.

* وأن المنافق هو الذى إن استمع إلى آيات الله زادته كفرا على كفره وفجورا على فجوره، ولا عجب فى أن يكون كذلك فهو إنسان فى قلبه مرض!!!

٣ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن المنافقين لا يتعظون بما يحيط بهم، ولا يحسنون الاستفادة مما هو واقع بهم، ولا عجب أيضا فهم فى قلوبهم مرض.

* إن الله تعالى يبتلى المنافقين كما يبتلى المؤمنين، لكن المنافق لا يتعلم من المحنة والابتلاء ولا يتوب، بل لا يتذكر أن هذه المحنة أو تلك الفتنة قد أصابته مرة أو مرتين، إنهم كما تصفهم الآية الكريمة: ﴿لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أما المؤمنون إذا ابتلوا أو امتحنوا فإنهم يعلمون أن هذه المحنة للتمحيص ولاختبار الإيمان والصبر ويذكرون قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا

يفتنون﴾ [العنكبوت:٢]. ويصبرون في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا الله وأولئك هم المتقون.

* وإن المنافقين سوف يستمرون على عداوة المسلمين ما عاشوا على الأرض، كانوا كذلك في حياة رسول الله ﷺ وسيظلون كذلك أبد الآبدين.

٤ - ويتعلم المسلمون من هذه الآية الكريمة وبخاصة الآيتان اللتان ختمت بها السورة أن من وظيفة النبي الخاتم ﷺ أن يقوم بأمور جوهرية لها صلة وثيقة بمصالح المسلمين في كل زمان ومكان، وهذه الوظيفة أو الوظائف مارسها الرسول ﷺ من يوم كان يعيش بين المؤمنين يكلمهم ويعلمهم، ويزكيهم، ثم استمرت بعد التحاقه بالرفيق الأعلى حيث ترك لهم ما إن أخذوا به لن يضلوا أبدا وهو كتاب الله الكريم وسنته ﷺ.

وتلك الأمور الجوهرية من وظائف النبي ﷺ - كما أوضحتها هذه الآية الكريمة - هي:

أ - أنه ﷺ يعز عليه كل أمْرٍ أو عمل يشق على المسلمين، لذلك لم يطالبهم أبدا بما يشق عليهم في دينهم أو دنياهم، وإنما أعلن كثيرا أن الدين يسر لا عسر فيه، وأن أحد من الناس لا يستطيع أن يشادَّ الدين إلا أصبح مغلوبا مهيضا، ودعا إلى الرفق والترفق في كل شيء.

ب - وأنه ﷺ حريص على أن ينفعهم في كل ما يطالبهم به، نفعا دينيا ودنيويا، وعلى أن يحول بينهم وبين ما يضر بدينهم أو دنياهم، ولذلك أوضح بقوله وعمله أن هذا الدين جاء لجلب المصلحة ودفع المضرة في كل تشريعاته وكل قيمه وأخلاقه وآدابه.

جـ - وأنه ﷺ رءوف بالمؤمنين رحيم بهم، وقد كانت سيرته كلها ﷺ تفيض رأفة ورحمة وحنانا على أمته كلها صغيرها وكبيرها ضعيفها وقويها، نسائها ورجالها، وما من موقف من المواقف التي مرَّ بها ﷺ وهو يتعامل مع أحد المسلمين إلا وكانت الرأفة والرحمة هما الطابع المميز لتعاملاته كلها.

٥ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن الرسول ﷺ - على الرغم من صفاته العظيمة وخلقه الفاضل ووظائفه الإنسانية في الناس، قد لا يجد بكل هذا العطاء والسماحة من يقبلون عليه وعلى ما يدعوا إليه، بل يجد معرضين عن هديه وإصلاحه

لهم، فكان ذلك يشق عليه ـ كما يتضح ذلك من سيرته ﷺ ـ فعلّمه الله تعالى فى هذه الآيات ألا يحزن ولا يتـألم لإعراض الناس عنه وتوليـهم عما يدعـوهم إليه، لأنه أدّى وظيفته أو وظائفه وبلّغ الناس ما أمره الله بتبليغه، وأوضح له ماذا يقول إزاء هذا الموقف وهو: حسبى الله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

وهى كلمات تقال عند الشدة وعند التخويف والتهديد وعند إيقاع الشر.

قالهـا إبراهيم عليه السـلام عندما ألقى فى النـار، فكانت النار بردا وسلامـا عليه، وقالها مـحمد ﷺ وأصحـابه عندما قيل لهم: إن الناس قـد جمعوا لكم فـاخشوهم، فقالوا حسبنا الله فانقلبوا بنعمة من الله وفضل.

وهى حتى اليوم وإلى أن يشاء الله مـقولة كل مظلوم، ليرفع الله عنه الظلم أو يدخر له أعظم الجزاء يوم القيامة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

كثيرة ونافعة تلك المواقف التربوية التى يتعلم منها الدعاة إلى الله والحركيون فى هذه الآيات الكريمة.

وإذا كان الدعاة إلى الله والمنطلقـون بالإسلام فى الناس والآفاق تعترضهم الـعقبات وتقوم دونهم ودون ما يريدون عوائق يضعـها الظالمون والباطشون؛ ومن أجل ذلك فهم بحاجة مستمرة إلى مواقف يتعلمون منهـا دروسا يستفيدون من رؤيتها أو السماع عنها، وهذه المواقف وما فيها من دروس هى رصيد الدعـاة الذين ينفقون دائما، الرصيد الذى لا ينفد ولا يبـخل أن يمدهم كل يوم بالجديد الذى يعينهم عـلى شق طريقهم، لو أنهم تدبروا فى هذه المواقف والدروس.

وتلك المواقف والدروس من السابقين لمن يجيـئون بعدهم على نفس الطريق سنة من سنن الله تعـالى، فـقد قـص الله تعالى علـى رسوله ﷺ سـيـر أسـلافه من الأنـبيـاء والمرسلين، وما كان بينهم وبين أقوامـهم، وأعلن له جدوى التدبر فى هذه الدروس فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

* والدعاة ورثـة النبى ﷺ فى تبليغ دعوة الله فليكن لـهم فى سيـرة الرسول ﷺ، ولتكن لهم فى هذه الآيات الكريمة نظرة تدبر وتأمل ليستفيدوا من هذه الدروس.

ومن تلك الدروس التى يتعلمها الدعـاة إلى الله من هذه الآيات الكريمة ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

أولا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية والتربويون من قول الله تعالى: **﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾** الآيات إلى قوله تعالى: **﴿... وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** ما يلى.

١ ـ أن الله تعالى قد تاب ـ أى عفا ـ عن نبيه ﷺ فى اجتهاده حين أذن لبعض أولى الطول أن يتخلفوا عن المشاركة فى غزوة تبـوك، وكانوا قد كذبوا فى أعذارهم، فقال له سبحانه وتعالى: **﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾** [الآية: ٤٣] من هذه السورة الكريمة.

* وعفا الله عن بعض الصحابة رضوان عليـهم وتاب عليهم مهاجرين وأنصارا حين تثاقلوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ثم لحقـوا بالركب، وذلك أن بعضهم استمع إلي تهويل المنافـقين فى قوة الروم، ثم ثَبَّتَ الله قلوبهم فـشاركوا فى الخـروج للقائهم على الرغم من هذا التخذيل وذلك التخويف، فتاب الله عليهم.

* ويتعلم الدعاة إلى الله من ذلك أن التسامح مع المدعويين والرأفة بهم هو الأسلوب النبوى الهادئ المعلم فى التعامل مع المقصرين ومن يقدمون الأعذار.

وما أيسر أن يقصـد أحد المدعوين فى عمل من أعمال الدعوة، ومـا أسرع ما يقدم اعتذارا، وعندئـذ يجب أن يقابل بالتسامح وقـبول العذر، بدلا من العتـاب أو الحساب والمساءلة.

وأحيانا تكون المساءلة مقبولة عند من لـه سابقة عمل في الدعوة، وله به حصانة من أن تغضبه هذه المساءلة.

* وعلى الدعـاة إلى الله أن يضعوا فـى اعتبـارهم أن قلوب الناس بين أصبـعين من

أصابع الرحمن وأنه يقلبها كيف يشاء وأن أحدهم قد يمسى مؤمنا ويصبح كافرا أو يمسى كافراً ويصبح مؤمنا، ولذلك يجب التعامل معهم من خلال هذا الاعتبار، قائلين لأنفسهم: إذا كان الله تعالى قد تاب عليهم من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، أفلا نكف نحن عن الحساب والمساءلة؟

٢ ـ وأن غزوة تبوك كانت فى وقت العسرة، أى الشدة حيث اجتمع على المسلمين فى هذه الغزوة عُسْرة الظهر ـ أى ما يركب ـ وعسرة الماء، وعُسْرة الحر والقيظ.

وقد وصف عمر بن الخطاب رضى الله عنه حال المسلمين فى هذه الغزوة فقال عندما سئل عن ساعة العُسرة.

خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثَهُ فيشربه، ويحمل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا، قال: «أتحب ذلك» قال نعم، فرفع رسول الله ﷺ يديه فلم يرجعها حتى أظلت السماء، ثم سكبت، فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

فهذه إحدى الحوادث الدالة على رحمة الله للمسلمين الذين اتبعوا النبى ﷺ فى ساعة العسرة.

وهناك حادثة أخرى رواها مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قالا: كنا مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك، فأصاب الناس مجاعة وقالوا يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا [١] فأكلنا وادَّهَنَّا؟

فجاء عمر ـ رضى الله عنه وقال: يا رسول الله، إن فعلوا قَلَّ الظهر، ولكن ادعهم فليأتوا بفضل أزوادهم، فادع الله عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل فى ذلك البركة.

قال رسول الله ﷺ: نعم، ثم دعا بنطع [٢] فبسط، ثم دعا بفضل الأزواد، فجعل الرجل يجىء بكفِّ ذرة، ويجىء الآخر بكف تمر، ويجىء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير، قال أبو هريرة رضى الله عنه: فحرزته فإذا هو قد

(١) الناضح: هو البعير الذى يحمل الماء، ثم أطلق على كل بعير وإن لم يحمل الماء.
(٢) النطع: بساط من الجلد.

رُبضَة عنز (١)، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال ﷺ: «خذوا فى أوعيتكم».

فأخـذوا فى أوعـيتهـم حتى - والذى لا إله إلاَّ هو - مـا بقى فى العسكـر وعاء إلاَّ ملئوه، وأكل القوم حتى شبعوا، وفضلتْ فضلة، فقال النبى ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقى الله بهما (٢) غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة».

* وهاتان الحادثتان؛ نزول الماء وزيادة الطعام بـفضل دعائه ﷺ - من النعم التى أفاء الله بها على عباده الذين اتبعوا رسول الله فى ساعة العسرة، وهو معنى من معانى التوبة عليهم والعفو عنهم وقبولهم.

وفى هاتين الحادثتين وما أحاط بهما دروس للدعاة إلى الله الذين يتأملون ويتدبرون.

* ويتعلم الـدعاة إلى الله والحركـيون والتربويـون من ذلك وعليهم بعد تـعلمهم أن يعلمـوا الناس، أن باب التـوبة واسع، وأن باب الرحـمـة أوسع من باب التـوبة، لأن رحمته سبحانه وتعالى وَسعَتْ كل شىء (٣).

* إن الدعـاة إلى الله يجب أن يحيـوا بذلك الأمل فى قلوب المقـصـرين، والذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب.

بل على الدعاة إلى الله أن يـزرعوا الأمل فى رحمـة الله فى قلوب الناس جميـعا، وبخاصة من قَصّر منهم فى شىء.

ذلك شأن الدعـاة إلى الله لا ينفكون عنه بحال، لأن لهم فى ذلك القدوة بالمعـصوم ﷺ.

٣ - ويستطيع الدعـاة إلى الله بما أوتوا من حِسّ دعوى معـروف عنهم، وبما أفاء الله عليهـم من قدرة على التعلـم والتّأسِّى، التقاط مـواقف العظة والاعتـبار من كل قـصة وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فيـستطيعـون أن يجدوا فى قـصة الثلاثة الذين خلفـوا، حتى إذا ضاقـت عليهم بما رحبت وضاقت عليهم أنفـسهم، وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه - وهؤلاء الثلاثة كما

---

(١) فى حجم العنز وهى رابضة، أى طوت قوائمها ولصقتها بالأرض.

(٢) أى بالشهادتين.

(٣) أى كل الذنوب والمعاصى ما دامت هناك توبة وإنابة.

ذكرنا آنفا هم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية - أن يجدوا فى التدبر فى قصتهم زاد وأى زاد!!! يعينهم على هداية الناس وتوجيههم نحو التوبة والإنابة.

وقصتهم مفصلة فى كل أمهات كتب التفسير وأمهات كتب السيرة النبوية وأمهات كتب الحديث النبوى الشريف [1].

*** بل يجد الدعاة إلى الله دروسا وعظات فى فرض الله تعالى الجهاد على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، وما أثابهم عليه من جزيل الثواب عندما استجابوا فكافأهم على كل نفقة ينفقونها صغيرة أو كبيرة وكل خطوة يخطونها فى سبيل الله وكل موطئ قوم يغيظ العدو أن يحتله المسلمون، وكل إصابة يصيبون بها الكفار، كافأهم على ذلك وجزاهم أحسن ما كانوا يعملون.**

يجد الدعاة إلى الله فى ذلك من الدروس والعبر فى تعامل الناس مع ما أمر الله به وما نهى عنه من أن طاعة الله تعالى فى ذلك هى خير الدنيا وأحسن جزاء الآخرة.

* إن الدعاة إلى الله يجدون فى ذلك زادا عظيما يهيئ لهم أن يتفقهوا فى الدعوة إلى الله أحسن تفقه، وأن يدركوا كيف تكون الحركة بالإسلام فى الناس والآفاق مقرونة بالجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

* إن كلمة واحدة من هذه الآيات لتمثل بحرًا زاخرًا من العلم والفقه والعمل والإخلاص والجهاد والتضحية والثبات والتجرد مثل: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ و ﴿لَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ و ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و ﴿لَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ و ﴿لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾.

* إن هذه الكلمات القرآنية نبراس فى مجالات العمل من أجل الإسلام، وكل واحدة منها يستحق صاحبها التقدير وحسن الجزاء من الله تعالى، وهى فى مجموعها تمثل المنهج الذى يجب أن يقوم المجاهد في سبيل بالتزامه ليعلى كلمة الله، وليمكن

---

(١) من كتب التفسير: تفسير الطبرى والفخر الرازى والزمخشرى وابن كثير والقرطبى، وغيرها.

ومن كتب السيرة: سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية، وإمتاع الأسماع للمقريزى، وسبل الهدى والرشاد للصالحى، وغيرها.

ومن كتب الحديث: صحيح البخارى: باب حديث كعب بن مالك، وصحيح مسلم باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، وكل كتب السنة النبوية المطهرة.

لدين الله فى الأرض، وليحظى بأحسن الجزاء عند الله تعالى.

* وإن الدعاة إلى الله أولى الناس بأن ينظروا إلى هذه الآيات وتلك المواقف التى تضمنها، ويوجهوا ويضعوا الخطط والمناهج ويسيروا فى الدعوة إلى الله وفى الحركة بدينه على هداها.

٤ - ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

* أن الدعاة إلى الله مجاهدون وهم يمارسون الدعوة إلى الله بالأسلوب الذى فضله الله وهو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وبالوسائل التى كان رسول الله ﷺ يتبعها فى الدعوة إلى الله وبسعة الصدر والرحمة وقبول الأعذار.

* وأن العاملين فى الحركة الإسلامية مجاهدون وهم يتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق، ينقلون إلى الناس قيم الإسلام وأخلاقه وآدابه، وأحكامه فى السلم والحرب، ومع المسلمين فيما بينهم ومع المسلمين فى تعاملهم مع غير المسلمين.

* وأن الذين يقومون على التربية الإسلامية مجاهدون سواء أكانوا يخططون لها أو يحددون أهدافها ووسائلها أو يكشفون عن قيمها وأخلاقياتها أو كانوا من الذين يطبقون التربية الإسلامية على أنفسهم وذويهم أو على الناس صغارا وكبارا.

* وأن الذين يسهمون فى أى عمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض مجاهدون، سواء أكانوا فى مجال العلم أو الفن أو التقنية أم كانوا فى أى مجال له صلة بالتمكين لدين الله فى الأرض.

* وأن لهؤلاء جميعا أجر المجاهدين عند الله تعالى ما داموا مخلصين في عملهم مستمرين فى أدائه، مرغّبين للناس فى الإقبال على الله تعالى ودينه ومنهجه ونظامه.

- وذلك أن الآية الكريمة دالّة - كما أسلفنا - على أن الجهاد فى سبيل الله بالكلمة والحجة وإزالة الشبهة ودفع التهمة كالجهاد بالسيف والآلة العسكرية كلها، وكل عامل من أجل الإسلام فى أى مجال من مجالات العمل ميسر لما يجيد ويحسن من هذا العمل ومجازًى عليه من الله تعالى.

روى الإمام مسلم بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كان رسول الله

ﷺ ذات يوم جالسا، وفى يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار»، قالوا يا رسول الله فلمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، ثم قرآ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾».

الدعاة ميسرون للدعوة والمجاهدون ميسرون للقتال، والعلماء ميسَّرون للبحث والدرس وتبيين ذلك للناس، وكل ذى صنعة ميسّر لهذه الصنعة، وكل هؤلاء العاملين ما داموا يتوجهون بعملهم إلى الله قد خلصت نواياهم فيه فهم مجاهدون يستحقون عند الله أجر المجاهدين.

* والأصل أن تتفرغ طائفة من كل فرقة من فرق المسلمين لتتفقه فى الدين، ويتخصص أفرادها فى علوم الدين ومعارفه وثقافاته وتاريخه، يتفقهون فى الدين وعلومه ليقوموا بعملين حددتهما الآية الكريمة هما:

- التفقه فى الدين بحيث لا يبقى من عقائده وعباداته وأخلاقه ومعاملاته ما هو مجهول لهؤلاء العلماء.

- وإنذار الناس بتخوفيهم من معصية الله ومخالفة منهجه ونظامه، لعلهم بهذا الإنذار يحذرون المخالفة والمعصية.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس دقيقه من دقائق الجهاد تخفى على كثير من الناس وهى:

وجوب التناوب بين العلماء والمجاهدين وسائر العاملين فى ميادين الجهاد، لأن الجهاد عندما يكون فرضا عينيًا فلن يعفى من القيام به إلا العاجزون عن القيام بأعبائه، فلا بُدَّ أن يكون كل مسلم قد أعد نفسه للجهاد وتدرب عليه وشارك فيه، ورأى فى ميادينه ما يقدمه المجاهدون من صبر واحتمال وثبات وتضحيات وتجرد لهذا الدين، عندئذ يزداد فقها لهذا الدين، ومعرفة لأهدافه ومراميه، ومتطلباته فى ميداين القتال، فإن عادوا من ميادين القتال بعد خوض هذه التجربة فمارسوا أعمالهم وتخصصاتهم، بالإضافة إلى أن ينذروا ويحذروا فذاك هو الأصل، أى: تبادل المواقع كل فى حدود علمه وعمله وإمكاناته.

* فإن قعدت طائفة من كل فرقة بعد المشاركة فى ميادين القتال ليتفقهوا فى الدين ثم يعلموا ويحذروا وينذروا، فذاك. ولأن دين الإسلام هو الدين الخاتم فلا أديان بعده فقد جاء شاملا كاملا تاما يشتمل على كل عمل يحتاج إليه المسلمون فى نشر هذا الدين وتطبيق منهجه على الحياة والأحياء، إذا لا يستقيم شأن الناس فى دنياهم ودينهم إلا إن كانوا قادرين على ممارسة كافة المفردات التى يتطلبها العمل على تمكين دين الله فى الأرض.

* وعلى الدعاة إلى الله أن يوضحوا للناس أن الجهاد فى سبيل الله مدرسة كبرى -أو جامعة بلغة عصرنا- يتعلم فيها المسلمون من فقه الدين ومن متطلبات الجهاد ما لا يمكن أن يدركوه لو قعدوا مع الكتب والدراسات والمحاورات دون أن يخوضوا معركة من معارك الجهاد فى سبيل الله.

ثانيا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ما يلى:

١ - أن الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، يعنى أن تُخلى الأرض كلها مما فيها من المشركين، لأن الشرك أكبر جريمة يرتكبها الإنسان فقد مَنَّ الله عليه؛ بأن أرسل الأنبياء والرسل، ومنَّ عليه بنعمة العقل؛ الأنبياء ليبلغوه عن ربه وجوب عبادة الله وحده لا شريك له والتلقى عنه وحده سبحانه، والعقل ليميز به بين الحق والباطل والإيمان والشرك والهدى والضلال.

ومع هاتين النعمتين العظيمتين فلا مبرر لشرك مشرك ولا لكفر كافر، لذلك كان من صالح التجمع البشرى والمجتمع الإنسانى أن تُخْلَى الأرض من المشركين والكفار، لينعم الناس بحياتهم بعيدا عن الشر والإثم والظلم والعدوان، إذ كل الآثام والمعاصى خارجة عن عبادة الشرك، والمشرك أو الكافر أضر على الناس من المرض العضال، ومن الوباء،

ومن القحل والمحل [1]، وحسبه شرًا أنه أنكر ربه وكذب رسله وأنكر عقله، وانطلق مع أهوائه وشهواته.

ـ والإسلام حين أمر بتطهير الأرض من المشركين، وضع للمسلمين نظاما فى هذا التطهير.

فطالب بقتال الكفار الذين يلُون المسلمين، فإذا أجلوهم عن الأرض بقتل أو أسر أو هروب من مواجهة، وأصبحت هذه الأرض للمسلمين، بدأوا فى تطهير الأرض المجاورة من الكفار الذين يلونهم وهكذا، كلما اتسعت رقعه الأرض التى فى حوزة المسلمين وجب عليهم أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وهكذا حتى تتسع رقعة الدولة المسلمة فتشمل الأرض كلها فلا يكون على ظهرها مشرك، مع ضرورة أن يكون القتال مع الكفار شديدا وفيه غلظة، ويكون تطهير الأرض من الشرك عاما شاملا، بحيث لا يقبل من الكافر إلا أن يتوب عن كفره ويثوب إلى عقله وصوابه فيهتدى إلى دين الفطرة فيدخل فيه مختارا طائعا متقربا إلى الله بما افترض عليه من فرائض، فإن لم يفعل علم أن المسلمين مقاتلوه لا محالة.

تلك من وظائف المسلمين بعد أن منّ الله عليهم بالإسلام خاتم الأديان وأتمها وأكملها.

* إن هذا الفقه للجهاد هو الأقرب إلى طبيعة هذا الدين الخاتم المهيمن على الدين كله، كما قال الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...﴾ [المائدة: ٤٨].

إن هذا الدين الخاتم دين دعوة وحركة وجهاد، ودين إعمار للأرض بمبادئ الإسلام وقيمه وثقافته وحضارته.

* أما أولئك المغلوبون من المسلمين الذين رضخوا لقوى الشر وانهزموا أمامها، فما غُلبوا ولا قهروا ولا انهزموا إلا لأنهم تركوا الجهاد فى سبيل الله، وقصروا فى قتال الذين يَلُونهم من الكفار حتى قوى أمر الكفر والكافرين فغلبوا المسلمين، وهؤلاء

(١) القحل: العطش واليبس ونفد الماء، والمحل: الجدب والجفاف.

المسلمون المنهزمون يريدون أن يعتذروا عن قعودهم بأن الإسلام شرع الجهاد في سبيل الله لنشر دينه والحركة بمنهجه فى الناس والآفاق؛ فقالوا متخاذلين: إن الجهاد فى الإسلام ما شرع إلا دفاعا عن النفس ضد أى عدو يعتدى!!!

إن هؤلاء المهزومين من المسلمين بحاجة إلي تدبر فقه الجهاد، ابتداء من نزول قوله تعالى فى أول ما شرع الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

وانتهاء بسورة براءة وما نزل فيها من قتال المشركين وتطهير الأرض من الكفر والكافرين بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

إن هذا التدبر فى آيات الجهاد فى القرآن الكريم وفى أحاديث الجهاد فى كتب السنة النبوية المطهرة [1] هو الذى يتيح لهم الفقه الصحيح.

٢ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾ ما يلى:

١ ـ أن المنافقين شأنهم فيما بينهم أن يستهزئوا بالمسلمين ويتندروا بهم كلما أنزلت سورة من السور القرآنية، يقولون فيما بينهم متندّرين بها: أيكم زادته هذه السورة إيمانًا بعد نزولها؟ منكرين لذلك.

---

(١) انظر للمؤلف ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به ـ من سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا ـ نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م.

والحق أن هذه الآيات وتلك السور تزيد المؤمنين إيمانا.

ـ كما أوضحنا فى شرحنا للآية ـ ولكنها تزيد المنافقين مرضى القلوب رجسا إلى رجسهم فيموتون على الكفر ـ كما شرحنا ذلك أيضا.

٢ ـ وأن المنافقين قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون شيئا، حتى إن الفتن التى يعرضهم الله تبارك وتعالى لها، لا يستفيدون منها شيئا مع تعرضهم لها فى العام الواحد مرة أو مرتين، ولكن النفاق يعمى قلوبهم فلا يتوبون عن خطاياهم ولا هم يتذكرون ما وقع بهم من أحداث !!!.

* إن الدعاة إلي الله يعلمون بعد هذا البيان مزيدا من صفات المنافقين ليَحْذَروهم ويحذِّروا المسلمين منهم، ومن أن تكون لأحدهم بعض هذه الصفات.

إن معنى ذلك أن المسلم إذا مرَّت به فتنة أو محنة فلابد أن يتعظ وأن يعتبر، وأن يتوب عن خطاياه، وأن يتذكر أن المحن والفتن لتمحيص المؤمنين واختبار صدق إيمانهم ومدى صبرهم، وقدر استفادتهم منها.

أما المنافقون فلا يتوبون ولا هم يتذكرون.

٣ ـ وأن المنافقين خبثاء جبناء، يطعنون فى محمد ﷺ، ويتأذون بما يسمعون من القرآن الكريم، وينظر بعضهم إلى بعض نظرا استهزاء بالقرآن وبهذه السورة ولمحمد ﷺ، ويحاولون الانصراف من المسجد قائلين بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد؟ ثم ينصرفون عن المسجد، وقد صرفت قلوبهم عن الحق وعن الهدى.

* إن الدعاة إلى الله وقد عرفوا من القرآن الكريم هذه الصفة فى المنافقين؛ عليهم أن يدققوا ويتمهلوا فى التعامل مع أولئك الذين يتعجلون الخروج من المساجد والذين يتهامسون فيها، فإن هذه من صفات المنافقين.

وموقف الدعاة إلى الله مع هؤلاء العجلين المتهامسين يجب أن يكون الصبر عليهم، والترفق بهم هو خلق الدعاة إلى الله أسوة برسول الله ﷺ فى تعامله مع المنافقين، فإن اهتداءهم إلى الحق وتوبتهم عن النفاق أحب إلى الدعاة إلى الله من استمرارهم على النفاق واستزادتهم من أعماله.

وما يُستَغرب على المنافق أن يزداد رجسا إلى رجسه وأن يموت على الكفر وأن يتغامز

ويستهزئ بالإسلام والقرآن وأن يختم على قلبه فلا يتعظ بفتنة أو محنه ليتوب أو يتذكر، ولا يستغرب عليه أن يدخل المسجد ليراه الناس ليعبد الله فيه، ثم يخرج منه عجلا إن علم أن أحدًا لا يراه.

كل ذلك لا يستغرب من المنافق، لأنه لا يفقه ولا يفهم ولا يعلم أين الخطأ من الصواب ولا أين الضلال من الهدى، ولا أين النفاق من الإيمان، ولا أين العقاب من الثواب، ولا أين النار من الجنة، صدق الله فقد وصفهم بقوله ذلك: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾.

ثالثا:

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ما يلى:

١ ـ أن للرسول ﷺ وظيفة محددة هى البلاغ عن ربه سبحانه وتعالى، بشرط أن يكون منهم وبلسانهم ليبينّ لهم وتلك سنة الله تعالى فى إرسال الرسل وهى:

ـ أن يكون الرسول واحدا ممن يدعوهم، وقد كان الأنبياء جميعا هكذا، فما منهم إلا وقد وصفه الله تعالى بأنه من قومه كما جاء ذلك فى آيات كثيرة من القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ...﴾ [العنكبوت: ٢٨]، وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا...﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ...﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤)﴾ [الصافات: ٢٣ ـ ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ [هود: ٦١]، وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ [هود: ٨٤].

* وتلك رحمة من الله بعباده أن يرسل إليهم رسولا منهم أو من أنفسهم حتى ينكسر حاجز الغربة بين الرسول وقومه، وهو حاجز قوى يحول بينهم وبين قبوله فضلا عن الاستماع إليه.

ـ وأن يكون الرسول متحدثا إلى قومه بلسانهم، حتى يفهموا عنه دون وسيط أو ترجمان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ [إبراهيم: ٤]. ومتى كان الرسول يحدث قومه بلسانهم ولغتهم كان فهمهم للشريعة أيسر ووقوفهم على حقائقها أسهل، وأبعد عن الخطأ.

* فكل الرسل من أقوامهم وكل الرسل بلّغوا أقوامهم بلسان أقوامهم وهذا من تيسير الله على عباده.

* وقد ميز الله محمدا ﷺ فوق ذلك بأنه أرسله إلى الناس كافة وكانت دعوته عامة لكل البشر بمختلف ألوانهم وأجناسهم وبيئاتهم وألسنتهم [1] فى حين كانت رسالة كل رسول ممن سبقوه محصورة فى قومه ولم تأخذ صبغة عالمية أو عامة.

٢ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله أن من صفات الرسول الخاتم ﷺ التى تتصل بدعوته الناس إلى عبادة الله وطاعته تلك الصفات الأربع التى ذكرت فى هذه الآية الكريمة وهى:

ـ التيسر على الناس لا التعسير ولا التشديد.

ـ والحرص على هداية الناس بتكرار دعوتهم إلى الحق دون ملل أو يأس منهم.

ـ والرأفة: وهى الرحمة القوية والعطف على المرءوف به.

ـ والرحمة: وهى رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم.

* وهذه الصفات ضرورية لكل من يتصدى للدعوة إلى الله، بحيث لا يتوقع نجاح داعية في عمله ما لم تكن فيه هذه الصفات.

لأن الدعوة إلى الله يجب أن يحرك الداعية إلى الله بها قلب المدعو وعقله، ليقتنع ويؤمن ويتجاوب ويخلص، وذلك محتاج إلى هذه الصفات بكل تأكيد.

* وعلى كل داعية إلى الله أن يحاول ضبط سلوكه وأعماله، وأقواله لتتناسب مع هذه الصفات، وهذا جهد كبير يبذله الداعية إلى الله مع نفسه، إن كان قد مارس الدعوة إلى الله دون أن يمر بمصفاة الترشيح فالتوثيق، وهو أمر يسير على من عقد العزم

---

(١) انظر للمولف: عالمية الدعوة الإسلامية ـ نشر دار الوفاء فى طبعته السادسة: ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م.

وأخلص النيـة واتجه إلى الله مـانح النعم؛ لأن هذه الصفـات من أحسن النعم وأجـلّها وأرضاها لله تعالى

٣ ـ وأن مساندة هذه المعانى التى تضمنتها هذه الآية الكريمة: ﴿لقدْ جاءكُمْ رسُولٌ مّن أنفُسكُمْ..﴾ بالأحاديث النبوية الشريف هى من صـميم عمل الدعاة إلى الله، ليطلعوا الناس على مـواقف الرسول ﷺ وكلماته فى هـذه المواقف التى تفيض سـماحة وحبا للناس وصبرا عليهم

ـ روى البـزَّار فى مـسنده بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنـه أنّ أعرابيـا جـاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء [١] ـ قال عكرمة أراه قال فى دم [٢] ـ فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا، ثم قال: «أحسنتُ إليـك»؟ قال الأعرابى: لا والله ولا أجملتَ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كُفّوا.

فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابى إلى البيت فقال: «إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلتَ ما قلتَ».

فزاده رسول الله ﷺ شيئا، وقال: «أحسنتُ إليك»؟ فقال الأعرابى، نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا.

قال النبى ﷺ: «إنك جئتَ فـسألتنا فأعطيناك فقلتَ مـا قلتَ، وفى أنفس أصحابى عليك من ذلك شىء، فـإذا جئتَ فـقل بين أيديهم ما قلتَ بين يَدَىّ حـتى يذهب عن صدورهم» فقال: نعم.

فلما جـاء الأعرابى قال رسـول الله ﷺ: «إن صاحبكم كـان جاءنا فـسألنا فأعطيناه فقـال ما قـال، وإنه قد دعـوناه فأعطيناه فـزعم أنه رضى، كذلـك يا أعرابى»؟ فـقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا.

فقال النبى ﷺ: «إن مَثَلى ومَثَل هذا الأعـرابى، كمثل رجل كانت له ناقـة فشردت عليه، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفـورا، فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بينى وبين ناقتى، فـأنا أرْفَق بها، وأنا أعلـم بها، فتـوجَّهَ إليهـا وأخذ لهـا من قُمَام [٣] الأرض،

---

(١) أى يطلب معونته ومساعدته. (٢) أى دية دم قتيل.

(٣) أى من الطعام الملقى فى الأرض.

ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشدَّ عليها رحلها، وإنى لو أطعتكم حيث قال ما قال؛ لدخل النار».

* ولابد للدعاة إلى الله أن يقفوا طويلا ويتدبروا عميقا فى هذا الحديث النبوى الشريف فهو حافل بما هو نافع من دروس يحتاج إليها الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية.

- ومن الكلمات التى يجب أن يتدبر فيها الدعاة إلى الله كلمة النبى ﷺ :

«أحسنتُ إليك»؟

وهو سؤال يستكشف به الرسول ﷺ وقع عمله وعونه للأعرابى فى نفس الأعرابى وداخله، وهو سؤال ضرورى يؤكد للسائل وقع عمله فى نفس المدعو.

فلما جاءت الإجابة من الأعرابى جافية كطبيعة مغضبة للصحابة رضى الله عنهم، حاول الرسول ﷺ أن يستل من نفسه كل ضيق فأخذه إلى البيت فزاده عطاءً، ثم سأله نفس السؤال، فلما جاءت الإجابة: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. علم الرسول ﷺ أنه قد طاب قلب الأعرابى وبلغ حدًّا الرضا والشكر.

* هكذا يجب أن يفعل الدعاة إلى الله فى جفاة المدعوين، لا يزالون بهم حتى يستلوا من نفوسهم أى ضيق.

- وكذلك عليهم أن يتدبروا كلمته ﷺ.

«فقل بين أيديهم ما قلت بين يدىّ حتى يذهب عن صدورهم» هذه الكلمة تستهدف أن يتخلص الصحابة من غيظهم من ذلك الأعرابى الذى واجه الرسول الله ﷺ بكلمات لا تليق بمقام النبوة.

إنه صلى الله عليه وسلم يريد أن يصلح بين هذا الأعرابى والصحابة رضوان الله عليهم، لأن المسلمين ما ينبغى أن تنطوى صدورهم على غيظ أو حقد، وذلك درس عظيم للدعاة إلى الله، يجب أن يلتزموا به فى إذهاب الضيق والغيظ من صدور بعض المدعوين ليكون الحب والوئام هو الذى يربط بين قلوبهم جميعا، وإلا فكيف يتعاون المدعوون على البر والتقوى، وفى قلوبهم أو قلوب بعضهم ضيق من واحد منهم أو أكثر؟

ـ وعليهم أن يتدبروا المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ، ليعوا دلالته وأبعاده.

الناقة الشاردة: هى المدعو الذى لم يستجب لأن الصوارف والشواغل عن الحق وعن الله أقوى فى نفسه من دواعى الاستجابة وذلك شأن عدد غير قليل من المدعوّين فى كل زمان ومكان.

«فتوجه إليها وأخذ لها من قُشام الأرض»: أى لم يتركها شاردة حتى بعد أن أعجزت الناس ولم تستجب لهم.

توجَّه إليها وأخذ لهـا من قشام الأرض، فكَّر فى شأن المدعو وفيـما يعيده إلى الحق ويصرفه عن النفور فقدم له ما ينفعه وما يذهب وحشته ونفوره.

ـ «ودعاها فاستجابت» هذه دعوة ثانية غيـر الأولى التى شردت بعدها، وربما تكون دعوة للمرة الثالثة أو الرابعة، فكل تكرار للدعوة يعـمد فيه الداعية إلى أسلوب مختلف عن سابقه، فلعله ينجح فيما لم ينجح فيه سابقه.

وعندما يوافق الأسلوب رضـى المدعوّ ويذهِب الصوارف أو أغلبـها عنه يستـجيب، وهذا يرجع إلى تمكُّن الداعى إلى الله من أساليب الدعوة ووسائلها.

٤ ـ ويتعلم الدعاة إلى الله من الآية الأخيرة من السورة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

يتعلمون من هذه الآية الكريمة ما يلى:

ـ أن الذين يتولَّون عن الدعوة نوعان:

* مدعوون يرفضون دعـوة الحق ويعاندونها مستمرين فى معـاصيهم وآثامهم، وهم من أفراد الناس.

وهؤلاء يقابلهم الدعاة بالحـسنى ويقول الدعاة: حسبنا الله ونعم الوكيل، فـيما بذلنا من جهد وما حـاولنا من محاولات، وتوكلنا على الله فيما أصابنا من خـيبة وفشل فى الأخذ بيـد المدعوّين إلى الخـير وإلى طريق الحق والهـدى، توكلنا على الذى لا إله إلا هو، وهو رب العرش العظيم، فإن قولهم وتوكلهم على الله سوف يكفيهم ويعيد إليهم الأمل فى هداية هؤلاء المعاندين.

* ومدعوون يرفضون دعـوة الحق ويعاندونها ويستمرون فى رفضهـا ورفض منهجها ونظامها، وهؤلاء جماعات وحكومات.

وهؤلاء ـ فى غالب الأحيان بوجهون الضـربات العاتية للدعـاة إلى الله ولدعوة الله ومنهجها ونظامها ـ هؤلاء يتعامل معهم الدعاة إلى الله بأن يدعوا الله لهم بصلاح الحال وقبول الحق ـ ولكن كل داعـية إلى الله عليه أن يقول سراً وجهراً وقـائمًا وقاعدًا وعلى جنبه: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

روى أبو داود بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «من قال إذا أصـبح وإذا أمـسى: حسـبى الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب الـعرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه».

وفى رواية أخرى لابن عساكر بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما مِنْ عـبد يقـول: حسـبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهـو رب العرش العظيم سبع مَرَّاتٍ صادقًا بها أو كاذبا إلا كفاه الله ما أهمه».

* إن الدعاء والالتجاء إلى الله فى الرخاء والشـدة هو العلاج الأمثل لكل شعور من مشـاعر الإحسـاس بالفشل الذى قـد يعترى بـعض الدعاة إلى الله عندما يتـولى عنهم المدعوون أفرادًا وجمـاعات وأنظمة، فقد روى الحاكم فى مستـدركه بسنده عن ابن عمر رضى الله عنها قال: قال رسـول الله ﷺ: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء».

خـــاتمـــة

بحمـد الله تعالى وبالثناء علـيه بدأ هذا الكتاب بـل هذه السلسلة، وبحمـده كذلك وبالثناء عليه والشكر له نختـتم هذا الكتاب: «التربية الإسـلامية فى سورة التـوبة»؛ فقد أفاء الله علىّ من النعم وهيّأ لى من الأسـباب، ما تمكنت به بفـضل منه تعالى أن أنهى هذا الكتاب، وبه أنهيت هذه السلسلة: «التربية فى القرآن الكريم».

وأسأل الله تبارك وتعـالى وأدعوه أن ينفع بهذا الكتـاب وبتلك السلسلة كل من يقرأ ويتدبر، وأن يأجرنى على ما بذلت فى تأليفها من جهد، وأن يغفر لى ما وقعت فيه من أخطاء، لأن الكمال لله وحده، وحسب الإنسان أن يكون قدر الصواب فى علمه وعمله أكـبر من قـدر الخطأ فـيه، وحـسبى الله لا إله إلا هو علـيه توكلت وهو رب العـرش العظيم.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

على عبد الحليم محمود

القاهرة فى: ١٢ من شهر ربيع الآخر من عام ١٤٢٠ هـ

الموافق ٢٥ / ٧/ ١٩٩٩م.

موضوعات الكتاب

إهداء ٣

بين يدى هذه السلسلة ٥

بين يدى هذا الكتاب ١٢

فى أسماء هذه السورة الكريمة ١٧

ترتيب السورة فى النزول وسبب نزولها ٢١

سبب نزول هذه السورة الكريمة ٢٤

السبب فى إسقاط التسمية من أولها ٢٥

الموضوعات التى اشتملت عليها السورة الكريمة ٢٩

سورة التوبة والجهاد فى سبيل الله ٣٨

تفسير آيات السورة الكريمة ٤٦

١ ـ الآيات الكريمة من الآية الأولى إلى الآية السادسة

إعلان براءة الله ورسوله من المشركين إلا من كان له عهد فعهده إلى مدته، ثم قتالهم، مع حقهم فى الأمان حتى يسمعوا كلام الله، ثم يصلون إلى مأمنهم ٤٦

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٤٦

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٥٣

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة ٥٤

٢ ـ الآيات الكريمة من الآية السابعة إلى الآية الثانية عشرة

صفات المشركين هى التى بررت قتالهم ٥٨

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٥٨

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٦٥

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة ٦٨

٣ ـ الآيات الكريمة من الآية الثالثة عشرة إلى الآية الثانية والعشرين
تحريض المؤمنين على قتال المشركين، وطمأنة المؤمنين على نصر الله تعالى لهم ٧٤
شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٧٤
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٨٤
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ٨٦
٤ ـ الآيات الكريمة من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الثامنة والعشرين.
المفاصلة الدقيقة بين الإيمان والشرك والنفاق ٩٥
شرح الآيات الكريمة وتفسيرها ٩٥
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ١٠١
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ١٠٤
٥ ـ الآيات الكريمة من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الخامسة والثلاثين.
حدود التعامل مع أهل الكتاب، ومعالمه ١١٧
شرح الآيات الكريمة وتفسيرها ١١٧
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ١٣٢
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ١٣٧
٦ ـ الآيتان الكريمتان السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون
نظام التوقيت العادل الصالح للناس جميعا ١٤٧
شرح هاتين الآيتين وتفسيرهما ١٤٧
المواقف التربوية العامة فى هاتين الآيتين ١٥٢
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هاتين الآيتين ١٥٤
٧ ـ الآيات الكريمة من الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الحادية والأربعين.
حَثٌّ من الله تعالى للمؤمنين على الجهاد فى سبيله وتأنيبه لهم على التثاقل عن الجهاد ١٥٩

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ١٥٩
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ١٦٥
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ١٦٨
٨ ـ الآيات الكريمة من الآية الثانية والأربعين إلى الآية الثانية والسبعين.
صورة مفصلة لصفات المنافقين وأعمالهم، ومقارنة بين جزائهم
وجزاء المؤمنين عند الله تعالى ١٧٥
شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ١٧٦
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٢٠٣
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ٢١٣
٩ ـ الآيات الكريمة من الآية الثالثة والسبعين إلى الآية التاسعة والثمانين.
نداء على الرسول ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين وبيان لصفاتهم
وجزائهم، ومقارنة ذلك الجزاء بجزاء المؤمنين ٢٢٩
شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٢٣٠
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٢٤٥
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ٢٥٤
١٠ ـ الآيات الكريمة من الآية التسعين إلى الآية التاسعة والتسعين
تحديد الأعذار المقبولة فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله تعالى ٢٦٨
شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٢٦٨
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٢٧٧
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ٢٨٠
١١ ـ الآيات الكريمة من الآية المائة إلى الآية العاشرة بعد المائة.
طبقات الناس وأصنافهم حيال الدعوة الإسلامية ٢٨٧
شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٢٨٧
المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٣٠٠
المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ٣٠٦

١٢ ـ الآيات الكريمة من الآية الحادية عشر بعد المائة إلى الآية السادسة عشر بعد المائة.

فضل الجهاد فى سبيل الله، وصفات المجاهدين، ووجوب البراءة من المشركين ٣١٥

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٣١٥

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٣٢٣

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ٣٢٦

١٣ ـ الآيات الكريمة من الآية السابعة عشر بعد المائة إلى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة ـ آخر السورة.

أحكام أخرى تتعلق بغزوة بتوك ٣٣٤

شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها ٣٣٤

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة ٣٤٧

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ٣٥٢

خاتمة ٣٦٩

موضوعات الكتاب ٣٧١

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولاً:

فى الفكر الإسلامى وقضاياه:

١ ـ مع العقيدة والحركة والمنهج — نشر دار الوفاء بالقاهرة

٢ ـ الغزو الصليبى والعالم الإسلامى. — نشر داو التوزيع والنشر الإسلامية

٣ ـ المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى. — دار المنار بالقاهرة

٤ ـ الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى. — دار المنار بالقاهرة

٥ ـ التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطرق التغلب عليه. — دار الوفاء بالقاهرة

٦ ـ التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية. — نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

٧ ـ نحو منهج بحوث إسلامى. — نشر دار الوفاء بالقاهرة

٨ ـ السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. — نشر دار عكاظ بالسعودية

ثانيا:

أ ـ فى التربية الإسلامية:

٩ ـ تربية الناشئ المسلم. — نشر دار الوفاء بالقاهرة

١٠ ـ منهج التربية عند «الإخوان المسلمين». — نشر دار الوفاء بالقاهرة

١١ ـ وسائل التربية عند الإخوان المسلمين. — نشر دار الوفاء بالقاهرة

ب ـ سلسلة التربية فى القرآن الكريم:

١٢ ـ التربية الإسلامية فى سورة المائدة. — نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٣ ـ التربية الإسلامية فى سورة النور. — نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٤ ـ التربية الإسلامية فى سورة آل عمران. — نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٥ ـ التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب. — نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٦ ـ التربية الإسلامية في سورة الأنفال.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
١٧ ـ التربية الإسلامية فى سورة النساء.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
١٨ ـ التربية الإسلامية فى سورة التوبة	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

حـ ـ سلسلة مفردات التربية الإسلامية

١٩ ـ التربية الروحية.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٠ ـ التربية الخلقية.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢١ ـ التربية العقلية.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

ثالثا:

فى فقه الدعوة الإسلامية

٢٢ ـ فقه الدعوة إلى الله	نشر دار الوفاء بالقاهرة
٢٣ ـ فقه الدعوة الفردية.	نشر دار الوفاء بالقاهرة
٢٤ ـ المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله.	نشر دار الوفاء بالقاهرة
٢٥ ـ عالمية الدعوة الإسلامية	نشر دار الوفاء بالقاهرة
٢٦ ـ التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة.	نشر دار الوفاء بالقاهرة
٢٧ ـ فقه الأخوة فى الإسلام.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٨ ـ فقه المسئولية.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

رابعا:

سلسلة فى فقه الإسلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا

٢٩ ـ ركن فهم أصول الإسلام.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٣٠ ـ ركن الإخلاص فى مجال العمل الإسلامى	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٣١ ـ ركن العمل أو منهج الإسلاح الإسلامى	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٣٢ ـ ركن الجهاد، أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٣٣ ـ ركن التضحية أو بذل النفس والمال وكل شيئ فى سبيل الله تعالى	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
٣٤ ـ ركن الطاعة.	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣٥ ـ ركن الثبات. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣٦ ـ ركن التجرد. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣٧ ـ ركن الأخوة. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣٨ ـ ركن الثقة. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

خامسا:

فى الأدب الإسلامى:

٣٩ ـ مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه. نشر دار عكاظ بالسعودية

٤٠ ـ جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه نشر دار عكاظ بالسعودية

سادسا:

فى الدراسات الأدبية:

٤١ ـ القصة العربية فى العصر الجاهلى نشر دار المعارف بمصر

٤٢ ـ النصوص الأدبية تحليلها ونقدها نشر دار عكاظ بالسعودية

سابعا:

كتب معدة للنشر إذا أذن الله تعالى:

١ ـ التربية الإسلامية في المدرسة.

٢ ـ التربية الإسلامية فى المجتمع.

٣ ـ باقى سلسلة مفردات التربية الإسلامية «سبع حلقات».

